موسوعة المجتمعات الدينية
في الشرق الأوسط

AR
200.3
M949m
V.6

طوني مفرج

مَوسُوعَة
المجتمعات الدينية في الشرق الأوسط

Nobilis (7 vols)

المجلد السادس

الشيعة (٢)

B. U. C. LIBRARY
16 MAR 1998
RECEIVED

دار نوبيليس

نوبيليس
الأشرفيّة – بيروت – لبنان

جميع الحقوق محفوظة
لا يسمح بنقل أي جزء من هذا الكتاب في أي شكل من الأشكال من دون الحصول على إذن خطّي من الناشر.

الطبعة الأولى ١٩٩٥

محتوى المجلد السادس

المجلّد السادس:الشيعة ـ ٢ ـ.

الفصل السابع: الشيعة وفرقها.
* الإمام السابع: موسى الكاظم ٩ * عليّ الرضا، والأمل الخائب ٢٠ * من محمّد الجواد، إلى الحسن العسكريّ ٢٨.

الفصل الثامن: المهديّ المنتظر.
* الإمام العسكريّ ٤٥ * الإمام المهديّ، والغيبة، والرجعة ٥٠.

الفصل التاسع: في مواجهة العبّاسيّين وقادتهم الأتراك.
* دولة الأدارسة ٦١ * دولة العلويّين في طبرستان ٦٥ * دولة البويهيّين ٧١ * دولة الحمدانيّين ٨٠.

الفصل العاشر: القرامطة.
* ظهور القرامطة ٨٩ * الثوريّة القرمطيّة ٩٣ * أبو طاهر الجنابيّ ٩٨ * النهاية القرمطيّة ١٠٣ * القرمطيّة: إشتراكيّة شيوعيّة مبكّرة ١٠٦.

الفصل الحادي عشر: الاسماعيليون والخلافة الفاطميّة.
* الأئمّة المستورون ١١٣ * مسألة أصل عبيد الله المهديّ ١١٤ * أبو عبد الله الشيعيّ ١١٦
* الخلافة الفاطميّة في طورها الأوّل ١٢٣ * أبو الحسن جوهر الصقلّي ١٢٨
* الحاكم بأمر الله ١٣٥ * إنهيار الدولة الفاطميّة ١٤٢ * الحشّاشون ١٤٦.

الفصل الثاني عشر: العلويّون النصيريّون.
* في نسبتهم ونشأتهم ١٥٥ * في معتقدهم ١٦٤ * في تاريخهم وحاضرهم ١٦٨.

الفصل الثالث عشر: خاتمة.
* الشيعة اليوم ١٧٩.

الفصل السابع

الشيعة وفرقها

- الإمام السابع: موسى الكاظم
- عليّ الرضا ، والأمل الخائب
- من محمّد الجواد ، إلى الحسن العسكريّ

«أمّا والله لئن عـــزّ
بالظلمِ في الدنيـــا
ليذلّنّ بالعدل في الآخرة»

الإمام موسى الكاظم[1].

الإمام السابع: مـوسى الكاظم

خلف الإمام السادس للشيعة أبا عبد الله جعفراً الصادق المتوفّى سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. ابنه مـوسى، الذي لُقّب بـ «الكاظم» لأنّه «كـان يحسنُ إلى من يسيء إليه، وكانت هذه عادته أبدا[2]». ولقد تعدّدت الروايات حول الملابسات التي رافقت تسنّم موسى الكاظم سدّة الإمامة، والتي تتعلّق بها مسألةُ ظهور الإسماعيليّة والسبعيّة، وما يتّصل بذلك من ملابسات. وسنحاول فيما يلي أن نستعرض أبرز ما تعدّد من تلك الروايات.

تُختصر الرواية الأولى بأنّه كان لجعفر الصادق ستّة أبناء: إسماعيل (وهو البكر) وعبد الله، ومحمّد، وموسى، وعليّ، والعبّاس[3]. وكان الخليفة العبّاسي: أبو جعفر المنصور، الذي قيل إنّه أمر بدسّ السمّ للإمام الراحل: جعفر الصادق، قد كتب في الحال «رسالة إلى والي المدينة ـ حيث توفّي الصادق ـ يأمره فيها أن يذهب فور استلامها إلى منزل سليل النبيّ المتوفّى بحجّة تقديم العزاء، وأن يسأل عن نصّ وصيّة الإمام بشأن خلافته، أمّا الرجل الذي ستذكره الوصيّة، فيجب قطع رأسه حالاً...». بذا اعتقد الخليفة العبّاسيّ، القلق على خلافته من سلالة النبيّ أحفاد فاطمة وعليّ، أنّه يستطيع كسر حلقة الأئمّة، وبهذا ينتهي العبّاسيّون من مشكلة السلالة المباشرة لمحمّد، ومن الخوف من إمكانيّة نجاحها في الوصول إلى

---

١ ـ اليعقوبي، طبعة دار صادر (بيروت) ج ٢ ص ٤١٤

٢ ـ ابن الأثير، الكامل في التاريخ، طبعة دار صادر (بيروت ١٩٨٢) ج ٦ ص ١٦٤

٣ ـ اليعقوبي، ج ٢ ص ٣٨٣

حقوقها يوماً؛ وإذ نفّذ والي المدينة أوامر الخليفة، ذُهل تماماً، كما سيذهل الخليفة عندما سيطّلع على مضمون الوصيّة. فلقد أوصى جعفر الصادق بالإمامة لأربعة أشخاص، هم: الخليفة بالذات، والوالي بالذات، وابنه الأكبر إسماعيل، وابنه الأصغر موسى...».

لا شكّ في أنّ وصيّة الإمام قد جاءت على هذا الشكل، ليحول دون تمكّن الخليفة من القضاء على الإمامة؛ ويتّضح من ذلك أنّ الإمام السادس، كان مدركاً لحقيقة نوايا العبّاسيّين. وبالفعل، فقد حالت قائمة الأسماء هذه دون تمكّن الخليفة من تحقيق مأربه القاضي بقتل خليفة الإمام السادس[1].

إلاّ أنّ إسماعيل، الابن البكر لجعفر الصادق، كان قد قضى قبل موت أبيه بحوالى خمسة عشر عاماً. وقد أحدث هذا الأمر مسألة أساسيّة عند شيعة عليّ.

في الواقع، كان قد شاع في المدينة أن إسماعيل بن جعفر قد توفّي سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م[2]. بيدَ أنّ ظهور اسمه في وصيّة أبيه جعفر الذي توفّي سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. قد خلق إشكالاً كبيراً عند الشيعة، الذين قال بعضهم بأنّ إسماعيل لم يمت، إنّما هو حيّ غائب. وبما أنّ الصيغة الشرعيّة للشيعة تُقلّد منصب الخلافة للابن البكر، فقد تمسّك بعضهم بعد موت جعفر بهذه الصيغة، وقالوا بأنّ إسماعيل هو الإمام الشرعيّ الحقيقيّ، الذي لم يمت مطلقاً، إنّما هو في غيبة عند الله، وهو يبقى إماماً عبر الزمن، إلى أن يبعثه الله مرّة أخرى يوم القيامة. وقد عُرف هؤلاء بالإسماعيليّة، نسبة إلى إسماعيل، كما عُرفوا بالسبعيّة، نسبة إلى الإمام السابع. ولكنّهم اختلفوا في هويّة الإمام السابع، فصاروا فرقتين: فرقة تقول

١ - غرهارد كونسلمان، سطوع نجم الشيعة، (الترجمة العربيّة) نشر مدبولي، (القاهرة ١٩٩٢) ص ٧٢ - ٧٣

٢ - اختلفت المراجع في تحديد سنة وفاة إسماعيل، بين قائل بأنّه توفّي سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ م. وقائل بأنّ وفاته كانت سنة ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م. أو ما بينهما. إلاّ أنّ المدوّنات قد اجمعت على أنّه مات قبل موت أبيه.

بأنّ إسماعيل، المتوفّى قبل وفاة أبيه الإمام السادس، إنّما هو الإمام السابع، وفرقة تقول بأنّ الإمام السابع إنّما هو ابن إسماعيل، واسمه محمّد المكتوم الذي اختفى وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، في المدينة المنوّرة، حيث وُلد. ويبدو أنّه هرب خوفاً من غضبة الخليفة العبّاسي عليه، واختبأ في مكان بالقرب من الريّ في بلاد فارس، ولم يعد يعرف أحد شيئاً عنه[1]. وإنّ السّبعيّة من أصحاب هذا الرأي، يعتبرون أن محمّداً المكتوم، هو الإمام الغائب.

وهكذا، فقد واجه الابن الآخر لجعفر: موسى، الذي ورد اسمه هو الآخر في الوصيّة، مشكلة في الاعتراف بإمامته، وهو مدرك أن أخاه إسماعيل، قد مات في السنوات اللاّحقة لكتابة أبيه للوصيّة.

ولم تكن تلك الصعوبة الوحيدة التي واجهت موسى. فلقد كان للإمام الراحل ولدان آخران، كانا على قيد الحياة. وإذ كان موسى الابن الأصغر لجعفر، وكان أخواه يكبرانه سنّاً، فقد استاء الأخوان من الوصيّة.

ويُروى أنّ «موسى استطاع أن يثبّت إمامته من خلال ما يشبه المعجزة، إذ وضع في فناء منزله حطباً وأشعل النار فيه، ثمّ ولج إلى وسط النار وبقي واقفاً هناك دون أن يلحق به أدنى أذى، حتّى إنّ ملابسه لم تحترق. ثمّ طلب موسى من أخويه المتعجّبين أن يدخلا إليه وهو في النار، إن كانا موقنَين أنّهما على حقّ في طلبهما منصب الإمامة، وإذ لم يجرؤ أيّ منهما على ذلك، أصبح موسى الإمام السابع من دون منازع حيّ»[2]، وتبعه الشيعة باستثناء أولئك الذين قالوا بإمامة إسماعيل.

أمّا الرواية الثانية التي جاءت نتيجة أبحاث دقيقة ومضنية، فتستند إلى مخطوط للهمذاني نُشر سنة ١٩٥٨ يحمل عنوان: «في نسب الخلفاء الفاطميّين» جاء فيه:

١ - راجع: د. فيليب حتّي، صانعو التاريخ العربي، دار الثقافة، (بيروت ١٩٦٩) ص ١٣٦ - ١٣٧

٢ - كونسلمان، ص ٧٧

«لمّا اشتدّت المحنة وعظمت التقيّة في أيّام جعفر بن محمّد... كتم اسم الإمام من وِلْده تقيّة عليه، فلم يطّلع عليه في حياة جعفر بن محمّد ولا بعد وفاته... إلاّ واثق الثقات من شيعته، وكان يقول: التقيّة ديني ودين آبائي، ومن لا تقيّة له فلا دين له... فتعلّق كل فرقةٍ من الشيعة بواحد من أربعة من وِلد جعفر، وهم: موسى وإسماعيل ومحمّد وعبد الله. وكلّ منهم على غير عقد مؤكّد منه، وكان صاحب الحقّ عبد الله بن جعفر... فلم يكن عُلم مقامه إلاّ عند «الأبواب» والثقات تقيّةً عليه. وقد تعلّق به قوم على غير هذه الحقيقة توهّماً منهم[1] ... فلمّا أراد الأئمّة من وِلْد جعفر إحياء دعوة الحقّ، خافوا من نفاق المنافقين، فتسمّوا بغير أسمائهم، فجعلوا اسماءَهم للدعوة في مقام الحجيج، وتسمّوا بمبارك وميمون وسعيد، للفأل الحسن في هذه الأسماء. وأشاروا بالإمامة إلى عبد الله، وتسمّى إسماعيل، ودعوا إلى أنّ المهدي، ... اسمه محمّد بن إسماعيل، لأنّه محمّد، وهو من وِلد عبد الله الذي تسمّى بإسماعيل، وهما لا يوجدان، وأصحاب الحقّ سالمون آمنون، فكان كلّما قام منهم إمام تسمّى بمحمّد، والإشارة في الدعوة إلى محمّد بن إسماعيل، والمراد بإسماعيل عبد الله، والمراد بمحمّد كلّ من كان في عصره إلى أن يظهر صاحب الظهور وهو محمّد، فتزول التقيّة، والأمر منتظم بهذه التسميّة[2]»...

كان من شأن هذه الوثيقة أن تميط اللِّثام عن سرّ اتّباع بعض شيعة عليّ، بعد موت الإمام جعفر، لابنه إسماعيل الميت، إذ أوضحت أنّ إسماعيل الذي اتُّبع، إنّما هو عبد الله الذي تسمّى، ستراً، بإسماعيل. إلاّ أنّ ما أورده الشهرستاني من أنّ عبد الله هذا الذي مات بعد موت أبيه بسبعين يوماً، «لم يكن له ولد ذكر» من شأنه أن يُعيد المسألة إلى غموضها. ذلك أنّ محمّد بن إسماعيل، الذي قال الإسماعيليّون بإمامته بعد إسماعيل، في هذه الحالة، لا يكون موجوداً. كما أنّه من غير المنطقيّ، شيعيّاً، أن يقول هؤلاء بإمامة محمّد بن إسماعيل الحقيقيّ، الابن البكرلجعفر، بعد موت عبد الله، المسمّى ستراً بإسماعيل، لأنّ الإمامة يجب أن

١ - قيل أنّ عبد الله لم يعش بعد أبيه أكثر من سبعين يوماً ولم يكن له ولد ذكر، وأنّ الفرقة التي قالت بإمامته تسمّى «القطحيّة»: الشهرستاني، الملل والنحل، (القاهرة ١٩٦٨) ج ١ ص ١٦٧؛ وراجع: الحسن بن موسى، فرق الشيعة (استانبول ١٩٣١) ص ٦٥ - ٦٦

٢ - المهدي عبد الله، في نسب الخلفاء الفاطميين، تقديم حسين فيض الله الهمذاني، (القاهرة ١٩٥٨) ص ٩ - ١٠؛ راجع: سامي العياش، الإسماعيليّون في المرحلة القرمطيّة، دار ابن خلدون، (بيروت ١٩٨١) ص ٥٧ - ٥٨

تنتقل إلى ابن الإمام دون سواه. أمّا رأينا في الموضوع، فهو أنّ عبد الله، وموسى، إنّما هما شخص واحد، وأنّ عبد الله هو الابن البكر لجعفر الذي كان معروفاً بـ «أبي عبد الله».

أمام هذه المتاهات، لا بدّ من اعتبار أنّ قسماً من الشيعة، وهم الذين عُرفوا بالإسماعيليّة أو السبعيّة، قد قالوا بإمامة إسماعيل، أمّا سائر الشيعة، وهم الذين سيعرفون فيما بعد بالاثني عشريّة، فقد قالوا بإمامة موسى بن جعفر، سواء كان ذلك بعد موت جعفر مباشرة، أم بعد موت عبد الله المسمّى ستراً بإسماعيل. وسيكون للبحث عودة إلى موضوع الإسماعيليّة. أمّا مسار السرد هنا، فهو الاثنا عشريّة.

عندما آلت الإمامة إلى موسى الكاظم سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. كان على سدّة الخلافة: المنصور، ثاني الخلفاء العبّاسيين (١٣٦ هـ / ٧٥٤ م. - ١٥٨ هـ / ٧٧٥ م.). وقد خلفه المهديّ (١٥٨ هـ / ٧٧٥ م. - ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م.). ثمّ الهادي (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م. - ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م.). وجاء بعد الهادي أخوه هارون الرّشيد.

بقي المنصور طوال عهده حذراً من الشيعة، عموماً، وفي آخر سنة من حياته، كان لا يزال يأمر بحبس كلّ من يظهر من الشيعة داعيةً أو متطرّفاً[1]. إلاّ أنّه بعد ما حلّ في العام ١٤٥ هـ / ٧٦٢ م. بأحفاد الحسن: إبراهيم وأخيه محمّد ووالدهما عبد الله ومن سار معهم في حركتهم الانقلابيّة، وقد تمكّن المنصور من إبادتهم والقضاء على حركتهم تماماً[2]، قد أدّى إلى هدوء الشيعة، بجميع فرقهم، طوال بقيّة عهد المنصور. وعندما مات المنصور، كان لا يزال في سجنه بعض أحفاد الحسن، ومنهم الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن، الذي حاول الفرار بعد

١ - راجع: إبن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٥

٢ - راجع الفصل السابق، الشيعة ١ (الفصل السادس) من هذه الموسوعة.

موت المنصور بمحاولة حفر نفق تحت السجن، غير أنّ وشاية أعلمت الخليفة المهديّ بالأمر، فأمر بنقل الحسن إلى سجن آخر، تمكّن الحسن من الفرار منه، ولكنّ المهديّ عاد واعتقله. ولمّا مثل الطالبي أمام الخليفة، قال له:

«يا أمير المؤمنين، إنّك قد بسطت عدلك لرعيّتك، وأنصفتهم، وأحسنت إليهم، فعظم رجاؤهم، وقد بقيتْ أشياءُ لو ذكرتُها لك لم تدَع النظر فيها، وأشياء خلف بابك تعمل فيها ولا تعلم بها، فإن جعلت إليّ السبيل إليك رفعتها».

وإذ وثق الخليفة بكلام الطالبيّ، استجاب لرغبته، فكان هذا الأخير يدخل إليه كلّما أراد، «ويرفع إليه النصائح في الأمور الحسنة الجميلة، من أمر الثغور، وبناء الحصون، وتقوية الغزاة، وتزويج العزّاب، وفكاك الأسرى والمحبوسين، والقضاء على الغارمين، والصدقة على المتعفّفين». وهكذا نشأت صداقة متينة بين الخليفة والطالبيّ، وقد كتب العبّاسيّ توقيعاً «بأنّه قد اتخذه أخاً في الله ووصله بمائة ألف[1]».

لكنّ هذا لم يمنع المهديّ من السير على خطى والده في الحذر من آل عليّ، ومن كرههم، ومن محاولة التخلّص منهم[2]، بالدسائس والاغتيال، حتّى إنّه كان يرفض أن يقال بأنّ ابن أبي طالب «وارث الإمامة من بعد الرسول[3]». ويُستدلّ من بعض المدوّنات أنّه كان يسجن الإمام موسى الكاظم لا لشيء إلاّ لأنّه كان يخشى من خروجه عليه، إلى أن قرأ يوماً، وهو يصلّي، آية تقول: «فهلْ عَسَيتُم إن تولَّيتُم أن تُفسدِوا في الأرض وتقطِّعوا أرحامكم[4]»، فأحضر الإمام إليه، وقال له: «يا موسى! إنّي قرأتُ هذه الآية فخفت أن أكون قد قطعت رحمك، فوثّق لي أنّك لن تخرج عليّ». وعندما ردّ الإمام بالإيجاب، أطلق له سبيله[5].

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٧ ـ ٣٨
٢ ـ المرجع السابق، ج ٦ ص ٧١ و ٧٢
٣ ـ المرجع السابق، ص ٨٤
٤ ـ الآية ـ ٤٧: ٢٢
٥ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٨٥

وبموت المهديّ مسموماً بعد أحد عشر عاماً من الحكم، وانتقال الخلافة إلى ابنه موسى الهادي، ظهر الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب بالمدينة.

يردّ الشيعة سبب خروج الحسين هذا، إلى «ظلم العبّاسيّين ومطاردتهم لأبناء عليّ أمير المؤمنين». وكان مع الحسين جماعة من أهل بيته، منهم إدريس، ويحيى، وسليمان بنو عبد الله بن الحسن. وإذ تمكّن أحفاد عليّ في بداية الأمر من طرد عامل العبّاسيّين من المدينة المنوّرة، بايع الناس الحسين على كتاب الله وسنّة نبيّه، وأقام وأصحابه بالمدينة أيّاماً يتجهّزون، ثمّ خرجوا إلى مكّة، فقابلهم بها جيش الحاكم العبّاسيّ يوم التروية الثامن من ذي الحجّة (١٦٩ هـ / ٧٨٥ م.) فدارت الدوائر على الحسين، فقُتل وجماعة من أهل بيته وأصحابه، وجُمعت رؤوسهم، فكانت مئة ونيفاً، وأُرسلت إلى الخليفة. وكان من بين الرؤوس رأس سليمان بن عبد الله بن الحسن المثنّى، وكان مقتلهم بموضع يقال له «فخّ» على ثلاثة أميال من مكّة. أمّا يحيى فإنّه فرّ من الوقعة إلى بلاد الديلم على شواطئ بحر قزوين، حيث دعا الناس إلى بيعته، وقد تجاوبوا، وبايعوا حفيد عليّ، الذي اشتدّ أمره وقويت شوكته هناك، إلى أن قتله الرّشيد فيما بعد. أمّا إدريس، بن عبد الله بن الحسن، فإنّه فرّ إلى مصر، ومنها انتقل إلى المغرب، حيث سيؤسّس دولة الأدارسة[1].

لم تدم خلافة الهادي سوى سنة وثلاثة أشهر، وبموته سنة ١٧٠ هـ / ٧٨٦ م. آلت الخلافة العبّاسيّة إلى أخيه هارون الرّشيد، الذي كان في الثانية والعشرين من عمره.

١ ـ الشيخ محمّد جواد مغنيّة، دول الشيعة في التاريخ، (كربلاء ١٩٦٥) ص ٨ ـ ١٠؛ إبن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٩٠ ـ ٩٤؛ المسعودي، مروج الذهب، (القاهرة ١٩٦٤) ج ٣ ص ٣٠٨؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٠٥

كان أوّل ما نفّذه هارون الرّشيد ضدّ الشيعة، أنّه مكر بيحيى بن عبد الله ابن الحسن الذي كان قد قوي في بلاد الديلم، حيث «اشتدّت شوكته، وكثرت جموعه، وأتاه الناس من الأمصار». وتمكّن الرّشيد بواسطة بعض السعاة من إقناع يحيى، حفيد الحسن، بالمجيء إلى بغداد، بعد أن منحه الأمان بيمين مغلّظة منصوصة بخطّ يده، وقد أشهد العلماء والأكابر عليها. وإذ حضر يحيى إلى بغداد، أكرمه الرشيد، وأمر له بمال كثير في العلانية، غير أنّه سرّاً، أمر بحبسه. وفي النهاية تمكّن الخليفة العبّاسيّ من الغدر بحفيد الحسن الذي مات في سجن بغداد سنة ١٧٦ هـ / ٧٩٢ م[١]. وبعد ثلاث سنوات، أمر الرّشيد بسجن الإمام موسى الكاظم، الذي نُقل من المدينة إلى سجن الخلافة ببغداد دون مقاومة. وقد ذكر الذين أشرفوا على حبس الإمام الشيعيّ السابع، أنّه «كان إذا صلّى العتمة، حمد الله ومجّده ودعاه إلى أن يزول الليل. ثمّ يقوم فيصلّي، حتّى يصلّي الصبح، ثمّ يذكر الله تعالى حتّى تطلع الشمس، ثم يقعد إلى ارتفاع الضحى، ثمّ يرقد، ويستيقظ قبل الزوال، ثمّ يتوضّأ ويصلّي، حتّى يصلّي العصر، ثمّ يذكر الله، حتّى يصلّي المغرب، ثمّ يصلّي ما بين المغرب والعتمة...». وذكروا أنه لمّا كان محبوساً، بعث إلى الرّشيد برسالة جاء فيها: «إنّه لن ينقضي عنّي يوم من البلاء إلاّ ينقضي عنك معه يوم من الرّخاء، حتّى ينقضيا جميعاً إلى يوم ليس له انقضاء يخسر فيه المبطلون[٢]».

تعدّدت الروايات حول الأسباب الحقيقيّة التي كانت وراء قيام هارون الرّشيد بسجن الإمام الشيعيّ وحول ظروف هذا العمل. منها رواية تقول بأنّ «الرّشيد اعتمر في شهر رمضان من سنة ١٧٩ هـ / ٧٩٥ م. فلمّا عاد إلى المدينة، دخل

---

١ ـ مغنّية، دول الشيعة في التاريخ، ص ٩؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٢٥؛ قابل: المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥٣؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٠٨

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٦٤

إلى قبر النبيّ يزوره، ومعه الناس، فلمّا انتهى إلى القبر وقف فقال: ـ السلام عليك يا رسول الله يا ابن عمّ ـ. وقد رام الرّشيد من ذلك الافتخار بنسبه على من حوله. وهنا دنا موسى بن جعفر، وهو السليل المباشر للرسول عبر ابنته فاطمة، وقال: ـ السلام عليك يا رسول الله، يا أبي الحبيب ـ. وهنا تغيّر وجه الرّشيد وقال: ـ هذا الفخر يا أبا الحسن جدّاً ـ؛ ثمّ أخذه معه إلى العراق، وحبسه[١]».

ويقول بعض الروايات إن هارون الرّشيد كان قد استغلّ رحلة الحجّ هذه إلى مكّة، ليختبر الإمام السابع، فكان الخليفة العبّاسيّ يريد معرفة ما إذا كان موسى ابن جعفر الكاظم يقف وراء الساخطين والمحرّضين على الثورة، خاصّة وأنّ الخليفة العبّاسيّ كان يعاني من أنّ هناك من يعيش في هذه المدينة المقدّسة ويستطيع الاستناد إلى صلة القربى الوطيدة مع الرسول، وكان له مكانة مرموقة عند هيجان المشاعر في العراق، الذي يميل أكثر أهله إلى شيعة عليّ. وكان الرّشيد قد حقّق بعض المكانة والاحترام عند هؤلاء الشيعة، إثر ما رُوي من أنّ الخليفة، وهو في رحلة صيد، قد توقّف حصانه فجأة عن المسير معانداً، وإذ دُهش الخليفة وصحبه من ارتعاش الحصان الذي أبى التقدّم، تفحّصوا المكان، فوجدوا نتوءاً صغيراً في الرمال، ليس من شأنه أن يلفت النظر، لكنّ السلوك الغريب للجواد، جعل الخليفة يأمر بنبش الرمال هناك، ولشدّما كانت دهشتهم كبيرة إذ وجدوا جثّة سليمة كان بجمجمتها ثقب في الجبهة، «فأدرك» الخليفة وصحبه في الحال أنّ هذه الجثّة إنّما هي لعليّ بن أبي طالب... وعلا الهتاف الذي بدأ من قبل حاشية هارون الرّشيد، وسرعان ما عمّ شواطئ دجلة والفرات.

بهذا، علا شأن الخليفة عند شيعة عليّ، الذين اعتبروا أنّ الرّشيد يتمتّع برحمة الله ورضاه، فإنّه، تعالى، لا يمكن أن يكلّف ملعوناً بمثل هذا الحدث الكبير.

---

١ ـ المرجع السابق.

وقد أتبع الرشيد هذا الحدث بإقامة ضريح بسيط فوق القبر. وحول هذا القبر، الذي بقي محمياً طويلاً ببناء لائق، سرعان ما نشأت المدينة الشيعيّة المقدّسة: النجف الأشرف، التي هي أهمّ قبلة لحجيج الشيعة بجانب كربلاء، حيث دفن الحسين.

أمّا الخليفة، فكان على يقين من أنّ أهميّة مقبرة عليّ بالنسبة لمشاعر الشيعة، تفوق أهميّة منزل الإمام السابع موسى بن جعفر الكاظم، حتّى وإن كان عليّ ميتاً، والكاظم على قيد الحياة. فمن كان يريد أن يحجّ إلى مكان مقدّس، لن يتّجه إلى المدينة ليمجّد الإمام بعد اليوم، إنّما هو سيذهب إلى النجف الأشرف ليصلّي عند ضريح عليّ[1].

بعد مرور أربع سنوات على سجنه، مات الإمام موسى الكاظم في بغداد سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م. وقد اختلفت الروايات حول ظروف موته، فمنها ما ذكر بأنّه قضى في سجن الرّشيد[2]، وعندما توفّي، أحضر الخليفة القوّاد والكتّاب والهاشميّين والقضاة ومن حضر ببغداد من الطالبيّين، ثمّ أمر بالكشف عن وجه الإمام، وقال السجّان للحاضرين: أتعرفون هذا؟ - قالوا: نعرفه حقّ معرفة، هذا موسى بن جعفر. - فقال السجّان: أترون أنّ به أثراً وما يدلّ على اغتيال؟ - قالوا: لا! - ثمّ غُسل وكُفّن وأُخرج ودُفن في مقابر قريش في الجانب الغربيّ[3].

بيد أنّ رواية أخرى منقولة عن عبد الله بن مالك الخزاعيّ الذي كان على شرطة الرّشيد، تقول بأنّ الخليفة قد استدعى ليلاً رئيس شرطته على جناح السرعة، وعندما دخل هذا إليه، وجده جالساً على فراشه مغموماً. وبعد سكوت دام حوالى الساعة، كلّم الخليفة رئيس شرطته، فأخبره عن أنه رأى في منامه

١ - راجع كونسلمن، ص ٨٣ - ٨٤
٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٦٤
٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤١٤

حبشيّاً قد أتاه ومعه حربة، فقال له: «إن لم تُخَلِّ عن موسى بن جعفر الساعة، نحرتك بهذه الحربة». وأمر الخليفة رئيس شرطته بأن يذهب ويطلق سراح حفيد الحسين، وبأن يعطيه ثلاثين ألف درهم وأن يقول له: «إن أحببت المقام فلك عندي ما تحب، وإن أحببت المضيّ إلى المدينة فالإذن في ذلك إليك». ويروي الخزاعي أنّه ذهب إلى السجن، وأبلغ إلى موسى بما أمره الخليفة، وقال له: «لقد رأيت من أمرك عجباً!». فكان من الإمام الشيعي أن أخبر الخزاعيّ بأنّه إذ «كان نائماً، أتاه النبيّ(صلعم) فقال: يا موسى، حُبست مظلوماً فقل هذه الكلمات فإنّك لا تبيت هذه الليلة في الحبس. فقال الكاظم: «بأبي وأمّي ما أقول؟» فقال: «قل يا سامع كل صوت، ويا سابق الفوت، ويا كاسي العظام لحماً ومنشرها بعد الموت، أسألك بأسمائك الحسنى وبإسمك الأعظم الأكبر المخزون المكنون الذي لم يطّلع عليه أحد من المخلوقين، يا حليماً ذا أناة لا يُقوى على أناته، يا ذا المعروف الذي لا ينقطع ابداً، ولا يُحصى عدداً، فرّج عني». فكان ما ترى[1]. وتذكر هذه الرواية أنّ الإمام موسى الكاظم قد توفّي بعد ذلك، وتحديداً سنة ١٨٦ هـ / ٨٠١ م. في بغداد مسموماً. غير أن المعتَمد في سلسلة الأئمّة أنّ الإمام الكاظم قد قبض سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م. وقد خلفه في الإمامة، ابنه البكر، عليّ الرّضا. وهو واحد من ثمانية عشر ذكراً، لهم ثلاث وعشرون أختاً، هم مجموع أبناء موسى الكاظم، الإمام الشيعيّ السابع من أئمّة الاثني عشريّة، وكان له من العمر إذ ذاك ثمان وخمسون سنة. وقد أوصى موسى بن جعفر ألاّ تتزوّج بناته، فلم تتزوّج واحدة منهنّ إلاّ أمّ سلمة، فإنّها تزوّجت بمصر، وقد تزوّجها القاسم بن محمّد بن جعفر بن محمّد، «فجرى في هذا بينه وبين أهله شيء شديد، حتّى حلف أنّه ما كشف لها كنفاً، وأنّه ما أراد إلاّ أن يحجّ بها[2]».

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٥٩ و ٣٦٥
٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤١٤ - ٤١٥

«إنّ مشيَ الرجال مع الرجل
فتنة للمتبوع ومذلّة للتابع»
علي الرضا[1]

علي الرّضا، الأمل الخائب

كان من الطبيعي أن يعقب الابن البكر لموسى، واسمه عليّ، أباه في تولّي الإمامة إثر وفاة موسى. وكان عليّ، الذي وُلد بالمدينة سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. قد بلغ يومها (سنة ١٨٣ هـ ٧٩٩ م.) الرابعة والثلاثين من عمره. وكان على الإمام الشيعيّ الثامن الشابّ، أن يبقى طوال السنوات العشر الأولى من عهد إمامته، وهي السنوات العشر المتبقّية من عهد هارون الرشيد، أن يبقى حذراً، يقظاً، متخوّفاً من ملاقاة المصير الذي لقيه والده الإمام السابع على يد الخليفة العبّاسيّ الذي سطع نجمه فبزّ سطوع نجم الإمام، حتّى عند الشيعة أنفسهم[2]. وكان الرّشيد، في هذه الحقبة منشغلاً بالنزاع الذي نشب بين شرق الدولة الإسلاميّة وغربها، وبذلك الذي اشتدّ بأرض الشام بين القيسيّة واليمنيّة، الحزبين اللذين ظهرا بمختلف الأسماء. ففي عهد هارون الرّشيد سُفكت دماء كثيرة في دمشق وحوران والبقاع والأردن وحمص. وكان هذا القتال قد نشب واستمرّ سنتين متواصلتين بسبب أنّ قيسيّاً سرق بطّيخة من بستان يمنيّ[3]. حتّى إنّ الخليفة فكّر بقيادة حملة تأديبيّة عليهم، ثمّ عاد فكلّف بها قائداً من البرامكة، تمكّن من تجريد المتقاتلين بالشام من سلاحهم تماماً[4].

كذلك كان على هارون الرّشيد في تلك الحقبة نفسها أن يهتمّ بجماعة أخرى

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٣
٢ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٥١؛ كونسلمن، ص ٨٥؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤١٤ و ٤٥٣
٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٢٨
٤ - الطبري، تاريخ الرسل والملوك، نشر (ليدن ١٨٧٩) ج ٣ ص ٦٣٩

من أحلاف الشيعة، هم البرامكة، أبناء الأسرة الفارسيّة العريقة المتحدّرة من كاهن بوذيّ كبير اسمه برمك، وقد قام أفرادها بجلائل الأعمال، وبذلوا بسخاء نادر، حتّى غدت لفظة «برمكيّ» مرادفة للجود[1]. بيدَ أنّ هارون الرّشيد قد قرّر القضاء عليهم نظراً لما حققوه من مهابة ووجاهة، فكان أن أوقع بهم في السنة الرابعة لإمامة عليّ الرّضا (١٨٧ هـ / ٨٠٢ م.). ومن ثمّ قضى عليهم فيما عرف بنكبة البرامكة[2]. ولكنّ واقع الإمام الشيعيّ الثامن: عليّ الرّضا، قد تبدّل بموت هارون الرّشيد سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٨ م.) ونشوب النزاع بين أبنائه وورثته.

كان من جملة أبناء الرّشيد الذكور الاثني عشر، محمّد البكر، وهو الملقّب بالأمين، والثاني عبد الله، وهو الملقب بالمأمون. وكان الرّشيد قد أوصى بالخلافة لولديه الأمين فالمأمون من بعده. وقد فرض على ولديه هذين أن يوقّع كل منهما على تعهّد بأن يحترم وصيّة أبيه في هذا الشأن، وأن يخلص لأخيه كل الإخلاص. وقد تمّ ذلك سنة ١٨٦ هـ / ٨٠١ م. بخلال حجّ الرّشيد إلى مكّة، حيث كتب الشقيقان التعهّدين على نفسيهما بخطّ يديهما، وقد شهد الشهود على الكتابين اللذين عُلّقا على باب الكعبة، وبعد أن قُرئا مراراً على الناس، أودعا الكعبة[3]. إلاّ أنّ هذا لم يمنَع من اقتتال الشقيقين بشأن الخلافة، بعد موت الرّشيد، وانقسام الأمبراطوريّة الإسلاميّة بينهما بشكل واضح الفرز. ذلك أنّ الأمين، كان من أمّ عربيّة، وهي زبيدة أمّ جعفر بنت جعفر المنصور، بينما كانت أمّ المأمون، أمّ ولد، فارسيّة، اسمها مراجل الباذغيسيّة[4]. ومع أنّ بعض المؤرّخين يذكر أنّ أمّ المأمون الفارسيّة قد ماتت فور ولادتها للمأمون[5]. فقد تحزّب أهل فارس بأكثريّتهم لهذا

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٦٢
٢ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٧٥ وما يليها؛ الطبري ج ٣ ص ٦٧٦ - ٦٨٠؛ المسعودي، ج ٣ ص ٣٧٧ - ٣٩٥.
٣ - نص الكتابين وتعهدي الأخوين في: اليعقوبي، ج ٢ ص ٤١٦ - ٤٢١
٤ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣١٦؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٣٣ و ٤٤٤؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٩٦ و ج ٤ ص ٤؛ السّيوطي، تاريخ الخلفاء (القاهرة ١٩٥٢) ص ٢٩٠ و ٢٩٧ و ٣٠٦
٥ - السّيوطي، ص ٣٠٦

الأخير ضدّ أخيه المولود من أمّ عربيّة، وكذلك فعل أهل العراق، وأكثرهم من الشيعة.

كان هارون الرّشيد قد بايع، إضافة إلى ابنيه: الأمين، وبعده المأمون، إلى ابنه الثالث: القاسم الملقّب بالمؤتمن، بولاية العهد بعد المأمون، «فإذا أفضت الخلافة إلى المأمون، كان أمر القاسم إليه، إن شاء أن يقرّه أقرّه، وأن يخلعه خلعه[1]». وكان القاسم، وهو الابن الثالث للرشيد، مثل المأمون، من أمّ من حريم الخليفة. وكانت بداية الفتنة بين الأمين والمأمون، عندما عمل الأمين بنصيحة بعض المقرّبين منه. فبعد أن كان قد أمر بالدّعاء لابنه موسى بالإمرة، بعد الدعاء للمأمون والمؤتمن، أمر بعد وقت قصير بإسقاط اسم القاسم: المؤتمن، وراسل المأمون وهذا الأخير والٍ على خراسان، طالباً منه الموافقة على تقديم اسم ابنه موسى على اسمه هو! ولكنّ المأمون قد رفض هذا الأمر بعد استشارة أعوانه، فما كان من الأمين إلاّ أن نكث عهده لأبيه وللمؤمنين، وخلع المأمون من ولاية العهد، وأحلّ مكانه طفله موسى بعد أن لقّبه بـ «الناطق بالحقّ[2]»... وأرسل إلى الكعبة من أتاه بكتابَي التعهّد اللذين وضعهما الرّشيد فيها ببيعة الأمين والمأمون، ومزّقهما[3].

كانت ردّة فعل شيعة خراسان على عزل المأمون ابن الفارسيّة من ولاية العهد عنيفة، وكان أوّل ما فعلوه، أنّهم صاروا يسمّون المأمون إمام المؤمنين[4]. فردّ الأمين بإلغاء العملة التي كان قد ضربها المأمون بخراسان، وبإضافة اسم ابنه الثاني: عبد الله، إلى الدعاء، ولقّبه بـ «القائم بالحقّ» وأمر بعض قوّاده بالسير إلى خراسان لمحاربة المأمون[5]. وبعد معارك عديدة بين الأمين، وعلى رأس جيوشه قادة

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٦٤
٢ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩؛ السّيوطي، ص ٢٩٧ ـ ٣٠٠؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٤٠٥ ـ ٤٠٦
٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٣٤
٤ ـ السّيوطي، ص ٢٩٨
٥ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٣٩ ـ ٢٤٧

يخاصمون الشيعة، والمأمون، وجيوشه بأكثريتها الساحقة من الشيعة، وقد دارت تلك المعارك في فارس وفي العراق، دارت الدوائر على الأمين، ولم يكن قد مضى على خلافته سوى أربع سنوات وسبعة أشهر وواحد وعشرين يوماً، لمّا وُضع رأسه بين يدي أخيه المأمون، الذي ردّه إلى العراق ليُدفن مع جثّته[1].

يتّضح الفارق في الانتماء السياسيّ، إذا صحّ التعبير، بين فريق الأمين وفريق المأمون، ممّا جاء في بعض المدوّنات، من أنّه إثر مقتل الأمين، دخل أحد خدم أمّه زبيدة إليها وقال لها: «ما يجلسك وقد قُتل أمير المؤمنين؟» ـ فقالت: «ويلك! وما أصنع؟» ـ فقال: «تخرجين فتطلبين بثأره كما خرجت عائشة تطلب بدم عثمان» ـ فقالت: «اخسأ لا أمّ لك، ما للنساء وطلب الثأر ومنازلة الأبطال؟». ولمّا كتبت أمّ الأمين، زبيدة، إلى المأمون شعراً تعاتبه على قتل أخيه، قرأ المأمون الشعر، فبكى، ثمّ قال: «اللّهم إنّي أقول كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، كرّم الله وجهه، لمّا بلغه قتلُ عثمان: ـ والله ما قتلت، ولا أمرت، ولا رضيت[2] ـ».

قبل مقتل الأمين، كان عدد من البلدان لا بأس به قد بايع المأمون، وبعد مقتل الأمين سنة ١٩٨ هـ / ٨١٣ م. لم يبقَ أحد إلاّ أعطى طاعته للمأمون، الذي «كان معروفاً بالتشيُّع[3]». وكان أهمّ إجراء أساسيّ إتّخذه الخليفة العبّاسيّ السابع، أنّه بعد سنتين من تولّيه الخلافة، خلع أخاه الآخر: المؤتمن، عن ولاية العهد، وجعل وليّ العهد من بعده، الإمام الشيعيّ الثامن: عليّ بن موسى الكاظم «ولقبه الرضى من آل محمّد[4]»، و «بايع له ودُعي له على المنابر، وضُربت الدنانير والدراهم

١ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٤٢٠ ـ ٤٢٤؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤١ ـ ٤٤٢؛ السّيوطي، ص ٢٩٩ وما يليها؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٨٢ ـ ٢٨٨
٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٤٢٣ ـ ٤٢٤
٣ ـ السّيوطي، ص ٢٠٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٥
٤ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٢٦؛ قابل السّيوطي، ص ٢٠٧؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤٨

باسـمـه[1]»، وقد جاء عليها: «المأمون أمير المؤمنين، وعليّ الرّضا إمام كلّ المؤمنين[2]».

وتأكيداً على الهويّة الشيعيّة للدولة، أمر المأمون الناس بخلع الأسود، وارتداء الأخضر، رمز التشيّع، وكتب بذلك إلى عمّال المناطق[3]. وزاد في تقريب الإمام الشيعيّ إليه، فزوّجه ابنته[4]، أمّ الفضل. وفي تبريره لتولية العهد لعليّ جمع المأمون جميع الخواص والأولياء، وأخبرهم «أنّه نظر في ولد العبّاس، وولد عليّ، فلم يجد أحداً أفضل ولا أحقّ بالأمر من عليّ بن موسى الرّضا[5]». حتّى إنّ بعض المدوّنات، ذكر أنّ المأمون، من فرط تشيّعه، «همّ أنّ يخلع نفسه ويفوّض الأمر إلى عليّ الرّضا[6]»...

قابل بنو العبّاس إقدام الخليفة العبّاسيّ على تعيين الإمام الشيعيّ، حفيد عليّ، وليّاً للعهد، بالرفض الصارخ، بحجّة أنّهم لا يقبلون «بخروج الخلافة من ولد العبّاس[7]». ولم تمضِ أشهر قليلة حتّى نجح الرّافضون من بني العبّاس في إقناع البغداديّين بالتمرّد على المأمون، فأنكروا خلافته، وبايعوا إبراهيم بن المهديّ العبّاسيّ بالخلافة، ولقّبوه بالمبارك. وسرعان ما بايع بنو هاشم «المبارك» الذي استولى على الكوفة، وعسكر بالمدائن[8]. وهكذا، دبّت الاضطرابات في أكثر أنحاء

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤٨
٢ - كونسلمان، ص ٨٩
٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٢٦؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤٨؛ السّيوطي، ص ٢٠٧
٤ - السّيوطي، ص ٢٠٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨
٥ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٢٦
٦ - السّيوطي، ص ٢٠٧
٧ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٢٦؛ السّيوطي، ص ٢٠٧؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤٨؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٩
٨ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٤١؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٠؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨

الأمبراطوريّة الإسلاميّة، وكادت الحرب أن تستشري بين المأمون والشيعة والمؤيّدين من جهة، والعبّاسيّين ومؤيّديهم، وجلّهم من السنّة، من جهة ثانية، خاصّة وأنّ أهل بغداد قد أضافوا إلى لقب المبارك، الذي أعطوه للخليفة الذي بايعوه، لقب «الخليفة السنيّ[1]».

وبينما الأوضاع على هذه الحال من الاضطراب، مات الإمام الشيعيّ الثامن، وليّ عهد الخلافة، الذي جاء تعيينه من قبل المأمون: عليّ الرّضا. وقيل إنّه مات مسموماً بالعنب، وشاع بين النّاس، خاصّة الشّيعة منهم، أنّ المأمون، هو الذي أمر بدسّ السمّ للإمام، لأنّه أراد أن يتخلّص من سبب الثّورة عليه. إلاّ أنّ بعض الرواة والمدوّنين يستبعد هذا الأمر[2].

كان إقدام الخليفة العبّاسيّ السابع: المأمون، على تعيين الإمام الشيعيّ الثامن: عليّ الرّضا، وليّاً لعهد الخلافة، وتحصيل المبايعة له من أمصار الأمبراطوريّة الإسلاميّة، قد جاء إثر بعض الاضطربات التي أحدثها قادة شيعة في بداية عهد هذا الخليفة، الذي يَدين، أصلاً، للشيعة بتغلّبه على أخيه الأمين، وبتفرّده بالخلافة الإسلاميّة. ذلك أنّه كان قد خرج بالعراق أبو السّرايا السريّ بن منصور الشيبانيّ، واشتدّ أمره، ومعه أحد أحفاد الحسن: محمّد بن إبراهيم، وهو المعروف بابن طباطبا؛ كما ثار بالمدينة حفيد آخر للحسن، هو محمّد بن سليمان؛ وفي البصرة تمرّد حفيدان آخران للحسن: عليّ بن محمّد وزيد بن موسى. وعندما مات ابن طباطبا، حلّ محلّه في قيادة ثورة العراق أحد أحفاد الحسين: محمّد بن محمّد ابن يحيى. في الوقت نفسه، ظهر في اليمن من أحفاد الحسن إبراهيم بن موسى؛ وبمكّة ونواحي الحجاز، أحد أحفاد الحسين: محمّد بن جعفر. وقبل أن يتمكّن

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٤٦
٢ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦، ص ٣٥١؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٣؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨

المأمون من السيطرة على الوضع، ظهر ثائر طالبيّ آخر بالمدينة المنوّرة من أحفاد الحسين، هو الحسين بن الحسن، المعروف بالأفطس[1].

يلاحظ إذاً أنّ المأمون قد اتخذ قراره بتعيين الإمام الشيعيّ خليفة له في ظلّ تلك الأحداث الخطيرة المتمثّلة بثورة أحفاد الحسن والحسين، في الحجاز واليمن والعراق؛ وبالفعل، فمع هذا التعيين، واستبدال الأخضر بالأسود، هدأ الشيعة، على أنّ هذه الهدأة، قابلها ظهور معاكس: ثورة عائلة الخليفة بالذات.

هذا الواقع، جعل الشيعة فيما بعد يتّهمون المأمون بقتل الإمام، بهدف التخلّص من ثورة أسرة العبّاس، مثلما تخلّص بتعيينه وليّاً للعهد، من ثورة الشيعة.

وبالرغم من أنّ المأمون قد راسل بعض المقرّبين منه، عند موت الإمام، يعلمهم بأنّ موت هذا الأخير «إنّما هو مصيبة حلّت به[2]»؛ ومن أنّ المأمون قد «سار في جنازة الرّضا، حاسراً في مبطّنة بيضاء، وهو بين قائمتَي النعش يقول: إلى من أروح بعدك، يا أبا الحسن! ... وقد أقام عند قبره ثلاثة أيّام يؤتى في كلّ يوم برغيف وملح، فيأكله[3]»؛ وبالرغم من أنّ المأمون قد «صلّى على الإمام[4]» وهو شديد التأثّر؛ وبالرغم من أنّ الضريح الذي دُفن فيه «الرّضا» في مشهد، والذي يؤمن كثيرون من الشيعة بأنّ زيارته أهمّ من الحجّ إلى الكعبة في مكّة، هذا الضريح لحفيد الرّسول، قد قام الخليفة المأمون ببنائه[5]، فإنّ الشيعة يعتبرون المأمون، قاتلاً للإمام الثامن، ويروي الزوّار أنّه على جدار الضريح، لا تزال الصحاف التي أكل الإمام منها العنب المسموم[6].

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٦ - ٢٨؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٤٧ - ٤٤٨
٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٥١
٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٣
٤ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٢ ص ٢٨
٥ - كونسلمان، ص ٩٣
٦ - المرجع السابق.

في الواقع، لا يستطيع أحد اليوم أن يؤكّد، أو أن ينفي، ما إذا كان المأمون قد قتل عليّاً الرّضا أم لا. إلاّ أنّ المعروف من الوقائع المدوّنة، يفيد بأنّ المأمون قد أظهر الكثير من التقرّب نحو الشيعة، من ذلك أنّه لعن معاوية، عدوّ عليّ، علناً، ونادى بأن «برئت الذمّة من أحد من الناس ذكر معاوية بخير أو قدّمه على أحد من أصحاب الرسول[1]»؛ وبأنّ المأمون قد ردّ إلى أحفاد الحسن والحسين «فَدَك[2]» بعد حرمان آل عليّ نحو مائتي سنة من خيراتها[3]؛ إضافة إلى ما أظهره في شأن إحلال الأخضر، رمز شيعة عليّ، محلّ الأسود، رمز بني العبّاس في اللّباس والبيارق، وإلى إدلائه بالكثير من الآراء الدينيّة المتوافقة مع المبادئ الشيعيّة، غير أنّ المأمون، الذي كان عند تعيينه الإمام عليّاً الرّضا وليّاً للعهد، قد برّر هذا الإجراء بأنّه «لم يجد بين بني العبّاس وبني عليّ من هو أحقّ منه» عاد بعد موت الإمام وبرّر الأمر بأنّه «فعل ما فعل لأنّ أبا بكر لمّا وُلّي لم يولّ أحداً من بني هاشم شيئاً، ثمّ عمر ثمّ عثمان كذلك، ثمّ وُلّي عليّ، فولّى عبد الله بن عبّاس البصرة، وعبيد الله اليمن، ومعبدا مكّة، وقثما البحرين، وما ترك أحداً منهم حتّى ولاّه شيئاً، فكانت هذه منّة في أعناقنا حتّى كافأتُه في ولده بما فعلت[4]».

وواقع الحال، أنّه بينما كان الأخضر يعود ليغيب في دولة بني العبّاس، حيث عاد الأسود للظهور، بناء على أمر المأمون نفسه، كان الأمل الشيعيّ، بدوره، يأفل مع الأخضر، لتحلّ مع الأسود، خيبة أخرى مريرة. ولم يستطع الإمام الثامن، عليّ الرّضا، أن يورث شيعة عليّ أكثر من اعتبار بأنّه أقدس شهدائهم، إذ كان «المطر

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٤٠؛ السّيوطي، ص ٣٠٨
٢ - فَدَك: واحة في الحجاز على مقربة من خيبر، كان أهلها من المزارعين اليهود، اشتهرت قديماً بثمرها وقمحها، أرسل النبي عليّاً على رأس مئة من رجاله لمحاربتهم ثمّ صالحهم على نصف أملاكهم. وكان الرسول قد وهبها لابنته فاطمة، إلاّ أنّ أبا بكر حجبها عنها. وتُعدُّ هذه الحادثة من أسباب نقمة الشيعة على أبي بكر.
٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٦٩
٤ - السّيوطي، ص ٣٠٨

يسقط لدعائه، بل كان في استطاعته أن يتنبأ بسقوط مطر السحابة المعيّنة على المنطقة المعيّنة، وكان يملك القدرة على إنبات الذهب على الصخر إن هو هوى عليه بعصا، وكان يعرف مكنون السرائر، وميعاد دنّو الأجل. وفي قلب شتاء قارس كان يجعل العشب ينمو، والعنب ينضج[1].» ... ومنذ مات عليّ الرّضا، صارت «مشهد» قدس أقداس الشيعة في بلاد فارس: فهي تضمّ ضريح الإمام عليّ الرّضا. وقد تحوّل البناء المتواضع منذ زمن بعيد إلى جامع فخم ذي صحن واسع، دخوله محرّم على غير المسلمين. وفي حرم هذا الجامع يقوم قبر الإمام الثامن الذي توفّي سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م.، حيث يستطيع الزائر، من خلال ستار فضّي، أن يرى الجثمان مسجّى.

من محمّد الجواد إلى الإمام العسكري

لم يكن غياب الإمام الثامن، عليّ الرّضا، سنة ٢٠٣ هـ / ٨١٨ م. مجرّد موت إمام في مسار تاريخ الشيعة، بل كان أكثر من ذلك بكثير.

فإنّ غياب عليّ الرّضا، إضافة إلى ما عناه من فقدان الأمل الشيعيّ بالخلافة، عنى أيضاً تضعضع شأن الإمامة، ولو إلى حين. وعندما يفقد الشيعة بعضاً من شأن الإمامة التي جعلوها لهم، أصلاً، بديلاً عن القيادة والمرجعيّة اللتين فقدوهما بفقدانهم مركز الخلافة، فذلك يعني التضعضع والتيه.

والسّبب في كلّ ذلك، أنّ الابن البكر للإمام الراحل: محمّداً، كان في السابعة من عمره، عندما مات أبوه. وإذ كان التقليد يقضي بأن تؤول الإمامة إلى الابن البكر للإمام الراحل، فلم يكن بدٌّ من أن يكون ذلك الطفل بالذات، ذو السنوات السبع، هو الإمام.

١ ـ كونسلمان، ص ٩٣

وعندما كان الخليفة المأمون يراسل أقرباءه العبّاسيّين وسواهم من الثائرين عليه في بغداد بأنّه عيّن حفيد عليّ وليّاً للعهد، وكان مضمون رسالته أنّ «عليّاً الرّضا مات، وأنّهم إنّما نقموا ببيعته، أمّا وقد مات، فلم يعد عندهم من حجّة في عدم الدخول في طاعته[1]»، كان الشيعة ينظرون في أمر الإمامة؛ وكان الطفل محمّد أنذاك في المدينة؛ وبعد عودة الخليفة المأمون بوقت قصير إلى بغداد، واستعادته السيطرة التّامّة عليها، وعودته عن تبنّي الأخضر، بالعودة إلى اللواء واللباس الاسودين[2]، نُقل الإمام الطفل إلى بغداد. ويُروى أنّ أوّل مواجهة بين الخليفة المأمون والإمام الطفل، قد جرت بعد وقت قصير من حمل الإمام إلى بغداد، إذ كان يلعب مع أترابه في الطريق، وكان الخليفة يمرّ مسرعاً مع حرسه، فاختفى رفاق الإمام في أركان البيوت، أمّا هو، فبقي واقفاً، فكان أن توقّف المأمون وخاطبه مندهشاً لجرأته، فجاء ردّ الإمام الطفل: «يا أمير المؤمنين: إنّ الطريق ليست ضيّقة عليك وعلى رجالك وعليّ أنا، وأنا لم آتِ بما يغضبك ولهذا فلست أخشاك، وأنت لست من يؤذي بريئاً[3]».

كان لا بدّ من أن يدع هذا الموقف الجريء من قبل الطفل تأثيراً في قلب الخليفة، الذي سيحاول، مرّة أخرى، أن يفيد من العلاقة العائليّة على الأقلّ، مع أحفاد عليّ، ليُبقي على ولاء الشيعة له، وذلك بتزويج محمّد بن عليّ، من ابنته[4] زينب، وإن كانت هذه شقيقة أمّ من سيتزوّجها.

وفي تدبير آخر من هذا القبيل، إستعمل المأمون أحد أحفاد عليّ بن أبي طالب: عبيد الله ابن الحسن بن عبيد الله، والياً على الحرمين[5]؛ كما أنّه أمر بلعن

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٢٠٣؛ السّيوطي، ص ٢٠٧
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٥٧؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٣ ـ ٤٥٤؛ السّيوطي، ص ٢٠٧
٣ ـ كونسلمان، ص ٩٤
٤ ـ راجع: المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨؛ كونسلمان، ص ٩٥؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٤
٥ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٣٥٨

معـاوية على المنابر[1]. وعندما جرّم قاضي المأمون ببغداد: الوليد الكنديّ، رجلاً إتُّهم بشتم أبي بكر وعمـر، فحكم عليه بالضرب وبالتطواف على جمـل، غضب المأمون، وأمر بسجن القاضي سجناً مؤبّداً[2].

كلّ هذه الإجراءات، جعلت الشيـعة يرتاحون إلى خلافة المأمون، أو على الأقلّ، يهمدون بخلال عهده، الذي كانت نهايته بموته سنة ٢١٨ هـ / ٨٣٣ م. إذ لم تطالعنا المدوّنات بأيّ ظهور أو خروج شيعيّ يذكر في هذه الحقبة من التاريخ. وقد تزامن موت الخليفـة المأمون ونهاية خلافتـه، إلى حدّ مـا، مع موت الإمام التاسع: محمّد بن عليّ، الملقّب بالجواد[3]، الذي توفّي في السنة التالية لموت المأمون (٢١٩ هـ / ٨٣٤ م). دون أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره[4]. إلاّ أنّ حلـم المأمون بخلق أسرة توحّد بين العبّاسيّين والطالبيّين لم يتحقّق، ذلك أنّ زينب التي زوّجـها من الإمام الفتيّ محـمّد الجـواد، لم تنجب، وبذلك مـات الإمام، ومـات الخليفة، دون أن «يكون جدّاً لامرئ ولده رسول الله وعليّ بن أبي طالب[5]» كمـا تمنّى يوم زفّ ابنته للإمام.

أمّا مسألة قول المأمون ببعض آراء المعتزلة الدينيّة، خاصّة فيما يتعلّق «بخلق القرآن» فهي وإن كانت قد شغلت الخلافة في السنوات الأخيرة من عهد المأمون إلى حدّ خطير، بالنظر للإجراءات التي اتّخذها الخليفة ضدّ من لا يقول بهذا الرأي من الفقهاء والعلماء[6]، فهي لم تؤثّر في علاقة الخليفة بالشيعة.

وبانتقال الخلافة إلى العبّاسيّ الثامن، محمّد بن هارون الرّشيد: المعتصم،

١ - راجع: المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٤٠ - ٤١؛ السّيوطي، ص ٣٠٨
٢ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٦٨ - ٤٦٩
٣ - محمّد المهدي الحسيني الشيرازي، هكذا الشيعة (النجف ١٣٨٣ هـ) ص ١٢
٤ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٥٢؛ دُفن محمّد الجواد مع جدّه موسى الكاظم في ما عُرف بعد ذلك باسم الكاظميّة التي أصبحت من العتبات المقدّسة عند الشيعة.
٥ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٥٤
٦ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٦٨؛ السّيوطي، ص ٣٠٨ - ٣١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٤٢٣

الذي كان أمّياً، قوّض أركان الدولة العبّاسيّة بإدخال الجنود الأتراك إلى قيادتها العسكريّة، وإن كان قد تمكّن من القضاء على الزّط، الذين عاثوا فساداً بين البصرة وبغداد، فأجلاهم إلى قيليقية، وقضى على حكم بابك في أذربيجان، وأنزل بالبيزنطيّين هزيمة نكراء واحتلّ عموريّة، وبنى سامرّاء، فقد بقي الشيعة على شيء من الهدوء، ذلك أنّ المعتصم لم يبدّل كثيراً في نهج السياسة الذي اتّبعه المأمون.

بينما كان المأمون على فراش الموت، وفي ختام وصيّته الشفويّة إلى وليّ العهد، أخيه، محمّد أبي إسحاق المعتصم، قال المأمون وهو يعاني سكرات الموت: «يا أبا إسحاق! عليك عهد الله وميثاقه، وذمّة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، لتقومنّ بحقّ الله في عباده، ولتؤثرنّ طاعة الله على معصيته، إذ أنا نقلتها من غيرك إليك» - قال المعتصم: «اللهمّ نعم!» فاستأنف المأمون بصعوبة: «هؤلاء بنو عمّك من ولد أمير المؤمنين عليّ، صلوات الله عليه، فأحسن صحبتهم، وتجاوز عن مُسيئهم، واقبل من مُحسنهم، ولا تغفل صلاتهم في كلّ سنة عند محلّها، فإنّ حقوقهم تجب من وجوه شتّى[1]...». غير أنّ أوّل ما لاقاه الشيعة في عهد الخليفة الجديد، أنّ زوجة الإمام، بنت المأمون، لمّا قدمت معه من المدينة إلى المعتصم، سَمّمت له[2]. ومن الصعب تبرئة الخليفة من مثل هذا العمل، وإن لم يكن هناك أيّ إثبات على تورّطه فيه. لكنّ معاملة المعتصم للشيعة وأحفاد عليّ، منذ تولّيه الخلافة، لم تتّسم بالعداء، وإن كانت فاترة بعض الشيء.

***

مرّة أخرى، يتسنّم منصب الإمامة الشيعيّة طفل. فلقد كان عمُر عليّ، الابن البكر لمحمّد الجواد، خمس سنوات حين مات والده. وهكذا بدأت الإمامة العاشرة

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٤٣٠ - ٤٣١
٢ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٥٢؛ وهناك رأي يقول بأن الإمام محمّد الجواد مات في عهد الواثق، المرجع السابق: ص ٧٧

للشيعة كما بدأت التاسعة: على يد طفل. وهذا ما جعل البحّاثين يميلون إلى اعتبار أنّ الخلفاء العبّاسيّين، إنّما كانوا يرومون من خلال اغتيال الأئمّة في عهد طفولة أبنائهم الأبكار، ضعضعة الشيعة. وهذا ما حصل فعلاً في بداية عهد الخليفة العبّاسيّ الثامن: المعتصم، والإمام الشيعيّ العاشر: عليّ الهادي. بيدَ أنّ هذا الواقع، لم يكن سوى إيذان بتقهقر دولة العبّاسيّين من جهة، وبسطوع نجم الشيعة من جهة ثانية. وإنّ هذا الإمام الذي بدأ عهده طفلاً، سوف يُعايش سبعة خلفاء عبّاسيّين، هم: المعتصم، والواثق، والمتوكّل، والمنتصر، والمستعين، والمعتزّ، والمهتدي؛ هذا الأخير، هو وحده الذي عايش إمامة عليّ الهادي، وبقي من بعده خليفة، وإن لسنة واحدة.

جلّ ما ورد في المدوّنات عن معاملة المعتصم للشيعة، أنّه عمد إلى التضييق على بعض أحفاد عليّ بن أبي طالب، وعلى إخافتهم، ممّا جعل أحد أحفاد الحسين: محمّد بن القاسم، العابد الزاهد الورع إلى أبعد حدّ، يهرب من الكوفة إلى خراسان، بسبب التهديدات التي جاءته من المعتصم. وبالرّغم من أنّ محمّداً قد تنقّل بين مدن فارسيّة عديدة، فقد تمكّن المعتصم من القبض عليه بواسطة عملائه، فحبسه، ثمّ قتله بالسم. وقد اتّبع محمّداً بعض فرق الزيديّة التي اعتبرت أنّه لم يمت، وأنّه حيّ يرزق، و «سيخرج ليملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جوراً، وأنّه مهديّ هذه الأمّة؛ وقولهم فيه كقول الكيسانيّة في محمّد ابن الحنفيّة، وقول السبعيّة (الإسماعيليّة) في إسماعيل بن جعفر[1] ». لكنّ أمر تضييق المعتصم على محمّد بن القاسم، ليس مؤكّداً، ذلك أنّ بعض المراجع يضع مسألة هذا الطّالبي في باب «الظهور... والدعوة إلى نفسه بالخلافة»، ويذكر أنّ المعتصم عامله بالحسنى لمّا سجنه، وأنّ أنصار الطالبيّ هرّبوه من السجن، ولم يعد يُعرف عنه شيء[2].

---

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٥٢ ـ ٥٣؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٧١ ـ ٤٧٢

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٤٤٢

بعد حكم استمر ثماني سنوات وثمانية أشهر[1]، مات المعتصم، وخلفه ولّي عهده، ابنه، هارون، ولقَبه: الواثق.

قال الواثق بما قاله أبوه المعتصم، مقولة عمّه المأمون، في خلق القرآن، وتشدّد في ذلك. وكان يقرّب إليه أتباع المعتزلة[2].

وكان المعتصم، قبل أن يموت، قد أحضر الإمام الصغير من المدينة إلى عاصمته الجديدة: سامرّاء، بعد الانتهاء من بنائها. وعندما أرسل الخليفة قائد حرسه سنة ٨٣٦ م. إلى المدينة المنوّرة ليحضر عليّا الهادي، كان عمْر الصبيّ قد قارب الثماني سنوات. ويروي قائد حرس المأمون: يحيى بن حرثمة تفاصيل تلك الحادثة فيقول: «كان علَيّ أن أعود بعليّ بن محمّد إلى سامرّاء حتّى يبلّغ الخليفة بما يفعله بالمدينة، وعندما وصلت إلى المدينة، انفجر أهل بيته بالنحيب والعويل الذي لم أسمع بمثله من قبل، فحاولتُ أن أهدّئ من روع المنتحبين مؤكّداً لهم بأن ليس لديّ أمر بإيذاء عليّ بن محمّد؛ وعندما بحثت في بيته لم أعثر إلاّ على مصحف وكتب دعاء. وأخذت عليّاً كما أُمرت، وقد أكبرته كثيراً. وذات يوم بعد أن مرّ علينا أكثر من أسبوع في الطريق، وعند شروق الشمس، عجبت لارتداء عليّ عباءته ولربطه ذيل حصانه عالياً، بالرّغم من أنّ السماء كانت صافية والشمس مشرقة على الصحراء، ولكن لم يمضِ وقت طويل حتّى تجمّعت السحب، وهطل المطر عاصفاً، فالتفت عليّ إليّ وقال: ـ أعرف أنّك تعجب لهذا، وربّما تعتقد أنّ لي علاقة بانقلاب الجوّ، ولكنّ الأمر ليس كذلك، إنّما أنا عشت في الصحراء وأعرف الريح التي تسبق المطر، فأنا قادر على شمّ المطر، وهكذا تأهّبت في الوقت

---

١ ـ لُقّب المعتصم بالمثمّن، لأنّه: ثامن الخلفاء العبّاسيّين، والثامن من ولد العبّاس، وثامن أولاد الرّشيد، وولد سنة ٧٨ هـ، وعاش ثمانياً وأربعين سنة، وبرجه العقرب وهو ثامن برج، وفتح ثمانية فتوح، وقتل ثمانية أعداء، وخلف ثمانية صبيان، وثمان إناث، ومات لثمان بقين من ربيع الأوّل، وقد ملك ثمان سنوات وثمانية أشهر وثمانية أيّام (السّيوطي ص ٣٣٤)

٢ ـ السّيوطي، ص ٣٤١؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٨٢

المناسب لانقلاب الجوّ.» . ومنذ ذلك الحين، وعليّ الهادي يعيش في سامرّاء، وقد بقي هناك طوال عهد الواثق[1] .

وإذ كان الإمام الشيعيّ العاشر، طوال عهد الواثق الذي لم يدم أكثر من خمس سنوات وتسعة أشهر، صبيّاً، لم يتجاوز عمره في نهاية عهد الواثق الثامنة عشرة، لم يسجّل التاريخ أيّ حدث يُذكر له طوال هذه المدّة، وقد يكون هذا ما جعل لقبه: الهادئ. ولقد سار الواثق على خطى عمّه المأمون في إرضاء أحفاد عليّ وإكرامهم، حتّى قيل إنّه «ما أحسن أحد إلى آل أبي طالب ما أحسن إليهم الواثق الذي ما مات وفيهم فقير[2] ». ولم يقتصر كرم الواثق على آل أبي طالب، لكنّه، على ما يبدو، أجزل العطاء لسائر الهاشميّين؛ ولمّا توفّي الواثق، بقيت نساء أهل المدينة زمناً يخرجن كلّ ليلة إلى البقيع، فيندبنه ويبكين حزناً عليه، لما كان يكثر من الإحسان إلى أهل المدينة[3] .

بموت الواثق سنة ٢٣٢ هـ / ٨٤٧ م. وانتقال الخلافة إلى أخيه، جعفر بن المعتصم: المتوكّل على الله، الخليفة العبّاسيّ العاشر، تبدّلت الأحوال الإيجابيّة التي سادت علاقة الشيعة بالخلافة طوال ثلاثين سنة، مذ عيّن المأمون الإمام الشيعي الثامن: عليّاً الرّضا، وليّاً لعهد الخلافة، وقد سار خلفا المأمون: المعتصم والواثق، على خطى المأمون في إكرام أحفاد عليّ ومداراتهم، وفي القول بأن القرآن مخلوق. غير أنّ المتوكّل، أبدل في نهج التعاطي هذا، وعادت بعهده الاضطرابات إلى الوسط الشيعيّ من جديد.

ما أن آلت الخلافة إلى المتوكّل، حتّى أمر «بترك النظر والمباحثة في الجدال (بشأن القرآن) وبترك ما كان عليه الناس في أيّام المعتصم والواثق والمأمون، وأمر

١ - راجع: كونسلمان، ص ٩٩ - ١٠٠؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٧٠
٢ - السّيوطي، ص ٣٤٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٣١
٣ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٨٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٣١

الناس بالتسليم والتقليد، وأمر شيوخ المحدّثين بإظهار السنّة والجماعة[1] ». ولم يكن قد مرّ زمن طويل على تولّيه الخلافة، عندما أمر المتوكّل بانتقال الإمام الشيعيّ العاشر، عليّ الهادي، من المدينة، بعد أن كان الإمام قد انتقل إليها من سامرّاء إثر موت الواثق. أمّا سبب طلب الخليفة العبّاسيّ العاشر إلى الإمام الشيعي العاشر، الانتقال من المدينة، فهو، على ما يبدو، «شيوع كلام عن أنّ قوماً يقولون إنّه الإمام[2] »؛ من شأن هذا أن يعني إلغاء الإمامة الشيعيّة، أو على الأقلّ، محاولة إلغائها من قبل المتوكّل. وليس هذا ببعيد أبداً، لأن المتوكّل اضطهد، عموماً، كلّ من لا يتّبع السنّة، وأنزل أشدّ الشروط العمريّة قساوة بأهل الذمّة[3]؛ وكان المتوكّل «شديد البغض لعليّ بن أبي طالب ولأهل بيته، وكان يقصد من يبلغه عنه أنّه يتولّى عليّاً وأهله بأخذ المال والدم[4] »، حتّى إنّه «كان يبغض من تقدّمه من الخلفاء: المأمون، والمعتصم، والواثق، في محبّة عليّ وأهل بيته[5] ». وقد بلغ كره المتوكّل لعليّ بن أبي طالب، أنّه كان من جملة ندمائه، عبادة المخنّث، الذي كان يقلّد عليّاً، إذ «يشدّ على بطنه، تحت ثيابه، مخدّة، ويكشف رأسه، وهو أصلع، ويرقص بين يدي المتوكّل، والمغنّون يغنّون ، إشارة إلى عليّ: قد أقبل الأصلع البطين، خليفة المسلمين؛ والمتوكّل يشرب، ويضحك»؛ وعندما اعترض المنتصر، بن المتوكّل، على سلوك أبيه هذا، قائلاً له: «يا أمير المؤمنين، إنّ الذي يحكيه هذا الكاتب ويضحك منه الناس هو ابن عمّك، وشيخ أهل بيتك، وبه فخرك، فكُلْ أنت لحمه إذا شئتَ، ولا تطعم هذا الكلبَ وأمثاله منه» قال المتوكّل للمغنّين: «غنوّا جميعاً: غار الفتى لابن عمّه، رأس الفتى في حرّ أمّه[6] ».

١ - المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٨٦؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٨٤؛ السّيوطي، ص ٣٤٦
٢ - اليعقوبي، ج ٢، ص ٤٨٤
٣ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٢؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٨٧
٤ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٥؛ كونسلمان، ص ١٠٢
٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٦
٦ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٥

وتذكر المدوّنات أنّ جماعة ممّن أشتهروا ببغض عليّ «كانوا ينادمون المتوكّل ويجالسونه، ويخوّفونه من العلويّين، ويشيرون عليه بإبعادهم، والإعراض عنهم، والإساءة إليهم، ولم يبرحوا به حتّى ظهر منه ما كان، فغطّت هذه السيّئة جميع حسناته[1]».

أمر المتوكّل بهدم قبر الحسين بن عليّ، وما حول القبر من المنازل والدور، وبأن يُستعمل مكان القبر للزراعة، وبأن يُمنع الناس من إتيان المكان، ومَن خالف الأمر بزيارة المكان المقدّس، قُبض عليه وسُجن وعُذّب[2]. وكان المتوكّل إذا شكّ بولاءِ أحدهم للشيعة، أو بتشيّعه، امتحنه، حتّى إذا ما تأكّد له ذلك، أنزل فيه عقاب الموت؛ فعندما اتصل بالمتوكّل النحويُّ الشهير يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السِّكّيت، سأله الخليفة: «أيّ أحبّ إليك المعتزّ والمؤيّد (وهما ولدا الخليفة) أو الحسن والحسين؟» فذكر النحويّ الحسن والحسين، بما هما أهل له، فما كان من المتوكّل إلاّ أن أمر جنده من الترك بدوس بطن النحويّ حتّى قضى نحبه[3].

ومن أخبار اضطهاد المتوكّل لأحفاد عليّ، أنّه اتهم أحدهم: يحيى بن عمر حفيد الحسين، بأنّه جمع إليه الناس ببعض النواحي، فأُخذ، وحُبس، وضُرب[4].

وعندما كان يبلغ المتوكّل عن إقدام أحدهم على سبّ أبي بكر وعمر وعائشة وحفصة وعثمان، كان يأمر بإعدامه[5].

سعى المتوكّل إلى النّيل من الإمام الشيعيّ: عليّ الهادي، بشتّى الوسائل، إلاّ أنّ حكمة الإمام الذي لم يخرج يوماً على هدوئه رغم المصاعب والتحدّيات، قد حالت دون تمكّن الخليفة منه. وبحجّة أنّ في بيت الإمام سلاحاً، بعد أن كان

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٦
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٥؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٣٥؛ السّيوطي، ص ٣٤٧
٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٩١؛ السّيوطي، ص ٣٤٨
٤ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٣
٥ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٧٩

المتوكّل قد أمر بانتقال الإمام من المدينة إلى سامرّاء ليبقى تحت بصره، وجّه إليه ليلاً جنوداً من المرتزقة الأتراك وغير الأتراك، ولمّا داهموه، لم يجدوا «سوى مِدْرَعة من شَعر عليه، وكان بيته خالياً حتّى من بساط، وأرض البيت رمل وحصى، وعلى رأس الإمام ملحفة من الصوف وهو متوجّه إلى ربّه يترنّم بآيات من القرآن في الوعد والوعيد» ولم يكن من الجنود إلاّ أن أخذوا ما على الإمام، وحملوا هذا الأخير إلى المتوكّل في جوف الليل، فمثل بين يديه، والمتوكّل يشرب وفي يده كأس. فلمّا رآه أعظمه وأجلسه إلى جانبه؛ وإذ لم يكن في منزله سلاح وكتب... ولا حالة يتعلّل عليه بها، ناوله الكأس الذي في يده، فقال عليّ: «يا أمير المؤمنين! ما خامر دمي ولحمي قط، فاعفني منه» ـ فعفاه، إلاّ أنّه فرض عليه أن ينشده شعراً، ورغم ممانعته في بادئ الأمر، وإذ لم يرَ الهادي بدّاً من ذلك، أنشد الخليفة شعراً جاءَ فيه:

أين الوجوه التي كانت منعّمةً   من دونها تضرب الاستار والكلل
فأفصح القبر عنهم حين ساءلهم   تلك الوجوه عليها الدود يقتتل.

أراد الهادي أن يذكّر الخليفة بالموت، وهو مرعب الملوك والجبابرة؛ وعندما أنشد الإمام أبياته، تيقّن الحضور أنّه سائر إلى هلاك لا محالة، فأشفقوا عليه، بانتظار ردّة فعل الخليفة، ولكنّ الذي حصل، هو أنّ المتوكّل قد بكى طويلاً، حتّى بلّت دموعه لحيته، وبكى معه الحاضرون، ثمّ أمر برفع الشراب، وقال للإمام: «يا أبا الحسن، أعليك دَين؟» ـ قال: «نعم، أربعة آلاف دينار» فأمر المتوكّل بدفعها إليه وردّه إلى منزله مكرّماً[1]. غير أنّ هذه المنّة، لم تكن المطلوبة من قبل الإمام وشيعة عليّ، الذّين وجدوا أنفسهم مرّة أخرى في مجال الاضطهاد والجور اللذين سادا طوال عهد المتوكّل، الذي دام أقلّ من خمس عشرة سنة بقليل، والذي انتهى سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦١م. باغتياله على أيدي قادته الأتراك وباشتراك ابنه البكر:

١ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٥؛ كونسلمان، ص ١٠٢

المنتصر، الذي سيبايَع من بعده بالخلافة، وهو ذلك الذي كان قد لام أباه لتصرّفاته غير اللائقة مع بني أبي طالب. وكان المتوكّل، ثالث خليفة عبّاسيّ يموت في عهد إمامة عليّ الهادي.

***

كان عهد المنتصر قصيراً، بحيث لم يتجاوز الأشهر الستّة. وقد تضاربت الأخبار حول ظروف موته، إنّما الثابت أنّ للجنود الأتراك الذين كانوا قد سيطروا على البلاط، ضلعاً في قتله[1]. والثّابت أيضاً، أنّ المنتصر قد رفع عن العلويّين ظلم أبيه المتوكّل، فأزال عن آل أبي طالب ما كانوا فيه من الخوف والمحنة، وأنهى عهد منعهم من زيارة قبر الحسين، وردّ على آل الحسن والحسين فَدَك، وأطلق أوقاف آل أبي طالب، وترك التعرّض لشيعتهم، ودفع الأذى عنهم[2]. حتّى إنّه قيل إنّ المنتصر كان قد خطّط لقتل أبيه المتوكّل بسبب تصرّفاته القبيحة، وكان أقبح تصرّفاته مع الشيعة وأوليائهم، وقد شاور المنتصر جماعة من الفقهاء في قتل أبيه، وأعلمهم بتصرّفاته وبمذاهبه، فأشاروا بقتله[3].

بانتقال الخلافة من المنتصر، إلى ابن المعتصم: المستعين، عادت الاضطرابات لتعمّ الأمبراطوريّة الإسلاميّة، وليكون للطالبيّين فيها وجود.

أمّا السّبب الأساس في تلك الاضطرابات فكان استشراء أمر الأتراك الذين باتوا يسيطرون على الخلافة تماماً، فيقتلون الخليفة متى شاؤوا، وينصّبون من يناسبهم، ويملون عليه الأحكام. فبعد قتلهم المتوكّل بالاشتراك مع ابنه المنتصر، قتلوا المنتصر، وعيّنوا المستعين، دون أن يكون للأُسر العربيّة الإسلاميّة العريقة أي تأثير على مجرى الخلافة. وسرعان ما تنكّر الأتراك للمستعين بسبب إقدامه على

١ ـ راجع: السّيوطي، ص ٣٥٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٣٣ ـ ١٣٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١١٥ ـ ١١٦

٢ ـ السّيوطي، ص ٣٥٨؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٣٥؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١١٦

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١١٥

قتل أو نفي بعض قادتهم، فخاف المستعين عاقبة انقلاب الأتراك عليه، وهرب من عاصمة خلافته: سامرّاء، إلى بغداد، فسارع الأتراك إلى خلعه، وتعيين ابن المتوكّل، محمّد أبي عبد الله: المعتز بالله، ذي الثمانية عشر عاماً، خليفة مكانه. وقد جهّز هذا الأخير جيشاً لمحاربة المستعين في بغداد، وبعد قتال استمرّ أشهراً، سقط فيه عدد كبير من الضحايا، خلع المستعين نفسه، وهذا ما لم يمنع من قتله بعد أشهر. وكانت مدّة ولاية الخليفة العبّاسيّ الثاني عشر: المستعين، حوالى أربع سنوات (٢٤٨ ـ ٢٥٢ هـ / ٨٦٢ ـ ٨٦٦ م).

هذه السنوات من منتصف القرن الثالث للهجرة، شهدت أكثر من ثورة طالبيّة في أكثر من مكان، إضافة إلى الاضطرابات التي عمّت أكثر مناطق الأمبراطوريّة الاسلاميّة، والتي معها بدأ نجم الخلافة العبّاسيّة بالأفول.

أهمّ تلك الثورات الشيعيّة، كان ما جرى منها سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م. على يد يحيى بن عمر، حفيد عليّ من ابنه الحسين، وهوالمكنّى بأبي الحسين.

قام أبو الحسين بثورته بالكوفة، وقد انضمّ إليه الزيديّون من الشيعة، إضافة إلى عامة الشيعة والأعراب والناقمين على الأتراك، بيدَ أنّ هؤلاء قد تمكّنوا بعد قتال من قمع الثورة وقتل حفيد عليّ وكبار أنصاره[1].

في الوقت نفسه، ظهر بطبرستان حفيد آخر للحسين، هو الحسن بن زيد[2]، فثار على رأس أهل طبرستان على عاملها العبّاسيّ، وسرعان ما بايعه أهل الديلم وكلار وشالوس والرويان وجبال طبرستان ومنها أصمغان وقادوسيان. ثمّ دخل آمل وطرد عاملها العبّاسيّ، فكثر جمعه، وبذلك دخل سارية حيث استولى الحسن على مخلّفات العامل العبّاسيّ الذي فرّ منها مع عياله. ولمّا سيطر الحسن على

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١٢٦ ـ ١٣٠؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٤٧؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٩٧

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١٣٠ ـ ١٣٤

طبرستان، وجّه إلى الرّي قريبه الذي يحمل اسمه أيضاً: حسن بن زيد، فملكها، واستعمل عليها رجلاً من العلويّين اسمه محمّد بن جعفر. إلاّ أنّ الرّي لم تبقَ طويلاً تحت سيطرة الحسن بن زيد، الذي تمكّن من إحكام قبضته على طبرستان. فكانت هذه الثورة الشيعيّة الوحيدة الناجحة من بين عدّة ثورات طالبيّة جرت في الحقبة نفسها.

ففي الكوفة، ظهر أحد أحفاد الحسين، واسمه الحسين بن أحمد، واستخلف بها أحد أحفاد الحسن، واسمه محمّد بن جعفر المكنّى بأبي أحمد، وبعد وقت قصير تمكّن المعتزّ من التغلّب على هذه الثورة.

في الوقت نفسه، قامت ثورة علويّة في نينوى، باءت بالفشل.

وفي قزوين، ثار حفيدٌ حسينيّ، هو الحسين بن أحمد الملقب بالكركيّ، فسيطر عليها.

وبمكّة، ظهر إسماعيل بن يوسف، وهو من أحفاد الحسن، فنهب أموال العبّاسيّين هناك، وأخذ كسوة الكعبة، وما كان في الكعبة وخزائنها من ذهب وفضّة ومال، وأخذ من الناس نحواً من مائتي ألف دينار، وخرج منها بعد ما نهبها وأحرق بعضها بعد خمسين يوماً من الثورة. ومن هناك انتقل إلى جدّة، حيث قام بثورة مماثلة[1].

هذه الثورات، من شأنها أن تنبىء عن مدى الكبت الذي عاناه الشيعة عامّة، وآل أبي طالب خاصّة، طوال حكم العبّاسيّين، وقد تفاقم مع سيطرة الأتراك على الخلافة، فأضحى الطالبيّون والشيعة في وضع لا يطاق.

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١٦٤ - ١٦٦؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٨٠، ٣٠٧، ٣٠٨، ٣٧٢، ٣٧٣ وما بعدها؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٩٧ - ٤٩٨

في هذه الأثناء، بقي الإمام العاشر: عليّ الهادي، هادئاً، ولم يُعرف عنه أنّه أقدم على قيادة أو تدبير أيّ نزاع. واستمرّ حفيد الحسين على نهجه المتعاطي بأمور الدين دون سواها، في عهد خلافة المعتزّ (٢٥٢ - ٢٥٥ هـ/ ٨٦٦ - ٨٦٩ م.) الذي خلف المستعين بعد أن خلع هذا الأخير نفسه. والمعتزّ، وهو الخليفة العبّاسيّ الثالث عشر، وابن الخليفة العاشر: المتوكّل، يَدين بخلافته هو الآخر للقادة الأتراك الذين أوصلوه إلى سدّتها، وعندما حاول التخلّص منهم بالتجائه إلى الجند المغاربة، عزلوه وقتلوه وأحلّوا محلّه المهتدي بن الواثق، الذي سيلاقي المصير نفسه فيما بعد.

قبل ذلك التاريخ، وفي خضمّ هذه الأحداث القلقة، مات الإمام الشيعيّ العاشر: عليّ الهادي سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٦٨ م. وهو بسامرّاء، فبعث المعتزّ بأخيه أحمد بن المتوكّل ليمثّله في الجنازة، وقد صلّى أحمد على الفقيد الكبير في الشارع المعروف بشارع أبي أحمد، ولكنّ الحشد العظيم من الناس الذين اجتمعوا بالمناسبة، وكثر بكاؤهم ونحيبهم، جعل الدولة تردّ النعش إلى دار الإمام، حيث دُفن، وعمره أربعون سنة، وله من الذكور ولدان: الحسن، وجعفر. وقيل إنّ الإمام العاشر قد مات هو الآخر، مثل أبيه، مسموماً[1].

وبموت عليّ الهادي، تنتقل إمامة الشيعة إلى ولده البكر، الإمام الحادي عشر: الحسن العسكري.

١ - راجع: اليعقوبي، ج ٢ ص ٥٠٣؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ١٨٩؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٦٩ - ١٧٠.

الفصل الثامن

المهديّ المنتظر

- الإمام العسكريّ
- الإمام المهديّ، والغيبة، والرجعة

عند وفاة الإمام العاشر: عليّ الهادي، سنة ٢٥٤ هـ / ٨٦٨ م. كان له ولدان هما: الحسن، وجعفر[١]. وكان من الطبيعيّ أن تؤول الإمامة بعد وفاته الى ابنه البكر: الحسن.

كان عمر الحسن يومذاك ثلاثاً وعشرين سنة. فهو قد وُلد بالمدينة سنة ٢٣١ هـ / ٨٤٥ م. وقد جاء سامرّاء مع أبيه حين استدعاه المتوكّل، وسكن وإيّاه في محلّة تُعرف بالعسكر، لذلك لُقّب بالعسكريّ.

بدأ الإمام الشيعيّ الحادي عشر إمامته في وقت كانت الدولة الإسلاميّة بحالة غير مستقرّة. فالمرتزقة، من الأتراك وسواهم، الذين استقدمهم العبّاسيّون في الأساس، ليشكّلوا حرس الخلافة، «كانوا قد غدوا أشدّ نفوذاً من الخليفة نفسه، واستطاعوا، بين الحين والحين، أن يحملوا الخليفة صاغراً على ما يشاؤون[٢]». حتّى إنّ عدداً من الخلفاء العبّاسيّين قد اضطر إلى الهرب منهم، ونادراً ما تمكّن هؤلاء الخلفاء من النجاة من بطش الأتراك الذين أصبحوا قادرين على اغتيال الخليفة الذي لا يعمل بإرادتهم وعلى أن يستبدلوا به من يلائم هواهم من بني العبّاس. ولم يعد هؤلاء الأتراك يخشون سوى نفوذ أبناء سلالة الرسول، أي، أحفاد عليّ وفاطمة، وبخاصّة أولئك الأئمّة منهم، فلم يبقَ سوى هؤلاء ممّن بوسعه أن يشكّل خطراً على سلطتهم، وهم المرتزقة الذين لا يستندون في سلطتهم الى أيّة شرعيّة دينيّة[٣].

في الوقت نفسه، شاع بين الناس ما زاد في قلق العسكر التركيّ: «سيكون للإمام الحادي عشر ابن، هو المهديّ، الذي سيقود البشريّة عبر الطريق الصحيح

---

١ - اليعقوبي، ج ٢ ص ٥٠٣

٢ - حتّي، تاريخ سوريّة ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ١٨٥

٣ - راجع: كونسلمان، ص ١٠٣ - ١٠٤

نحو رحمة الله وجنّته[1] ». وذلك استناداً الى أحاديث منسوبةٍ الى الرسول، منها ما رواه الترمذيّ[2] ، وأبو داود[3] ، من رواية أمّ مسلمة: « لا تذهب الدنيا حتّى يملك العرب رجل من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي » ؛ ومنها الحديث الذي رواه ابن مسعود[4] : « لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتّى يخرج فيه رجل منّي أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما مُلئت جوراً وظلماً » ؛ وفي سنن أبي داود: « ولو لم يبقَ من الدهر إلاّ يوم لبعث الله رجلاً من أهل بيتي يملأها عدلاً كما ملئت جوراً » ؛ ومنها أيضاً أنّ الرّسول « نظر الى الحسن[5] وقال: ـ إنّ ابني سيّد سيخرج من صلبه رجل يسمّى باسم نبيّكم يشبهه في طقسه ولا يشبهه في الخلق يملأ الأرض عدلاً ـ » ؛ وفي سنن الترمذيّ وأبي داود: « المهديّ من عترتي من ولد فاطمة » ؛ وزاد أبو داود: « يملك الأرض سبع سنين[6] ».

وقد حدث في تلك الأثناء ما جعل الناس يتوقّعون أن يكون المهديّ، ابن الإمام الحسن العسكريّ بالذات، ذلك أنّهم كانوا يتناقلون كلاماً منسوباً الى الإمام

١ ـ المرجع السابق.

٢ ـ الترمذيّ (محمّد بن عيسى) (٢٠٩ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٢٤ ـ ٨٩٢ م.): إمام ومحدّث. كانت له رحلات واسعة في خراسان والعراق والحجاز في طلب الحديث. وله في ذلك كتاب « الجامع الصحيح » أو « السنن ». يمتاز بملاحظاته النقديّة على رجال الإسناد وتبيينه مواضع الخلاف بين المذاهب. من كتبه: « العلل »، « الشمائل النبويّة » ـ منجد الإعلام ـ

٣ ـ أبو داود (سليمان بن الأشعث السجستاني) (توفي ٢٧٥ هـ / ٨٨٩ م): إمام أهل الحديث في زمانه. أصله من سجستان. استقرّ في البصرة وتوفّي فيها. رحل وجمّع وصنّف وخرّج، أخذ عن الإمام ابن حنبل وسمع الكثير عن مشايخ الشام ومصر والجزيرة وخراسان والعراق. له كتاب « السفن » معدود من الكتب السنّة، جمع فيه ٤٨٠٠ حديث في الشؤون الفقهيّة ـ منجد الأعلام ـ

٤ ـ ابن مسعود (عبد الله) (توفّي سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م) صحابي هُذَلي، خدم النبيّ مدّة حياته، سادس من أسلم، أوّل من جهر بالقرآن في مكّة، هاجر الى الحبشة. أحد المبشّرين بالجنّة، ممّن أتقنوا تلاوة القرآن. روى عن النبيّ. ـ منجد الأعلام ـ

٥ ـ ... إلاّ أنّ الحسن العسكري وولده محمّداً المهديّ هما من سلالة الحسين وليس الحسن.

٦ ـ راجع: الدكتور صابر طعيمة، الشيعة معتقداً ومذهباً، المكتبة الثقافيّة (بيروت ١٩٨٨) ص ٥٨ ـ ٦١؛ والحسن بن موسى، فرق الشيعة، (استنبول ١٩٣١) ص ١٩ ـ ٢٠

الثامن: عليّ الرّضا، قال فيه: « بعدي سيكون ابني محمّد بن عليّ النقيّ[1] ، إمام المؤمنين، ويلي عليّ بن محمّد حسن بن عليّ، ويكون ابنه هو المهديّ المنتظر[2] ».

لقد كانت فكرة المهديّ، إضافة الى ما تمثّله من اعتبارات دينيّة، ذلك القبس الذي من شأنه أن يعد الناس بالتحرّر من ظلم ذلك الواقع القاسي الناتج من ظلم الخلفاء، ومن ثمّ من ظلم عسكرهم وقد أصبحوا الحاكمين استبداداً بأمرهم. ذلك أنّ الأمل بظهور المهديّ، كان أملاً بتحقيق العدالة وإزالة الجور، فالمهديّ هنا، هو الأمل المنقذ المرسل من العالم المقدّس[3] .

أمام هذا الواقع، كان على القوّاد الأتراك أن يراقبوا الإمام الحادي عشر بيقظة وحذر، خاصّة لجهة الحمْل، فإن مجرّد حمْل امرأة من الإمام الحادي عشر، كان يعني خطر مجيء المهديّ المنتظر، مع كلّ ما كان يشكّله ذلك عليهم وعلى سلطانهم من خطر.

هنا، تورد الرّوايات أنّ الإمام العاشر، عليّ الهادي، كان قد زوّج ابنه الحسن، سرّاً، أميرة بيزنطيّة، تعدّدت القصص المتواترة حول ظروف وصولها الى بيت سليل الرسول. ويمكن اختصار جوهر مضمونها على الشكل التالي:

كان للإمام العاشر، عليّ الهادي، صديق اسمه بشر بن سليمان، كلّفه الإمام ذات يوم بشراء جارية لابنه الحسن، فأعطاه كتاباً « بلغة النصارى » وصرّة فيها ٢٢٠ ديناراً، وطلب إليه أن يقصد ميناء دجلة ببغداد، وأن يقف هناك حيث ترسو سفن الشام، وعندما يرى السفينة التي يملكها عمرو بن يزيد، سيجد عليها فتاة تغطّي جسدها بقطعتين من الحرير، وهي تتكلّم بلغة النصارى، صائحة لاعنة كلّ من يحاول لمسها ...

١ ـ كان للإمام العاشر لقبان، الأوّل: عليّ الهادي، والثاني: عليّ النقيّ، أي أنّ عليًا النقيّ هو نفسه عليّ الهادي.

٢ ـ راجع: كونسلمان، ص ١٠٥ ـ ١٠٦

٣ ـ راجع: سامي العيّاش، الإسماعيليّون في المرحلة القرمطيّة، دار ابن خلدون، (بيروت ١٩٨١) ص ٤٠ - ٤١

وقال الإمام لرسوله: «إذا ما تعرّفت على هذه الجارية، أعطها الكتاب ودعها تقرأه».

ويروي صديق الإمام الذي نفّذ المهمّة ما حدث في ميناء بغداد فيقول إنّه عندما تعرّف على الفتاة، وأعطاها الخطاب، قرأته في الحال. وكانت وهي تطالعه تجهش بالبكاء. ثمّ قالت للنخّاس: «بعني لهذا الرجل وإلاّ قتلت نفسي». وتمّ الاتّفاق على أن يدفع رسول الإمام مبلغ ٢٢٠ ديناراً ثمن الجارية. ورافقت هذه الرجل برضى تام، لا بل بسعادة، وهي تقبّل كتاب الإمام وتضعه على صدرها. وأثناء الرحلة الطويلة من بغداد الى سامرّاء، روت الجارية حكايتها الغريبة لصديق الإمام، فقالت إنّها أميرة من بنات قيصر بيزنطية، وأمّها تنتسب لسيمون، أحد حواري عيسى؛ وقد أراد جدّها القيصر أن يزوّجها لابن أخيه، فتمّت جميع التحضيرات التي تليق بأعراس أبناء القياصرة، وكانت الفتاة قد بلغت عامها الثالث عشر.

في موعد العرس، حضر الى البلاط سبعمائة نبيل من الامبراطوريّة، وأربعة آلاف فارس، ورجال البلاط. وكان القيصر يجلس على عرش مزيّن يتقدّمه أربعون درجة، وقد رُصّع بالماس. وبجوار القيصر، جلس ابن أخيه العريس، وكانت تماثيل القدّيسين موضوعة بقرب جدران القاعة.

وبخلال الاحتفال، وقف القيصر وأمر بفتح الإنجيل، وما أن تمّ ذلك حتّى ارتفع مقعد العريس عن الأرض، فوقع الرّجل أرضاً، وكذلك سقط عدد من التماثيل وتحطّم، فعمّ الفزع المكان؛ وقد تطيّر الحاضرون من هذه الظاهرة. إلاّ أنّ القيصر أصرّ على إتمام الزواج، فأُعيد ترتيب المكان، وأُعيد الاحتفال من بدايته، وعند الوصول الى فتح الإنجيل، حلّ الفزع بالقوم مرّة أخرى إذ سقط مقعد العريس وتحطّمت التماثيل بوقوعها أرضاً، وعجز العريس عن الجلوس مجدّداً على مقعده؛ وهنا ركب الخوف النبلاء والفرسان وأهل البلاط، وسادهم ما يشبه الجنون، حتّى فرّوا من المكان، أمّا القيصر فقصد مخدعه وهو كسيف الخاطر.

وروت الأميرة ـ الجارية أنّها في تلك الليلة، رأت في حلمها عيسى وجميع حواريه، يقفون في المكان الذي حصلت فيه أحداث العرس، وظهر محمّد أمام عيسى، وجاء بعده عليّ، وبعد عليّ جاء أحفاده الأئمة يحفّهم النور، فعانق عيسى محمّداً الذي قال له: «يا روح الله، لقد أتيتُ في طلب حفيدة حواريك سيمون لحفيدي حسن بن عليّ الإمام الحادي عشر»؛ فنظر عيسى الى سيمون وقال: «النبل والمجد حلاّ هنا ليوحّدوا بين نسبك الشريف والنسب الشريف لمحمّد». فوافق سيمون على زواج الأميرة البيزنطيّة من حسن بن عليّ، ثم صعد الجميع الى منصّة صُنعت من نور.

وروت الأميرة ـ الجارية أنّها بعد ذلك الحلم، لم تجد الشجاعة لترويه لأيّ كان. وقد انقطعت عن الطعام، وعن الخمر، ولم يمضِ وقت طويل، حتّى أصابها الهزال، وسرعان ما مرضت ووهنت، ولم تستعِد بعض عافيتها إلاّ بعد انتزعها من القيصر قراراً بإطلاق سراح المسلمين الأسرى لدى الأمبراطوريّة البيزنطيّة؛ وروت الأميرة البيزنطيّة التي صارت جارية أنّها استعادت بعد ذلك قوّتها تماماً، إذ ظهرت عليها في الحلم فاطمة ابنة الرّسول، ومعها مريم العذراء، وقد ألحّتا عليها بالدّخول في دين الإسلام وبأن تشهد: أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله وعليّاً وليّ الله... فلم تتردّد لحظة واحدة، وشهدت هذه الشهادة التي، كما قالت، تلتها عليها فاطمة ومريم. وكما قالت، صار وجود الحسن بن عليّ، بعد هذا الحلم، يملأ لياليها، وشعرت بقربه، فكان ابن الإمام يرقد بجوارها بجسده وروحه. وقد حقّق الحسن، ابن الإمام العاشر، أمنية أبيه بالزواج بها. وقبل نهاية الرحلة من بغداد الى سامرّاء كان بشّار بن سليمان قد عرف خاتمة حكاية الجارية التي اشتراها بتكليف من الإمام العاشر، وقالت الجارية: «... وإذ أضحيت زوجة لابن الإمام، لم أستطع البقاء في بيزنطية، فأردت الرحيل الى بلاد زوجي، لذلك ارتديت ملابس الرّجال، وانضممتُ الى فرقة من الجنود كانت ذاهبة الى بلاد المسلمين، غير أنّي وقعت في الأسر بخلال هجوم شنّه الفرسان المسلمون، وعندما رفضت أن

أتجرّد من ملابسي مثلما تجرّد سائر الأسرى، اكتُشف أمري، وإذ عرف المسلمون الذين أسروني بأنيّ امرأة، عاملوني باحترام، ولكنّهم جعلوني جارية.

وتقول الحكاية إنّ الإمام العاشر كان راضياً تماماً عن رسوله بشّار بن سليمان. وفي أوّل لقاء للإمام بمنزله في سامرّاء مع الفتاة البيزنطيّة، أعجب بها، وسألها: «أتفضّلين ألف دينار أم بشرى طيّبة؟». فاختارت الأميرة البيزنطيّة البشرى، فقال لها الإمام العاشر: «كزوجة لابني، ستلدين ابناً، من خلاله يسود العدل الأرض، وسيُصطفى ابنك ليكون مخلّص الدنيا[1]».

مع شيوع هذه الروايات في سامرّاء، أصبح الإمام الحادي عشر مراقَباً بشكل دقيق من قبل العسكر، حتّى إنّه لم يعد بوسعه أن يقرُب نساءه دون مراقبتهم. وقد غاب عن هؤلاء أنّ البيزنطيّة كانت قد حملت من الحسن العسكريّ، وأنّ المهديّ لا بدّ مولود منها.

الإمام المهديّ، والغيبة، والرجعة

يقول الشيعة بأنّ هذه المرأة البيزنطيّة قد وَلدت في سامرّاء قبل وفاة الحسن العسكريّ بأربع أو خمس سنوات. وتُروى أساطير كثيرة عن هذا الطفل، فيذكرون أنّه تكلّم عند ولادته، فشهد الشهادتين وصلّى على الأئمّة، ثمّ هبطت طيور من السماء وخفقت بأجنحتها عند رأسه، فنادى الإمام العسكريّ واحداً منها، فدفع إليه المولود وقال: «خذوه فأرضعوه وردّوه إلينا كلّ أربعين يوماً»؛ فأخذه الطائر وصعد به الى السماء، ثمّ أمر الإمام باقي الطيور بمثل ذلك، فطاروا وراءه، ثمّ قال: «استودعتُك الذي استودَعَت أمّ موسى[2]».

١ ـ راجع: كونسلمان، ص ١٠٦ ـ ١٠٩
٢ ـ راجع: د. صابر طعيمة، ص ٥٨

كان الشاهد على كلّ ما جرى من قبل هذا الطفل، عمّته حليمة، التي روت أيضاً أنّه وُلد مختوماً، ولم يُربط بأمّه بحبل سُرّي، وعلى الذراع اليمنى للمولود قرأت هذه الكلمات: «ظهر الحقّ على الأرض وزهق الباطل ولم يعد له مكان على الأرض». وقد سجّلت الروايات تعجُّب العمّة حليمة من أمر الطفل، فكانت تراه كلّ أربعين يوماً، فتعجب كلّ مرّة من نموّه ونضجه السّريعين، وإذ سألت أخاها الإمام عن سرّ ذلك النموّ السريع، أجابها «بأنّ الطفل من الأئمّة، كلّما أتى عليه شهر كان كمن أتت عليه سنة؛ وأنّه يتكلّم في بطن أمّه، ويقرأ القرآن، ويعبد ربّه عزّ وجلّ، وتعلّمه الملائكة وتنزل عليه صباح مساء». ولمّا سألت حليمة أخاها عن الطائر الذي أخذه قال: «إنّه روح القدس، يهدي الأئمّة ليؤدّوا رسالته عزّ وجلّ، وبعضهم يؤتيهم العلم[1]».

وتقول الروايات الشيعيّة إنّه عندما كان الإمام العسكريّ سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م. في حال النزع[2]، وكان المهديّ، الذي أطلق عليه والده اسم محمّد، في الرابعة من عمره، وإذ كان العسكريّ يجتهد لشرب الدواء، ويده ترتعش بصورة جعلت القدح يصطكّ بأسنانه، وضع الإمام الدواء جانباً، وطلب من خادمه أن يذهب ويحضر له الطفل الذي يدعو، فدخل الخادم الغرفة التي أشار عليه الإمام بدخولها، ورأى الطفل يصيح بالدعاء، رافعاً سبابته إلى السماء. وعندما انتهى الطفل من دعائه، ابتسم، وظهرت أسنانه.

وأمام الإمام المحتضر، وقف الطفل ليسمع كلمات أبيه: «سيكون لك البيت وآله قريباً. وقريباً سأكون بين يدي الله. أعطني أنت الدواء لأشربه». وهنا توقّف الإمام عن الارتعاش. ثمّ قال للطفل: «جهّزني للصلاة».

سرعان ما أخذ الصبيّ منشفة الإمام وقام بالوضوء، ومسح رأس أبيه وقدميه بالطيب. بعد ذلك، قال الإمام المتأهّب لمغادرة الدنيا: «يا بنيّ، أنت سيّد

١ ـ د. صابر طعيمة، ص ٥٨ ـ ٥٩؛ كونسلمان، ص ١١٢ ـ ١١٣
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٢٧٤؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٩٩

كلّ زمـان، أنت المهـديّ الهـادي، أنت على الأرض دليل وجـود الله. أنت آخـر الأئمّة، طاهراً تشملك كل الفضائل، وقد بشّر رسول الله (صلعم) بمجيئك وتنبّأ باسمك. وهذا العلم أخذته عن آبائي وستأخذه أنت عنّي[1]».

بعد هذه الكلمات، مات الإمام الحادي عشر. وقد تُنوزع في سبب موته، بين قائل بأنّه جاءَ إثر مرض طبيعي، وقائل بأنّه نتيجة سمّ دُسَّ له بإرادة الخليفة العبّاسيّ المعتمد. وبموت الإمام العسكريّ، أصبح ابنه محمّد المهديّ الإمام الثاني عشر عند غالبيّة الشيعة، وهم الذين عُرفوا بالاثني عشريّة، أو بالقطعيّة، بينما تنازع الباقون من الشيعة في «المنتظر من آل النبيّ بعد وفاة الإمام العسكريّ، فافترقوا الى عشرين فرقة[2]».

فعندما توفّي الإمام الحادي عشر، حاول أن يصلّي عليه أخوه جعفر، وطبقاً للتقاليد، يكون منصب الإمامة للذي قام بهذه الصلاة. غير أنّ محمّداً، وقد كان في الرّابعة من عمره، أمسك بيد عمّه وهو يهمّ بالصلاة وأزاحه جانباً، ثمّ قام هو بأداء الصلاة، مثبّتاً بذلك أنّه الإمام. بيدَ أنّ هذا لم يقضِ على طموح جعفر، وتذكر المدوّنات أنّه بعد موت الإمام العسكريّ بأيّام قليلة، جاءَ حُجّاج من المدينة الإيرانيّة قُمّ الى سامرّاء ليعرفوا من الذي ستؤول إليه الإمامة بتكليف من الله، ويبدو أن جعفراً قدّم نفسه لهؤلاء على أنّه الإمام الشرعيّ، وعندما أثار هؤلاء موضوع التقليد الذي يقضي بانتقال الإمامة من الأب الى الابن، ردّ جعفر بأنّ الله هو الذي يقرّر بقاء التقليد أو زواله. وإذ لم يشأ الحُجّاج تصديق جعفر إلاّ في حال إثباته أنّ الله أراد حقّاً تكليفه بزعامة آل بيت الرسول من خلال علامة واضحة، وكانت تلك العلامة، تتمثّل في أن يكون لدى الإمام المقدرة على معرفة أسمائهم ومقدار المال الذي يحمله كلّ منهم؛ غضب جعفر وحجّته أنّ أيّ إمام لم يتعرّض لمثل هذا الامتحان، وطالب الحجّاج الإيرانيّين بأن يخضعوا له، لأنّه هو وحده الذي

١ ـ كونسلمان، ص ١١٣ ـ ١١٤
٢ ـ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٩٩

بوسعه أن يتقلّد منصب الإمامة بأمر الله كخليفة لأخيه الحسن، وحجّته في ذلك أنّ الإمام الحسن بن عليّ، وهو الإمام الثاني، قد خلفه أيضاً أخوه الحسين؛ إلاّ أنّ هذه الحجّة لم تُقنع الحُجّاج؛ وفي هذه اللحظة، دخل غلام الى حيث كان الجمع، وأعلن لحُجّاج قمّ أنّ سيّده كلّفه بذكر أسماء الرّجال ومقدار الأموال التي يحملها كلّ منهم، ودهش الحُجّاج لصحّة ما سمعوا، وأصرّوا على معرفة هذا السيّد الذي كلّف الغلام بهذا الأمر، ولكنّ جعفراً حاول منع حصول ذلك بقوله للحُجّاج: «يا أهل قمّ، إنّكم أهل الإيمان فهل تُخدَعون بحيلة شيطان؟»؛ وقبل أن ينهي جعفر كلامه، رأى الحُجّاج، بوضوح وجلاء أمامهم، صبيّاً في حوالى الرابعة من عمره، وسمعوه يقول: «يا جعفر لماذا تطلب ما هو حقّ شرعيّ لي؟». هذا المشهد، بحسب الرواية، لم يستغرق أكثر من برهة، إختفى بعدها طيف الطفل؛ فخرج أهل قمّ من بيت الإمام الحادي عشر وهم حيارى، وتنتهي الرواية الى أنّه بعد خروجهم، قام جعفر بالبحث عن الصبيّ في البيت بلا جدوى. وقد افترض بعض البحّاثين أنّ أفراد العائلة، لا بدّ من أنّهم قاموا بإخفاء الصبيّ خوفاً من مؤامرات عمّه جعفر، وقد كان بيت الإمام الحادي عشر في سامرّاء مبنيّاً فوق أقبية متشعّبة وسراديب كان يلجأ إليها الإمام متخفّياً بخلال ملاحقة عملاء أصحاب السلطة له، وكان الصبيّ يعرف سرّ هذه الأنفـاق[1]. وقد اعتبر بعض مراجع الشيعة أنّ محمّداً المهديّ كان عمره يومذاك ستّ أو سبع سنوات[2].

هنا يبدأ سرّ غيبة الإمام الذي لا يعتبره الشيعة ميتاً، إنّما هو «حيّ يرزق يعيش في الخفاء، وبأمر الله سيرجع في نهاية الزمن». واختفاء الإمام الثاني عشر، لا يعني أنّه صعد الى السماء، فهو يعيش بين الناس، يتّصل ببعضهم، وكثيرون يؤمنون بإمكان مخاطبته. «ويقول المجلسيّ[3] إنّ من يريد من الرافضة الاتصال

١ ـ كونسلمان، ص ١١٢ ـ ١١٦
٢ ـ د. صابر طعيمة، ص ٥٩
٣ ـ المجلسي (محمّد الباقر) (١٠٣٧ ـ ١١١٠ هـ / ١٦٢٧ ـ ١٧٠٠م): شيخ الاسلام في أصفهان. ولد وتوفّي في أصفهان. على يده تمّت غلبة التشيّع على التصوّف في إيران. أمر بإجلاء الصوفيّة عن العاصمة أصفهان وذلك بموافقة الشاه حسين الصفوي (١١٠٦ هـ / ١٦٩٦ م) اشتهر بكتابه «بحار الأنوار».

بالمهديّ، فعليه أن يكتب على رقعة من الرقاع صيغة معيّنة ثمّ يضعها عند قبر أحد الأئمّة، أو يجعلها في طين نظيف ثمّ يرميها في البحر أو في بئر عميقة، وبهذه الطريقة تصل رقعته الى الإمام الغائب فينظر فيها». ويروي مؤرّخو الشيعة الكثير عن ظهور المهديّ للناس في بعض الأوقات والمناسبات، ومنها أنّه يظهر لبعض المؤمنين عند حاجتهم إليه أو أنّهم يرونه بعد الصلاة[1].

على أيّ حال، فإنّ غيبة محمّد المهديّ قد بدأت حين وفاة والده الإمام الحسن العسكريّ، سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م.، ولا تزال. ثم إنّ هذه الغيبة، تُقسم في اعتبار الشيعة الى غيبتين: الغيبة الصغرى، والغيبة الكبرى.

أمّا الغيبة الصغرى، فقد استمرّت حوالى سبعين سنة، بقي خلالها الإمام الغائب دائم الصلة بقواعده وأصحابه عن طريق وكلائه ونوّابه والثقات من أصحابه الذين كانوا يشكّلون همزة الوصل بينه وبين الناس المؤمنين بخطّة، وقد أشغل مركز النيابة عن الإمام في هذه الفترة أربعة ممّن أجمعت تلك القواعد على تقواهم وورعهم ونزاهتهم التي عاشوا ضمنها، وهم، على التوالي: عثمان بن سعيد العمري، ثمّ محمّد بن عثمان بن سعيد العمري، ثمّ أبو القاسم الحسين بن روح النوبختي، وكان آخرهم أبو الحسن عليّ بن محمّد السَمّريّ.

مارس هؤلاء الأربعة مهام النيابة على التوالي، وكان كلّما مات أحدهم، خلفه الآخر، وذلك بتعيين من الإمام الغائب؟!. وكان النائب، من هؤلاء الأربعة، يتّصل بالقواعد ويحمل أسئلتهم الى الإمام، ويعرض مشاكلهم عليه، ويحمل إليهم أجوبته شفويّاً أحياناً، وتحريريّاً أحياناً أخرى. وقد لاحظ المؤمنون أنّ التوقيعات والرسائل كانت ترِد من الإمام المهديّ بخطّ واحد واسلوب واحد طيلة نيابة النوّاب الأربعة التي استمرّت حوالى سبعين عاماً، إنتهت بنهايتها الغيبة الصغرى.

١ ـ د. صابر طعيمة، ص ٥٩

ولمّا كان هؤلاء النواب قد درج السابق منهم على تعيين خليفته قبل موته، فأوصى النائب الأوّل عثمان بن سعيد بالنيابة الى ابنه جعفر بعد وفاته، وأوصى جعفر بها الى أبي القاسم النوبختي، الذي أوصى بها الى الحسن السّمريّ، ولمّا سألوا هذا الأخير عمّن يخلفه بعد موته، قال: «لله أمر هو بالغه»، ولم يوص لأحد بعده، فكانت نهاية النيابة، ونهاية الغيبة الصغرى[1].

أما الغيبة الكبرى، فتبدأ منذ ذلك التاريخ (حوالى ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م.) ولن تنتهي إلاّ بظهور المهديّ، آخر الزمان، ليخلّص البشريّة. ويربط المعتقد بين رجعة الإمام الثاني عشر، ونشوب حرب الجهاد، ويقسمها المعتقد الى درجات مختلفة: فقبل رجعة الإمام وظهوره، يُنتظر أن يأتي عليّ، أوّل الأئمّة، وسيحمل عليّ خاتم سليمان وعصا موسى، وبهذا يتمّ التعرّف على زوج ابنة الرسول، وسيقوم بجمع جيوشه على ضفّة الفرات عند الكوفة، حيث بشكل متوالٍ، يتجمّع حول عليّ الأئمّة الذين خلفوه، ويقول المعتقد بانتصار الإمام الأوّل على الشرّ الذي لن يستسلم بسهولة، فإنّ خصم عليّ سيكون الشيطان الذي يقود جيشاً قويّاً جبّاراً. ويذهب المعتقد الى افتراض أنّ أتباع الشيطان سيكونون أكثر عدداً من أتباع عليّ، إذ في النهاية سيحارب مع الشيطان كلّ من أيّده، ولو مرّةً واحدة، خلال التاريخ المديد للبشريّة؛ وإذا كان النجاح سيحالف هذا الجيش الشيطانيّ في بداية الأمر، فإنّ نهاية أكبر معارك التاريخ وأقساها سوف تكون بانتصار جيش عليّ، بعون السّماء، على الشيطان، فيظهر محمّد في سحابةٍ على رأس جيش من الملائكة، وإذ يرى الشيطان محمّداً يهرب مع جنده، فيقتله محمّد برمح معه من نور، ويُفني جيشَه، فيفقد الشرّ سلطانه الى الأبد، وتقوم الساعة.

وفي المعتقد الشيعيّ أنّه في يوم الحساب، سيرجع الى هذه الدنيا فريقان: أحدهما مَن علت درجته في الإيمان وكثرت أعماله الصالحات وخرج من الدنيا على

١ ـ المرجع السابق، ص ٥٩ و ٧٤ ـ ٧٥

اجتناب الكبائر والموبقات، فيُريه الله دولة الحقّ ويعطيه من الدنيا ما كان يتمنّاه، والآخر من بلغ في الفساد وانتهى في خلاف المحقّين الى أقصى الغايات وكثر ظلمه لأولياء الله واقترافه السيّئات. وسيكون جزء من عقاب الأشرار أنّهم سيرون حسن ثواب المؤمنين والأخيار، ثمّ يبدأ عذابهم الأبديّ. وسوف يشارك في الحكم على هؤلاء، الإمام المهديّ، الذي سينادي الموتى من قبورهم، بادئاً بأفضل الأخيار، وسيكون الحسين على رأسهم، وأسوأ الأشرار، وسيكون على رأسهم يزيد بن معاوية، وسيلقى يزيد عذاباً أبديّاً، هو ومن معه، من الذين سيطر الشرّ على إرادتهم. أمّا الأموات الذين لم يتطرفوا في خيرهم أو شرّهم، فيظلّون راقدين في قبورهم حتّى إذا ما انتهى عقاب الأشرار وثواب الأخيار، حوكم هؤلاء محاكمة جماعيّة. وأمّا الذين انضمّوا الى شيعة عليّ قولاً وفعلاً فلن تمسّهم النار[1]، وقد استدلّ على هذا التصور علماء الشيعة، ومنهم أبو عليّ الطبرسي[2] في تفسير للآية: «ويوم نُحشَرُ من كلّ أمّةٍ فوجاً ممّن يُكذِّبُ بآياتنا فهم يوزَعون[3]».

أبرز من تحدّث عن هذا المعتقد من أهل الشيعة، الشريف المرتضى[4]، الذي نقل عنه أحمد أمين[5] في كتابه ضحى الإسلام، والشيخ محمّد بن محمّد بن النعمان، الفقيه الشيعيّ الملقّب عندهم بالشيخ المفيد[6]. ومحمّد بن الحسن الحرّ

١ ـ المرجع السابق، ص ٨٤؛ كونسلمان، ص ١١٦ ـ ١١٨
٢ ـ أبو عليّ الطبرسي (توفّي ٥٤٨ هـ / ١١٥٣ م): مفسّر يُعرف بالطبرسي الكبير صاحب التفسير. له «مجمع البيان في تفسير القرآن» وهو أشهر التفاسير عند الشيعة ـ منجد الأعلام ـ
٣ ـ سورة النمل، الآية ٨٣
٤ ـ الشريف المرتضى على بن الحسين (٣٥٥ ـ ٤٣٦ هـ / ٩٦٦ ـ ١٠٤٤ م): فقيه الشيعة في عصره. ولد وتوفّي في بغداد. شاعر مجيد ومؤلّف مكثر. كان أوحد أهل زمانه علماً وكلاماً وحديثاً وشعراً، وكان مثالاً للثقافة الكاملة. من مؤلّفاته: «الأمالي» ـ منجد الأعلام ـ
٥ ـ أحمد أمين (١٨٨٦ ـ ١٩٥٤): ولد في القاهرة، من أعضاء المجمع العلمي العربي، أسّس الجامعة الشعبيّة. من مؤلّفاته: «فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و «ظهر الإسلام» ـ منجد الأعلام ـ
٦ ـ محمّد بن محمّد بن النعمان الملقّب بالشيخ المفيد، (توفّي ٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م): فقيه الشيعة في عصره، نشأ وتوفّي في بغداد. من ألقابه أيضاً «ابن المعلّم». مؤلّف مكثر. من مؤلفاته كتاب «الارشاد» الذي تحدّث فيه عن معتقد الرجّعة.

العامليّ[1]. وابن بابويه[2]، وسواهم؛ وخلاصة قول هؤلاء في الرّجعة أنها تعني عندهم «بأنّ الله سيُرجع قسماً من الأموات الى الحياة الدنيا، وذلك عند خروج المهديّ المنتظر، ولن يرجع إلاّ من علت درجته في الإيمان، أو من بلغ الغاية من الفساد، ثمّ يصير الجميع بعد ذلك الى الموت. وتقوم عقيدة الرجعة أساساً على الاعتقاد بأنّ الرّسول والحسن والحسين وباقي الأئمّة، وكذلك بعض خصومهم كأبي بكر وعمر وعثمان، يرجعون الى الدنيا، ويُعذَّب من اعتدى على الأئمّة وغصب حقوقهم، فيُصلب أبو بكر وعمر على شجرة زمن المهديّ بعد أن يُضربا بالسياط. والقصد من هذه الرجعة أن ينتقم المهديّ من أعداء أهل البيت الذين يشاهدون من ظهور كلمة الحقّ وعلوّ كلمة أهل البيت ما أنكروه عليهم. ويعتمد الشيعة الرّافضة بقولهم بالرجّعة على الآية: «ولا تخافي ولا تحزني إنّ رادُّوه إليك وجاعلوه من المرسَلين[3]».

***

منذ بدء الغيبة الكبرى للإمام الثاني عشر في النصف الأوّل من القرن العاشر الميلادي، فقد الشيعة الاثنا عشريّة مرجعيّتهم الموثوقة في هذه الدنيا. ويتّفق الباحثون على أنّ الشيعة ترى أنّه يستحيل وجود حكومة مثاليّة في غياب الإمام المهديّ، وإنّ أحسن ما يمكن التوصّل إليه في مثل هذه الحال، هو إقامة حكم بموافقة جمهور العلماء، برغم أنّ مثل هذه الحكومة ليست مثاليّة قطّ[4].

١ ـ الحرّ العامليّ (محمّد بن الحسن) (١٠٣٣ ـ ١١٠٤ هـ / ١٦٢٣ ـ ١٦٩٢ م): فقيه شيعيّ ولد في مشغرة (لبنان) وتوفّي في مشهد الرّضا (إيران). رحل من جبل عامل وأقام في إيران فاشتهر فيها. من مؤلّفاته: «أمل الأمل» وكتاب «الوسائل» في الحديث، وعليه معوّل مجتهدي الشيعة حتّى اليوم ـ منجد الأعلام ـ
٢ ـ ابن بابويه محمّد بن عليّ القمّي (توفّي ٣٨١ هـ / ٩٩١ م): عالم شيعي لُقّب بالصدوق. ولد في قمّ وتوفّي بالريّ. مؤلّف مكثر. أشهر كتبه: «من لا يحضره الفقيه» وهو أحد كتب الشيعة الكبرى في علم الحديث. ـ منجد الأعلام ـ
٣ ـ سورة القصص، الآية الأولى؛ راجع: د. صابر طعيمة، ص ٧٩ ـ ٨٥
٤ ـ الدكتور سيّد حسين نصر، الإسلام أهدافه وحقائقه، الدار المتحدة للنشر (بيروت) ص ٩٩؛ راجع: طوني مفرّج، حرب الردّة، دار الجريدة (بيروت ١٩٧٩) ص ١٠١ ـ ١٠٦

الفصل التاسع

في مواجهة العبّاسيّين وقادتهم الأتراك

- دولة الأدارسة
- دولة العلويّين في طبرستان
- دولة البُوَيهيّين
- دولة الحمدانيّين

بينما تمكّن أئمّة الاثني عشريّة من المحافظة على الحدّ الأدنى من التعايش مع الخلفاء العبّاسيّين وقادتهم الأتراك، رغم التضييق الجائر الذي مارسه هؤلاء على الشعب عامّة، وعلى الشيعة خصوصاً، فقد شهدت الأمبراطوريّة الإسلاميّة طوال العهد العبّاسيّ حركات ثوريّة شيعيّة في مختلف أقاليمها، ممّا أدّى أحياناً الى نشوء دول شيعيّة مختلفة الأصول في حقبات مختلفة ولمدد كانت تقصر أو تطول بحسب الظروف. وكان من بين هذه الدول، دولة الأدارسة في المغرب (٧٨٨ ـ ٩٨٤ م.) ودولة العلويّين في طبرستان (٨٦٤ ـ ٩٢٨ م.) ودولة البُوَيهيّين التي سادت أصفهان وشيراز وكرمان (٩٣٢ ـ ١٠٥٥ م.) وبغداد (٩٤٥ م.) ودولة الحمدانيّين في بعض أنحاء الشام (٨٩٢ ـ ٩٩١ م.) إضافة إلى الخلافة الفاطميّة (٩٠٩ ـ ١١٧١ م.) التي قامت أوّل أمرها في تونس، ثمّ أخضعت الشمال الإفريقيّ كلّه، ثمّ مصر، ثمّ امتدت حدودها إلى شواطئ الأطلسيّ وبسطت نفوذها على بلاد الشام وفلسطين ولبنان.

دولة الأدارسة

في السّنة الأولى من عهد الخليفة العبّاسيّ الرابع: الهادي موسى بن محمّد المهديّ (١٦٩ ـ ١٧٠ هـ / ٧٨٥ ـ ٧٨٦ م.) ثار بالمدينة الحسين بن عليّ بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، ومعه جماعة من أهل بيته. وكان سبب هذه الثورة تضييق العبّاسيّين على آل أبي طالب وسواهم من الهاشميّين. وإذ تمكّن الثائرون من طرد عامل العباسيّين من المدينة، كانت ردّة فعل الخليفة عنيفة، فشنّ حملة على الحجاز قُتل بنتيجتها الحسين وجماعة من أهل بيته وأصحابه، وجُمعت رؤوسهم، فكانت تزيد على المائة، وكان مقتلهم بموضع يقال له «فخّ»، على مسافة ثلاثة أميال من مكّة.

نجا من آل الحسن الذين ناصروا أخاهم الحسين في هذه الثورة، إدريس بن عبد الله بن الحسن، الذي فرّ من «فخّ» إلى مصر، وكان على بريدها يومذاك

رجل يتشيّع لأهل البيت، اسمه واضح، وهو مولّى صالح بن منصور. وعندما علم واضح بلجوء الطالبيّ إلى مصر، قصده في مخبئه، وعرض عليه خدماته.

رحّب إدريس ببادرة الرّجل المتشيّع، وطلب منه أن يحمله على البريد إلى أرض المغرب. وقد تجاوب واضح مع رغبة حفيد الحسن، فلحق إدريس بالمغرب الأقصى، ونزل بمدينة «وليلى[1]»، وكان فيها عامل للعبّاسيّين اسمه إسحاق بن محمّد بن عبد الحميد، فأجار هذا إدريسَ، وأكرمه، وخلع طاعة العبّاسيّين وولاه. واجتمعت قبائل البربر إلى حفيد الحسن، فبايعته ودخلت في طاعته. وهكذا بدأ نشوء دولة الأدارسة في المغرب الأقصى، بينما اقتصّ الخليفة العبّاسي الخامس: هارون الرّشيد، من عامل البريد في مصر لنقله إدريس إلى المغرب، فأعدمه وصلب جثّته انتقاماً[2].

عمّرت دولة الأدارسة الشيعيّة في بلاد المغرب أقلّ من قرنين بقليل (٧٨٨ - ٩٨٤ م.) دولة مستقلّة[3]. وقد خلف إدريسَ في حكمها إبنه المسمّى هو أيضاً إدريس، بعد أن تمكّن الأوّل من السيطرة على المناطق المغربيّة التي كانت أكثريّة أهلها على دين اليهوديّة والمسيحيّة، فأجبرهم على اعتناق الإسلام الشيعيّ، وشملت فتوحاته سهل «تادلا» الواقع بين أطلس الأعلى والمحيط الأطلسيّ، والذي يخترقه نهر أمّ الربيع فيروي أراضيه الخصبة ومدينة التلمسان وسهلها الواقعة اليوم في الجزائر، هذا السهل الغنيّ بالينابيع والكروم والبساتين. وبنى إدريس الأوّل في مدينة تلمسان مسجداً متقناً، خلّد اسمه بحفره في صفحة منبره.

لاحقت غضبة الخليفة العبّاسيّ الخامس: هارون الرّشيد، إدريسَ إلى بلاد المغرب، فأرسل إليه إدريسَ الشمّاخ اليماميّ، مولى المهديّ، الذي تظاهر بالتشيّع

١ - وليلى: مدينة في المغرب الأقصى (مراكش)، وهي التي عُرفت أيضاً باسم «قصر فرعون».
٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ٩٠ - ٩٤؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٠٤ - ٤٠٥؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٣ ص ٣٣٦ - ٣٣٧
٣ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤٤

لأهل البيت، فقرّبه إدريس منه ورفع منزلته حتّى قيل إنّه آثره على نفسه وأنزله في بيته. ثمّ شكا إدريس إليه ألماً في أسنانه، فصنع عميل الرّشيد لإدريس دواء مسموماً وأشار إليه أن يداوي فمه به عند طلوع الفجر، معطياً لنفسه مجال الفرار خلسة أثناء الليل[1]. وهكذا تمكّن الرّشيد بواسطة عميله أن يغتال إدريس بن عبد الله في قصره بوليلى سنة ١٧٦ هـ / ٧٩٢ م. ولم يكن قد وُلد بعد ابنه الوحيد، الذي كانت حاملاً به جارية بربريّة اسمها كنزة. وكان لإدريس الأوّل مولّى مخلص يُدعى راشداً، فأقدم راشد، عند موت إدريس، على جمع رؤساء البربر ووجوه الناس، واقترح عليهم انتظار وضع الجارية، «فإن ولدت ذكراً أحسنّا تربيته حتّى يبلغ مبلغ الرّجال، وبايعناه تمسُّكاً بدعوة أهل البيت وتبرّكاً بذريّة الرسول، وإن كان أنثى نظرتم لأنفسكم». وقرّ الرأي على ذلك، وناب مولّى إدريس عنه حتّى وُلد للجارية طفل ذكر، فسمّاه راشد إدريسَ، وأنشأه تربية تليق بمقامه، فأقرأه القرآن حتّى حفظه وهو ابن ثماني سنوات، ثمّ علّمه الحديث والسنّة والفقه واللغة، ورواه الشعر وأمثال العرب، وعرّفه أيّام الناس والملوك، ودرّبه على ركوب الخيل ورمي السهام. ولمّا بلغ إدريس الثاني الحادية عشرة من عمره، بايعته الرعيّة.

نشأ إدريس الثاني ليكون رئيس دولة، وقد كان ما نشأ من أجله. وإذ استقام حكمه، وفدت عليه العرب من إفريقية والأندلس ملتفّين حوله. ومع هذا الإقبال البشريّ، قرّر إدريس الثاني إنشاء مدينة فاس، فبدأ بإنشاء المساجد والمدارس والأسواق، وأصدر تعميماً إلى الرعيّة جاء فيه أنّه كل من بنى موضعاً أو غرسه فهو له، فازدهر الغرس والبناء سريعاً، وزاد إقبال المستوطنين حتّى شمل الفرس. وفي أوّل خطبة له في مسجد فاس، قال إدريس الثاني:

«اللّهمّ إنّك تعلم أنّي ما أردت ببناء هذه المدينة مباهاة، ولا مفاخرة، ولا رياء، ولا سمعة، ولا مكابرة؛ وإنّما أردت أن تُعبد بها، ويُتلى بها كتابك، وتُقام بها حدودك،

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٦ ص ١٢٠؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٠٥

وشرائع دينك، وسنّة نبيّك، ما بقيت الدنيا. اللهمّ وفّق سكّانها للخير، وأعنهم عليه، وأكفهم مؤونة أعدائهم، وأدرر عليهم الأرزاق، وأغمد عنهم سيف الفتنة والشقاق، إنّك على كلّ شيء قدير[1] ».

وهكذا، انتقلت عاصمة دولة الأدارسة من وليلى إلى فاس، تلك المدينة الجديدة الرائعة الخصبة، التي يشقّها نهر دائم التدفّق إلى نصفين، وتتشعّب منه جداول تجري في الدور والحمّامات والشوارع والأسواق، وفي أكثر بيوتها تتفجّر العيون. فقد كانت نموذجاً عن فردوس.

وطّد إدريس الثاني أركان الدولة التي أسّسها والده، ووسّع نطاقها بعد أن أخضع لها بعض المناطق المجاورة. وقد عاش نحواً من ستّ وثلاثين سنة، إذ توفّي في سنة ٢١٣ هـ / ٨٢٨ م. تاركاً اثني عشر ولداً ذكراً.

خلف إدريس الثاني إبنُه البكر: محمّد. فقسّم هذا الأخير دولة الأدارسة على إخوته الرّاشدين، وأعطى كلاّ منهم إمارة، وأبقى القُصّار في عهدته. وبوفاة محمّد سنة ٢٢١ هـ / ٨٣٥ م. آلت القيادة إلى ابنه عليّ الذي حكم الدولة حتّى وفاته سنة ٢٣٤ هـ ٨٤٨ م. فخلفه أخوه يحيى الذي وسّع سلطان الدولة، وقد شهدت بعهده الممتد حتّى سنة ٢٦٤ هـ ٨٧٧ م. نموّاً وازدهاراً ملحوظين. ولكنّ ابنه الذي خلفه، واسمه هو الآخر يحيى، قد أساء السيرة وانصرف إلى اللهو والعبث، ممّا ألّب عليه أهل فاس، ففرّ إلى الأندلس حيث لاقى حتفه. ولم يستطع ابن عمّه عليّ بن عمر أن يسيطر على الدولة بعد أن استولى على الحكم إثر اعتزال يحيى الثاني، إذ كان عليه أن يفرّ بسبب ثورة الخوارج عليه. فحاول يحيى الثالث، وهو حفيد إدريس الثاني، أن يستعيد استقرار الدولة، غير أنّ دولة الأدارسة كانت قد أصبحت عرضة لزحف الفاطميّين الذين تمكّنوا من فرض سيادتهم على القسم الشرقيّ منها، بينما فرض أمويّو الأندلس سيادتهم على

١ - الشيخ محمّد جواد مغنيّة، دول الشيعة في التاريخ، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات (كربلاء ١٩٦٥ م) ص ١٦ - ١٧

قسمها الغربي، وانتهت بذلك دولة الأدارسة الشيعيّة في حوالى العام ٩٨٤ م. وقد ترك الأدارسة الشيعة في المغرب آثاراً جليلة، إضافة إلى نشرهم الإسلام فيها، إذ ازدهرت العلوم في عهدهم، وتحضّر أهل البوادي، ونشأت المدن الواسعة، وانتشرت المساجد والمدارس، وعمّ العدل والأمن في الجزء الأكبر من عهدهم بشكل قلّما عرفت مثله دول الإسلام في تلك الحقبة من التاريخ[1].

دولة العلويّين في طبرستان

ذكرنا في الفصل السابق خبر ظهور الحسن بن زيد بن محمّد بن اسماعيل ابن زيد بن الحسن بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بطبرستان، ومبايعة أهلها له، وسيطرته عليها نحواً من تسعة عشر عاماً. وكان ظهور الحسن بن زيد في ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م.

جاء ظهور الحسن بن زيد في طبرستان إثر جور العامل العبّاسيّ فيها، وتململ أهلها الذين كانوا على استعداد للسّير في أيّة حركة تناهض الحكم القائم. وكان أهل طبرستان وأهل الديلم قد تراسلوا على التعاون والتعاضد من أجل التخلّص من نير الوالي العبّاسيّ سليمان بن عبد الله بن طاهر. وما أن تجاوب الحسن بن زيد مع دعوة أهل طبرستان والديلم لقيادتهم، حتّى انضمّ إلى هؤلاء في مبايعته أهل كلار وشالوس والرميان من المناطق المجاورة لطبرستان والديلم، ثم انضمّ إلى هؤلاء سكّان الجبال والوهاد المجاورة. وجرت الحرب بين الثائرين بقيادة حفيد عليّ، وبين رجال العامل العبّاسيّ بقيادة محمّد بن أوسى البلخيّ في مدينة آمل بسهل مازاندران جنوبيّ بحر قزوين، فتمكّن الحسن من دخول المدينة بعد قتال شديد. وإذ عمل المنتصرون في نهب المدينة، إنضمّ إليهم عدد كبير من روّاد القتال والمغانم، فأعاد الحسن تنظيم فرقه، وشنّ هجوماً على العامل العبّاسيّ سليمان

١ - للمزيد من أخبار دولة الأدارسة، راجع: «الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى».

ابن عبد الله في مدينة سارية، وبعد قتال شديد بدأ أصحاب زيد بالدخول إلى المدينة، ففرّ العامل العبّاسيّ، تاركاً عياله وأمواله وراءه. بيدَ أنّ الحسن، الذي استولى على الأملاك، أمر بإرسال النساء والأولاد في مركب إلى سليمان الذي لجأ إلى مدينة جرجان جنوب شرقيّ بحر قزوين. وقيل إنّ سليمان قد انهزم اختياراً لأنّه كان متشيّعاً لأهل البيت.

ولّما سيطر الحسن على طبرستان، وجّه جنداً إلى الرّي بقيادة قريب له اسمه هو الآخر حسن بن زيد، فاستولى عليها، وجعلها تحت إمرة رجل من الشيعة اسمه محمّد بن جعفر. ويبدو أنّ محمّداً هذا قد أساء السيرة، فكرهه أهل الرّي، وتخلّوا عنه، ممّا مكّن الجند العبّاسيّ من أسره بعد دحر جيشه، فاضطر الحسن إلى أن يوجّه عسكره من جديد بقيادة رجل يدعى واجناً، إلى الرّي، فتمكّن واجن من استعادتها بعد قتل القائد العبّاسيّ ودحر جيشه.

كلّ هذه الأحداث جرت في سنة ٢٥٠ هـ / ٨٦٤ م. إذ كان عهد الخليفة العبّاسيّ الثاني عشر: المستعين (٢٤٨ هـ / ٨٦٢ م. - ٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م.).

بيدَ أنّه في السّنة التالية لهذه الأحداث، أمر الخليفة العبّاسيّ عاملَ طبرستان، سليمان بن محمّد، بأن يستعيد طبرستان، وزوّده بجيش كبير من أجل هذه الغاية. فاضطر الحسن بن زيد الى التخليّ عن طبرستان للديلم، فدخل العامل العبّاسيّ طبرستان وراح يتقبّل اعتذار أهلها، فصفح عنهم، ونهى أصحابه عن القتل والنهب والأذى. ومن شأن هذا التصرّف أن يدلّ على صحّة تشيّع سليمان.

في هذه الأثناء، جرت أحداث أخرى بالكوفة، حيث نشبت الثورة على يد طالبيّ آخر، هو الحسين بن أحمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب، الذي سمّى والياً عليها، طالبيّاً آخر، هو محمّد بن جعفر بن حسن بن جعفر بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، وأجلى عنها عامل العبّاسيّين أحمد بن نصير الخزاعيّ. ولّما وجّهت الخلافة جنودها لاستعادة الكوفة، دافع عنها

أهلها العلويّون دفاعاً مستميتاً، وأبادوا الفرقة المهاجمة، بيدَ أنّ القائد العبّاسيّ، عاد وهاجمها بفرقة أخرى، حتّى دخلها، وأحرقها انتقاماً، فهرب منها حفيد عليّ، بعد أن سيطر القائد العبّاسيّ عليها تماماً.

في الوقت نفسه، ثار علويٌّ آخر في نينوى، مجهول الهويّة، ولكنّ ثورته باءت بالفشل، رغم إزعاجه الدولة العبّاسيّة، التي كان عليها أيضاً أن تواجه ثورة حفيد آخر لعليّ في قزوين وزنجان، هو الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمّد ابن إسماعيل الأرقط ابن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ المعروف بالكركيّ، بعد أن طرد العامل العبّاسيّ وسيطر على الناحية.

وفي مكّة، ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب، فانتهب منزل العامل العبّاسيّ فيها ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكّة، واستولى على كل مال طالته يده، بما في ذلك الأموال العائدة الى الكعبة. وبعد أن نظّف الثائر الطالبي مكّة من الأموال والذهب والفضّة، أحرق بعضها وسار إلى المدينة، فتوارى عاملها، وبقي رجال إسماعيل محاصرين مكّة حتّى أذاقوا أهلها الأمرّين. وقد جاءت هذه الثورة انتقاماً طالبيّاً لما لقيه أحفاد عليّ من جور وذلّ ومهانة على أيدي العبّاسيّين. وقد سار هذا الطالبيّ إلى جدّة وفعل بها ما فعله بمكّة، دون أن تتمكّن منه قوى الخلافة. إنّما العكس قد حصل، إذ خلع الخليفة العبّاسي الثاني عشر: المستعين، نفسه من الخلافة، فخلفه المعتزّ بن المتوكّل (٢٥٢ هـ / ٨٦٦ م.) ثمّ إنّ الثائر الطالبيّ، إسماعيل بن يوسف، قد مات في السنة نفسها بعد أن فعل كلّ ما فعل.

وبينما هذه الأحداث تتفاعل، تمكّن الحسن بن زيد العلويّ من استعادة طبرستان بسهولة. وكان الخليفة المعتزّ قد خُلع على أيدي قادته الأتراك (٢٥٥ هـ / ٩٦٥ م.) وخلفه المهتدي. بينما كانت ثورة الزنج قد بدأت، كما عمّت الاضطرابات بغداد والموصل والبصرة والكوفة. وقبل أن يُتمّ الخليفة المهتدي سنة من حكمه، خلعه الأتراك كما خلعوا سلفه المعتزّ، وجعلوا مكانه أحمد بن المتوكّل،

ولُقب بالمعتمد على الله. وبينما أوضاع الخلافة على هذه الحال من التردّي ظهر في الكوفة عليّ بن زيد، واستولى عليها، وأزاح عنها نائب الخليفة، واستقرّ بها. وتمكّن العلويّ من صدّ هجوم عنيف شنّه عليه جند الخلافة، بيدَ أنّه تنحّى عنها لمّا علم بتسيير حملة كبرى لقتاله، ولكنّ الخليفة عاد وتمكّن منه بعد حين عندما عاد إلى سامرّاء، فأرسل من قتله هناك.

وسط هذه الفوضى، وسّع الحسن بن زيد مجال سيطرته، فقصد جرجان، واستولى عليها، رغم محاولة أمير خراسان محمّد بن طاهر الدفاع عنها، ولكنّه بقي في حال نزاع مع الخلافة العبّاسيّة التي كان عمّالها يشنّون على دولته الهجمات المتقطّعة، وكان الحسن ينتصر حيناً، وينهزم لبعض الوقت حيناً آخر، فينتقل إلى أرض الديلم ليعود فيحرّر طبرستان ويسودها. وبقي على هذه الوتيرة حتّى وفاته سنة ٢٧٠ هـ / ٨٨٣ م. بعد أن أسّس دولة شيعيّة وقادها طوال تسع عشرة سنة وثمانية أشهر، فتولّى مكانه أخوه محمّد بن زيد. وكان الحسن، إضافة إلى حنكته الحربيّة والسياسيّة، عالماً بالفقه وبالعربيّة، وملمّاً بالشعر، وكان مميّزاً بفضيلة الجود[1].

استتب الأمر لخليفة الحسن: محمّد بن زيد، فحكم الدولة العلويّة مدّة سنتين بلا قلاقل تُذكر. وكان محمّد فاضلاً، أديباً، شاعراً، عارفاً، حسن السيرة، بإجماع المؤرّخين. وتدلّ سيرته على أنّه كان متسامحاً، وكانت له نظرته الخاصّة والواقعيّة الى الأمور. ويوم استأذن عليه جماعة من المكفوفين، قال: «أدخلوا... فإنّه لا يحبّنا إلاّ كلّ كسير أعور!».

في السّنة الثانية لحكمه، تعرّضت الريّ لهجوم عنيف من القادة الأتراك العاملين تحت الرّاية العبّاسية. وكان العهد للخليفة العبّاسيّ الخامس عشر: المعتمد

١ - راجع: ابن الأثيــر، الكامل، ج ٧، ص ١٣٠ - ١٣٤ و ١٦٣ - ١٦٧ و ١٧٧ و٢٠٣ و ٢٢٨ و ٢٣٥ و ٢٣٩ - ٢٤٠ و ٢٤٨ و ٢٦٨ - ٢٦٩ و ٢٨٨ و ٣٣٥ و ٤٠٧ - ٤٠٨؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ١٥٣ و ١٨٠؛ اليعقوبي، ج ٢ ص ٤٩٨؛ مغنيّة ص ٢٤

(٢٥٦ هـ / ٨٧٠ م. - ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م.) فقُتل من جيش ابن زيد ستة آلاف رجل، وأُسر ألفان، وغنم الأتراك من خيرات الريّ ما لم يروا مثله، على حدّ تعبير من رووا. وفرّق الأتراك عمّالهم في مناطق الريّ. وبعد ثلاث سنوات (٢٧٥ هـ / ٨٨٨ م.) أرسل العبّاسيّون حملة إلى جرجان، أزالت عنها حكم محمّد بن زيد. وإذ سار محمّد إلى أستراباد، حاصره الجند العبّاسيّ مدّة سنتين، حتّى شهدت المدينة قلّة ومجاعة. وإذ تمكّن محمّد من الفرار بعد سنتين، انتقل الى سارية، فتبعه الجيش العبّاسي، فانتقل إلى طبرستان، ثمّ إلى أرض الدّيلم. وبقي محمّد ملاحقاً من قبل الجيش العبّاسيّ إلى أن مات وليّ عهد الخليفة المعتمد: الموفّق بالله، سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م. ذلك أنّ الموفّق، وهو طلحة بن جعفر المتوكل، إذ كان وليّاً للعهد بعهد أخيه المعتمد، كان الحاكم الفعليّ، فظهر ضعف المعتمد عن القيام بأعباء الدولة. والموفّق، هو الذي تمكّن من القضاء على ثورة الزنج سنة ٨٨٣ بمعاونة لؤلؤ.

في هذه الأثناء، كان محمّد بن زيد قد عاد إلى الدّيلم، وكان قائد الحملة العبّاسيّة التي انتزعت منه طبرستان والريّ وجرجان وغيرها من النواحي: رافع بن هرثمة، وكان مقيماً في الريّ، فراسل محمّداً عارضاً عليه الصلح مقابل إعادتها إليه. وهكذا استعاد ابن زيد الجزء الأهم من الدولة العلويّة لحكمه. غير أنّ مشكلة من نوع آخر قد واجهت الدولة العلويّة بعد سنتين (٢٨٠ هـ / ٨٩٣ م.) إذ غارت المياه في الريّ وطبرستان، حتّى عزّت المياه على الناس، وغلت الأسعار، واستمرّ الشحّ سنتين متتاليتين[1].

رغم ذلك، فقد تمكّن محمّد سنة ٢٨٢ هـ / ٨٩٥ م. من إرسال اثنين وثلاثين ألف دينار إلى أحد أتباعه في بغداد، لتُوزّع على أهل البيت من الطالبيّين في بغداد والكوفة والمدينة. ويبدو أنّ محمّداً كان يرسل قرابة هذا المبلغ من المال للغاية نفسها في كلّ عام. وفي سنة ٢٨٧ هـ / ٩٠٠ م. قُتل محمّد بن زيد في إحدى

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤١٨ و ٤٥٧ و ٤٦٥ و ٤٦٧ و ٤٧٤ و ٥٠٤ و ٥٢٧؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٦٦؛ مغنيّة، ص ٢٤ - ٢٨

المعارك الحربيّة وهو يحاول استرداد جرجان، إذ كانت دولته قد استقرّت على طبرستان والديلم. وقد قتله والي خراسان محمّد بن هارون، واستولى على دولته. ولكنّ الخليفة العبّاسيّ السابع عشر: المكتفي (٢٨٩ هـ / ٩٠٢ م. ـ ٢٩٥ هـ / ٩٠٨ م.) أسر ابن هارون بعد ثلاث سنوات من قتل هذا الأخير محمّد بن زيد، وكان سبب أسره أنّه استقلّ عن الخلافة ولم يذعن لتهديداتها. وعادت طبرستان، وجرجان، والديلم، والريّ الى الحكم العبّاسيّ.

بقيت طبرستان حوالى ثلاثة عشر عاماً خارج إطار الحكم الشيعيّ، إلى حين ظهور الحسن بن عليّ بن الحسن بن عمر بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب المعروف بالأطروش، وبالنّاصر الكبير، وبالنّاصر للحقّ. وكان الأطروش عالماً وشاعراً ومؤلّفاً من أئمّة الشيعة الزيديّة، نشر الإسلام بين أهل الديلم على شواطئ بحر قزوين، فذهبوا مذهب التشيّع، واعتنقوا الزيديّة تحديداً.

ظهر الأطروش في سنة ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م. بعد أن كان قد قضى سنوات يدعو الناس الى الإسلام في بلاد الدّيلم. وإذ أساء العامل العبّاسيّ معاملة شيعة الديلم، قادهم الأطروش في هجوم عنيف شنّه على عاصمة طبرستان: آمل، واستولى على مجمل طبرستان والريّ، واستعاد السيطرة الشيعيّة على المناطق التي خضعت لحكم الحسن بن زيد وابنه محمّد. فانتقم بذلك لأقاربه من أهل بيت عليّ، وهو من كان قد قاتل مع محمّد بن زيد، فأصيب بضربة سيف على رأسه، ممّا سبّب له الصّمم، فلُقّب بالأطروش. وذكر المؤرّخون أنّ الحسن بن عليّ الأطروش، عدل في حكمه، ولم يرَ الناس مثله في عدله وحسن سيرته وإقامته الحقّ.

استمرّ حكم الحسن بن عليّ الأطروش لطبرستان ومحيطها أربع سنوات، انتهت بوفاته سنة ٣٠٤ هـ / ٩١٦م[١].

خلف الحسن بن عليّ الأطروش في حكم طبرستان، صهره الحسن بن القاسم

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٨١ ـ ٨٦ و ١٠٥؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٣٠٨ و ٣٧٣ ـ ٣٨٥؛ مغنيّة، ص ٢٨ ـ ٢٩

العلويّ الملقّب بالداعي. وهو من كان أعانه على استعادة طبرستان قبل أربع سنوات، وأظهر في القتال بطولة نادرة.

حاول الدّاعي توسيع رقعة دولته العلويّة، فأرسل في سنة ٣٠٨ هـ / ٩٢٠ م. عامله على الديلم: ليلى بن النعمان الدّيلمي، على رأس جيش بقصد الاستيلاء على نيسابور، ولكن ليلى قتل، وباءت المحاولة بالفشل.

استمرّ حكم الداعي لطبرستان والديلم والريّ وجوارها حتّى سنة ٣١٦ هـ / ٩٢٨ م. إذ تمكّن قادة العبّاسيّين الأتراك من انتزاعها منه، وقتْله بخلال هجوم عنيف شنّوه عليه، وقد تخلّى عنه جنوده لَما كان يأمر به من استقامة، ولمنعهم من تعاطي الخمور ومن ظلم الرعيّة، حتّى باتوا يبغضونه[١].

بمقتل الحسن بن القاسم الملقّب بالداعي، انتهت دولة العلويّين في طبرستان التي دامت زهاء خمسين سنة. وكان انتقام الأتراك من شيعة طبرستان رهيباً، إذ قتلوا قادتهم، واعتقلوا كبارهم، وسلبوا أغنياءهم، فندم بعضهم على تخلّيه عن الداعي، واضطر البعض الآخر إلى التخلّي عن تشيّعه لأهل البيت وعن مذهب الزيديّة.

دولة البُوَيهيّين

تعدّدت الروايات حول نسب آل بُوَيْه، بين قائلة بأنّهم ينتسبون إلى سلالة الملك يزدجرد بن هرمز من ملوك الفرس، وقائلة بأنّهم من سلالة شهريار آخر ملوك الفرس، ولكن ما من خلاف على أنّهم من سلالة ملوك فارس، وعلى أنّ الجدّ الأوّل لهذه الأسرة، هو أبو شجاع بُوَيه من سكّان الديلم، وكان رجلاً متوسّط الحال، ماتت زوجته تاركة له ثلاثة أولاد، اعتنى بتربيتهم وسط الفقر والعوز.

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٨٢ و ١٠٥ و ١٢٤؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٣٠٨ و ٣٨٣ ـ ٣٨٥؛ مغنيّة، و ص ٢٩ ـ ٣٠

والأولاد الثلاثة هم: أبو الحسن عليّ، وأبو العليّ حسن، وأبو الحسن أحمد. وقد تنبأ أحد المنجّمين لأبي شجاع بأنّ أولاده الثلاثة سيملكون الأرض ومَن عليها، ويعلو ذكرهم في الآفاق، ويولد لهم جماعة ملوك. فظنّ الرّجل أنّ المنجّم يسخر منه، فأمر أطفاله بصفعه، فصفعوه.

كان ذلك في بداية القرن الرابع للهجرة.

بيدَ أنّ نبوءة المنجّم لم تكن كاذبة تماماً. فقد صدق الجزء الأكبر منها، وإن لم يملك البويهيّون الأرض ومن عليها، إنّما هم ملكوا دولة شيعيّة أخرى، دامت أكثر من ١٢٠ سنة (٩٣٢ ـ ١٠٥٥) طالت أصفهان وشيراز وكرمان، وأحياناً بغداد. وغدا أمير المؤمنين ألعوبة بيد البويهيّين إلى أن غلبهم السلطان السلجوقيّ طغرل بك سنة ١٠٥٥.

بدأ الشبّان الثلاثة كفاحهم بانضمامهم إلى حركة شيعيّة زيديّة في بلاد الدّيلم، بقيادة بعض أنصار الدولة العلويّة التي انتهى أمرها بمقتل الحسن بن القاسم الدّاعي، وكان على رأس تلك الحركة رجل ديلميّ اسمه مارداويج. ولقّب أبو الحسن عليّ نفسه بعماد الدولة، وأبا عليّ الحسن بركن الدولة. وسرعان ما احتلّ الرجلان وأخوهم عليّ مكانة مرموقة عند مارداويج، الذي قلّد كلاًّ منهم ناحية من نواحي الدّيلم، وكانت ناحية أبي الحسن أحمد: كَرْج.

أحسن الإخوة الثلاثة حكم المناطق التي وُلّوا عليها، حتّى أحبّهم الناس، وانضووا تحت ألويتهم. وسرعان ما راحوا يتعاونون على الحكم، والقتال، فاستولوا على أصبهان، ممّا أقلق الخليفة العبّاسي من جهة، وأرعب مارداويج نفسه من جهة أخرى، فشنّ هذا الأخير حملة على أصبهان اتّقاها البويهيّون بالانتقال إلى أرّجان واحتلالها، ثمّ راحوا يشنّون الغزوات على النوبندجان وكازرون وغيرهما من بلاد فارس، حتّى جنوا أموالاً كثيرة، وباتوا قبل نهاية ٣٢١ هـ / ٩٣٣م. في وضع قياديّ ممتاز. وفي بداية السنة التالية، استولوا على شيراز حرباً.

بعد هذا التقدّم السّريع، أُطلق على أبي الحسن أحمد من أبناء بويه لقب معزّ الدولة، وكلّفه أخواه بالسير إلى كرمان، وامتلاكها، وزوّداه بجيش ومال لهذه الغاية. وبخلال سيره، استولى على السيرجان، وعلى بمّ وجيرفت، رغم إصابته بجروح بليغة، منعته من الوصول إلى كرمان. غير أنّه في السنة التالية (٣٢٦ هـ / ٩٣٧ م.) قاد حملة على الأهواز فاحتلّها. وبعد سنتين، تمكّن أخوه ركن الدولة من استعادة أصبهان. وفي ٣٣٠ هـ / ٩٤١م. سار ركن الدولة وأخوه عضد الدولة البديهيّان إلى الريّ واستوليا عليها وأخضعاها لدولة البويهيّين. وبعد سنتين سقطت واسط بيد أخيهما الثالث معزّ الدولة. وفي ٣٣٤ هـ / ٩٤٥م. استولى على بغداد، سلماً، إذ أمر الخليفة العبّاسي الثاني والعشرون: المستكفي، بعدم مقاومته. بل إنّ هذا الخليفة العبّاسي هو الذي ثبّت له لقب معزّ الدولة، وثبّت لأخويه لقبي عماد الدولة وركن الدولة، وأمر أن تُضرب ألقابهم وكناهم على الدنانير والدراهم. ويظهر من ذلك أنّ المستكفي (٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م. ـ ٣٣٤ هـ / ٩٤٦م.) قد استعان ببَني بويه على القادة الأتراك الذين كانوا قد سيطروا على الخلافة. بيدَ أنّ معزّ الدولة أطاح المستكفي بعد حين، فخلفه المطيع (٣٣٤ هـ / ٩٤٦ م. ـ ٣٦٣ هـ ٩٧٤ م) ومنذ ذلك الحين، سيطر البويهيُّون على الخلافة العبّاسيّة سيطرة تامة، فلم يبقَ للخليفة وزير، إنّما كان له كاتب، يدبّر إقطاعه وإخراجاته لا غير. وكان من أعظم الأسباب في ذلك «أنّ أهل الدّيلم كانوا يتشيّعون ويغالون في التشيّع، ويعتقدون أنّ العبّاسيّين قد غصبوا الخلافة وأخذوها من مستحقّيها... ويبدو أنّ معزّ الدولة قد استشار جماعة من خواصّ أصحابه في إخراج الخلافة من العبّاسيّين والبيعة للمعزّ لدين الله العلويّ، أو لغيره من العلويّين، ولكنّ خواصّه نصحوه بعدم الإقبال على مثل هذه المخاطرة».

تسلّم معزّ الدولة العراق بأسره، ولم يبقَ بيد الخليفة منه شيء، «إلاّ ما أقطعه معزّ الدولة ممّا يقوم ببعض حاجته». ففي ٣٣٦ هـ / ٩٤٨م. احتلّ معزّ الدولة البصرة، وفرض ضريبة على الموصل.

في هذه الأثناء، سار أخوه ركن الدّولة إلى طبرستان فملكها، وكذلك فعل بجرجان.

ولمّا توفّي عماد الدولة أبو الحسن عليّ بن بويه بمدينة شيراز في ٣٣٨ هـ / ٩٥٠ م. بسبب قرحة مزمنة في كليته، سلّم القيادة إلى ابن أخيه ركن الدولة، واسمه فنّاخسرو، ولقّبه عضد الدولة. بيدَ أنّ «إمارة الأمراء» قد انتقلت من عماد الدولة، بفارس، إلى أخيه ركن الدولة.

في هذه الحقبة، أضحت الخلافة العبّاسيّة، واقعاً، بيد البويهيّين بعد أن أحكم معزّ الدولة قبضته على مركزها بغداد، وأصبح القادة الأتراك يعملون بأمرته مع جنودهم. وقد أظهر معزّ الدولة تشيّعاً رسميّاً، بعد أن بنى داراً عظيمة له في المدينة التي جعلها مركز حكمه. فقبل نهاية سنة ٣٥٣ هـ / ٩٦٣ م. أمر في الثامن عشر من ذي الحجّة، «بإظهار الزينة في البلد، وأُشعلت النيران بمجلس الشرطة، وأُظهر الفرح، وفتحت الأسواق بالليل، كما يُفعل ليالي الأعياد، وقد فعل ذلك فرحاً بعيد الغدير، يعني غدير خمّ، وضُربت الدبادب والبوقات، وكان يوماً مشهوداً». وكان قبل سنة من ذلك التاريخ، قد أمر العامّة ببغداد بأن يكتبوا على المساجد العبارة التّالية:

«لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من غصب فاطمة رضي الله عنها فدكا، ومن منع أن يُدفن الحسن عند قبر جدّه عليه السلام، ومن نفى أبا ذرّ الغفاريّ، ومن أخرج العبّاس من الشورى».

وإذ كادت هذه الكتابة أن توقع فتنة طائفيّة في بغداد لمّا قام بعضهم بـ «حكّها» ليلاً، وقد عزم معزّ الدولة على إعادة كتابتها، أشار عليه مستشاروه بأن يستبدل بالعبارة أخرى أقلّ إثارة، فاقتنع بالنصيحة، وأحلّ مكانها عبارة «لعَنَت الظالمين لآل رسول الله صلعم، واكتفت بلعن معاوية دون سواه».

وعندما حلّ العاشر من محرّم، أمر معزّ الدولة الناس أن «يغلقوا دكاكينهم،

ويبطّلوا الأسواق والبيع والشّراء، وأن يظهروا النياحة، ويلبسوا قباباً عملوها بالمسوح، وأن يخرج النساء منشّرات الشعور، مسوّدات الوجوه، قد شقّقن ثيابهنّ، يدرن في البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههنّ على الحسين بن عليّ. ففعل الناس ذلك، ولم يكن للسنّة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة، ولأنّ السلطان معهم».

ولم يمضِ وقت طويل حتّى استولى معزّ الدولة على عُمان التي ظهرت دراهمها سنة ٣٥٥ هـ / ٩٦٥ م. واسمه على دنانيرها.

إلاّ أنّ معزّ الدولة مات أثناء محاولته الاستيلاء على واسط، فاضُطر قادته على أن يصالحوا واليها عمران بن شاهين دون الاستيلاء على هذه المنطقة العراقيّة الواقعة بين البصرة والكوفة، ومدينتها التي أسّسها الحجّاج بن يوسف الثقفيّ قبل مائتين وستّين سنة من ذلك التاريخ[1].

هذا الجبّار الذي دوّخ العبّاسيّين والأتراك، أحد الإخوة العصاميّين الثلاثة من أبناء بويه، قد قضت عليه جرثومة، ما فرّقت بين صعلوك وسلطان، فمات بمرض الزحار سنة ٣٥٦ هـ / ٩٥٦ م. بخلال حربه على واسط. ولمّا شعر بدنّو أجله، قفل عائداً إلى قصره ببغداد، وهناك، سارع إلى التصدّق بأكثر ماله، واعتق مماليكه، وردّ شيئاً كثيراً على أصحابه.

وكان معزّ الدولة قبل ذلك التاريخ بثلاث سنوات قد عيّن ابنه بختيار وليّاً لعهده، وسلّم جميع ماله إليه، وأوصى قادته به. وهكذا خلف بختيار والده، وتكنّى بعزّ الدولة.

---

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٦٤ ـ ٢٧٢ و ٢٧٥ ـ ٢٧٨ و ٣٢٤ ـ ٣٢٦ و ٣٤٠ ـ ٣٤٣ و ٣٦٠ و ٤١٧ و ٤٥٠ ـ ٤٥٢ و ٤٦٩ ـ ٤٧٠ و ٤٨٢ ـ ٤٨٤ و ٥١٠ ـ ٥١٢ و ٥٣٤ و ٥٤٢ ـ ٥٥٨ و ٥٦٥ ـ ٥٧٤؛ مغنيّة، ص ٣٤ ـ ٤٠ ؛ السيّد مير عليّ، مختصر تاريخ العرب، (١٩٣٨) ص ٢٦٠ وما يليها.

خالف عزّ الدولة، على ما يبدو، جميع وصايا أبيه، القائلة بوجوب طاعة عمّه ركن الدولة واستشارته في كلّ مايفعله، وبطاعة عضد الدولة ابن عمّه لأنّه أكبر منه سنّاً وأقدم بالسياسة، ووصّاه بتقرير كاتبَيه أبي الفضل العبّاس بن الحسين وأبي الفرج محمّد بن العبّاس لكفايتهما وأمانتهما، ووصّاه بالدّيلم والأتراك وبالحاجب سبكتكين... فذهبت كلّ هذه الوصايا أدراج الرياح، وانصرف عز الدولة إلى اللهو واللعب ومعاشرة النساء والمساخر والمغنّين، وجافى كاتبَي أبيه وحاجبه الأمين فقاطعوه، ونفى كبار الديلّم عن مملكته طمعاً بإقطاعاتهم وأموالهم وأموال المتّصلين بهم، فكان عليه بعد ذلك أن يواجه نقمة هؤلاء ونقمة الأتراك. وسرعان ما نشبت الفتنة في بغداد بين السنّة والشيعة، وأصبحت المدينة عرضة للنهب والسلب وفقدان الأمن. وبقي عزّ الدّولة بختيار لا يهتمّ إلاّ بنفسه. واضطره الضعف والقلّة إلى الركون الى الدسائس، فزاد وضعه سوءاً مع قادته وحلفائه ورعيّته، ممّا أدّى إلى ثورة قادتِه الأتراك عليه في ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م. فناصر سنّة بغداد هؤلاء القادة لأنّهم كانوا سنّة، بينما ناصر شيعتها عزّ الدولة، فوقعت الاضطرابات وسُفكت الدماء بغزارة. وبدأ السنّة يظهرون الغلبة على الشيعة يوماً بعد يوم. ولم تنفع محاولات ركن الدولة، عمّ عزّ الدولة في نجدة ابن أخيه، أمّا ابن عمّه: عضد الدولة، فراح يتحيّن الفرص للانقضاض عليه طمعاً بحكم العراق. وبالفعْل، فقبل نهاية هذه السنة، كان وضع عزّ الدولة قد قارب الانهيار تماماً، فسار ابن عمّه عضد الدولة نحو العراق، متظاهراً بنجدته، غير أنّه في الواقع، كان قاصداً إزاحته والاستيلاء على إمارته.

تمكّن عضد الدولة من دخول بغداد بعد عبور الفرات وتغلّبه على الأتراك وأعوانهم السنّة، فانتزع الخليفة العبّاسيّ الطائع من بين أيديهم، وكانوا قد اتخذوه رهينة، وأعاده إلى دار الخلافة، واستقرَّ في قصر ابن عمّه، دون أن يُظهر نيّته بالاستيلاء على العراق خوفاً من أبيه ركن الدّولة، فراح يحرّض جند ابن عمّه عليه، ويحرّضه، في الوقت نفسه، عليهم وعلى إخوته، إلى أن رأى عزّ الدولة:

بختيار، عاجزاً عن الحكم، فاستعفى، وآلت القيادة إلى ابن عمّه الداهية: عضد الدولة.

كان لهذا التطوّر فعل بدء التناحر في الدولة البويهيّة بسبب الصراعات التي ستنشأ بين أفراد الأسرة البويّهيّة. وقد أدرك أحد الأشقّاء الثلاثة مؤسّسي الدولة، وهو الوحيد الباقي على قيد الحياة: ركن الدولة، أدرك خطورة ما بدأ يجري، وإذ بلغه ما فعله ابنه عضد الدولة، «ألقى نفسه عن سريره إلى الأرض وتمرّغ عليها، وامتنع عن الأكل والشرب عدّة أيّام، ومرض مرضاً لم يشفَ منه باقي حياته». وبخلال مرضه، أمر ركن الدولة ابنه عضد الدولة بإعادة العراق إلى ابن عمّه (ابن شقيق ركن الدولة) بختيار عزّ الدولة، فانصاع عضد الدولة على مضض، وراح ابنا العم ينتظران موت شيخ البويهيّين ركن الدولة، ليتناقما.

وبالفعل فمع مستهل سنة ٣٦٦ هـ / ٩٧٦ م. مات ركن الدولة، مستخلفاً على ممالكه ولده عضد الدولة، وجعل الولايات لأبنائه الآخرين، موصياً إيّاهم بالاتفاق وترك الاختلاف.

وصف المؤرّخون هذا العصاميّ البويهيّ الجليل بأنّه كان حليماً واسع الكرم، كثير البذل، حسن السياسة لرعاياه وجنود، رؤوفاً بهم، عادلاً في الحكم بينهم، وكان بعيد الهمّة، عظيم الجدّ، متحرّجاً من الظلم، مانعاً لأصحابه منه، عفيفاً عن الدماء، يرى حقنها إلاّ فيما لا بدّ منه؛ وكان يحامي على أهل البيوتات، وكان يجري عليهم الأرزاق، ويصونهم من التبذّل، وكان يقصد المساجد الجامعة، في أُشهر الصيام، للصلاة، وينتصب لردّ المظالم، ويتعهّد العلويّين بالأموال الكثيرة، ويتصدّق بالأموال الجليلة على ذوي الحاجات، ويليّن جانبه للخاصّ والعامّ.

ما أن تسنّم عضد الدولة عرش الدولة البويهيّة بعد موت أبيه، حتّى سار إلى العراق لينتقم من ابن عمّه عزّ الدولة، وليحقّق أمنيته القديمة بالاستيلاء على بلاد الرّافدين، فلاقاه عزّ الدولة إلى الأهواز، حيث كانت الواقعة، فدارت الدوائر على عزّ الدولة.

احتلّ عضد الدولة البصرة بسهولة، وفي السنة التالية، استولى على بغداد، ثمّ أمر بقتل ابن عمّه عزّ الدولة بعدما قبض عليه في إحدى المعارك[1].

تُمثّل شخصيّة هذا القائد شخصيّة القادة الطموحين الأفذاذ، الذين لا يدعون أيّ مانع أو عائق أو حائل يعوق طموحاتهم. فبعد سيطرته على البلاد التي كان يسودها ابن عمّه، وسّع عضد الدّولة السلطنة التي ورثها عن أبيه وعمّيه، حتّى أخضع المناطق الممتدّة من الخزر إلى كرمان وعُمان، ولقّب نفسه بشاهنشاه (ملك الملوك) لأوّل مرّة في تاريخ الإسلام، وقد بقي هذا اللقب لمن جاء بعده من ملوك الفرس. وكان يعنى بمعرفة الأخبار وسرعة وصولها، فكانت تصل من بغداد إلى شيراز في سبعة أيّام. وأحكم نظام الجاسوسيّة والمخابرات، حتّى غدت أخبار الدنيا بين يديه، بفضل الجواسيس الذين دسّهم بين الملوك، فأصبح الناس في مصر يحترزون من ذكر اسمه. وقد طهّر السبل من اللصوص، ومحا أثر قطّاع الطرق، ومن أعماله أنّه دسّ على اللصوص في إحدى القوافل بغلة تحمل حلوى مسمومة فأكلوا منها وهلكوا؛ فأعاد النظام إلى صحراء جزيرة العرب، وصحراء كرمان بعد أن كانت قد أضحت مُخيفة. فتحقّق الأمن، وأقام للحجّاج سبل المياه على الطريق، واحتفر لهم الآبار، واستفاض الينابيع، وأدار السور على مدينة الرسول، وأمر بإعادة بناء دور بغداد وأسواقها، منشئاً ما يشبه مؤسّسة للتسليف العقاريّ عن طريق بيت المال. ثمّ إنّه حضّر كثيراً من أهل البادية، فزرعوا وعمّروا. وشيّد المستشفيات، وأمر بإدارة أرزاق الأوقاف واستثمارها بعد أن أصلح المساجد، وتجاوزت صدقاته أهل الإسلام إلى أهل الذمّة. كان يتصدّقُ في كلّ جمعة بعشرة آلاف درهم على الضعفاء والأرامل، ويصرف في كلّ سنة ثلاثة آلاف دينار ثمن أحذية للحفاة من الحجّاج، وعشرين ألف درهم كلّ شهر لتكفين الموتى. واستحدث

1 ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٣٥٦ ـ ٣٥٨ و ٦١٩ و ٦٣٦ و ٦٤٩ ـ ٦٥٢ و ٦٦٩ ـ ٦٧٣ و ٦٨٩ ـ ٦٩٠

ثلاثة آلاف مسجد وخان للغرباء في مملكته، ولم يمرّ بماء جار إلاّ بنى عنده قرية. وكان ينفق على أهل مكّة والمدينة وطرقهما ومصالحهما مئة ألف دينار كلّ سنة. وكان يبذل مالاً كثيراً على بناء المصانع، وتنقية الآبار. ويُعطي سكّان المنازل التي في الطرقات ليقدّموا العلف لدواب المسافرين. وكان، إضافة إلى كلّ ذلك، يشجّع العلم والعلماء، ويُجري الأرزاق على الفقهاء والمحدّثين والمتكلّمين والمفسّرين والنحاة والشعراء، إضافة إلى الأطبّاء والحسّاب والمهندسين. وأفرد لأهل العلم والاختصاص والحكماء موضعاً بقرب مجلسه، وأنشأ مكتبة تحتوي على كلّ كتاب صُنّف إلى وقته من جميع أنواع العلوم[1].

وهو أوّل من أظهر قبر الإمام عليّ بن أبي طالب في النّجف وبنى عليه. وقد أوصى بأن يُدفن في جوار عليّ في هذا المشهد الذي بناه. وبالفعل، فقد دُفن عضد الدولة حيث أراد، إذ مات سنة ٣٧٢ هـ / ٩٨٢م[2].

بعد أن أتمّ كلّ هذه الإنجازات بخلال ستّ سنوات فقط، ذلك أنّه تسنّم منصب الحكم في ٣٦٦ هـ / ٩٧٦م. وقد كان عازماً على القيام بمشروعات كثيرة عاجلته المنية، بسبب مرض الصرع، ولم يتجاوز عمره السابعة والأربعين. وقد شبّهه أهل زمانه من العلماء بالاسكندر[3]. وممّا قيل فيه عند موته!

لقد شغرت الدنيا بوفاته.

***

بعد موت عضد الدّولة، تفكّكت الدولة البويهيّة بسبب المنازعات التي نشأت بين أفراد الأسرة، وخاصة بين الأشقّاء. وقد دامت الدولة، وحروبها

1 ـ مغنّيّة، دول الشيعة في التاريخ، ص ٤١ ـ ٤٥ نقلاً عن: آدم متز، الحضارة الإسلاميّة في القرن الرابع الهجري، تعريب محمّد عبد الهادي أبي ريدة.
2 ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ١٩
3 ـ الغنّاوي، الأدب في ظلّ بني بويه (٩٤٩ هـ) ص ١٢٧؛ السيّد مير عليّ، مختصر تاريخ العرب، ص ٢٦٢؛ مغنّيّة، دول الشيعة في التاريخ، ص ٤٦ ـ ٥٦

الداخليّة، حتّى سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م. بعد تعاقب سبعة ملوك على المملكة الشاسعة التي تركها عضد الدولة، هم: صمصام الدولة وشرف الدولة (٣٧٢ هـ / ٩٨٢ م. ـ ٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م.) بهاء الدّولة (٣٧٩ هـ / ٩٨٩ م. ـ ٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م.) سلطان الدّولة (٤٠٣ هـ / ١٠١٢ م. ـ ٤١٦ هـ ١٠٢٥ م.) جلال الدّولة (٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م. ـ ٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م.) أبو كاليجار (٤٣٥ هـ / ١٠٤٣ م. ـ ٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م.) الملك الرحيم (٤٤٦ هـ / ١٠٥٤ م. ـ ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م.).

وكانت نهاية دولة البويهيّين على يد طغرلبك السلجوقيّ الذي دخل مدينة بغداد سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م. واستولى عليها، وقبض على الملك الرحيم، وسجنه في إحدى القلاع، بعد أن دامت الدولة البويهيّة حوالى قرن وربع (٣٢١ هـ / ٩٣٢ م. ـ ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م).. وقد ناصر البويهيّون مذهب التشيّع إلى أقصى حدّ، وكان الغالب في بغداد، قبل أن تصبح عاصمة بويهيّة، المذهب السنّي، بينما غلب فيها بعهدهم مذهب التشيّع الذي شهد إذ ذاك انتشاراً ملحوظاً في العراق.

دولة الحمدانيّين

نادراً ما اعتبر المؤرّخون أنّ الدولة الحمدانيّة هي دولة شيعيّة بالمعنى الواضح للكلمة، وإن كان أكثر مؤرّخي الشيعة قد صنّفوها كذلك. ولكنّ الثابت هو أنّ هذه الدولة قد شهدت هجرة جليّة لعلماء الشيعة إليها، وأشهرهم الشريف أبو إبراهيم جدّ بني زهرة، الذي انتقل إلى حلب في عهد سيف الدولة الحمدانيّ (٣٠٣ ـ ٣٥٦ هـ / ٩١٥ ـ ٩٦٥ م.) فتحوّل بعض أهلها من السنّة الحنفيّة إلى التشيّع[1]. وكان المؤذّنون في مساجد المدن الواقعة تحت حكم الحمدانيّين يؤذّنون بحيّ على خير

١ ـ محمّد كرد عليّ، خطط الشام، (دمشق ١٩٢٥) ص ٢٥٨

العمل. وفي سنة ٣٥٤ هـ / ٩٦٤ م. ضرب سيف الدولة دنانير جديدة كتب عليها: «لا إله إلاّ الله ومحمّد رسول الله أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب فاطمة الزهراء الحسن والحسين جبريل عليهم السلام[1]».

وقد اعتبر بعض المستشرقين، ومنهم بروكلمان Brockelmann الألماني في «تاريخ الشعوب الإسلاميّة» أنّ الحمدانيّين إنّما اتبعوا مذهب التشيّع إرضاء للفاطميّين[2]. ولكنّ من يتعمّق في دراسة الحمدانيّين يجد أنّهم كانوا من الشيعة الاثني عشريّة، وليس من الإسماعيليّة التي كانت مذهب الفاطميّين؛ وأوضح دليل على اثني عشريّة الحمدانيّين، هو ما جاء في شعر كبير شعرائهم أبي فراس الحمداني (٩٣٢ ـ ٩٦٨) ابن عمّ سيف الدّولة الذي قلّده إمارة منبج؛ فقد نظم هذا الشاعر الحمدانيّ قصيدة ميميّة طويلة جعل مقدّمتها مشحونة بالعطف على أهل البيت، وهاجية للعبّاسيّين لأنّهم لم يراعوا حرمة آل عليّ، ثمّ مدح أئمّة الاثني عشريّة. وفي قصيدة ثانية، صرّح بمذهبه الاثني عشريّ بوضوح، إذ عدّد فيها الأئمّة الاثني عشر على أنّهم أئمّة مذهبه إذ قال:

لست أرجو النجاة من كلّ ما أخشاه إلاّ بأحمد وعليّ
وبنت الرسول فاطمة الطهر وسبطَيه والإمام عليّ
والتقيّ النقيّ باقر علم الله فينا محمّد بن عليّ
وابنه جعفر وموسى ومولانا عليّ أكرم به من عليّ
وأبي جعفر سميُّ رسول الله ثمّ ابنه الزكيّ عليّ
وابنه العسكريّ والمظهر حقّي محمّد بن عليّ
فيهم أرتجي بلوغ الأماني يوم عرضي على مليكي عليّ.

وفي أبيات أخرى، يتوسّل الشاعر الشفاعة بمحمّد وفاطمة والأئمّة الإثني عشر:

١ ـ مغنيّة، دول الشيعة، ص ٩٣
٢ ـ بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلاميّة، ترجمة منير البعلبكي (بيروت ١٩٥٤) ص ٨٩

شافعَيّ أحمد النبيّ ومولاي عليّ والبنت والسبطان
وعليّ وباقر العلم والصادق ثمّ الأمين ذو التبيان
وعليّ ومحمّد بن عليّ وعليّ والعسكريّ الداني
والإمام المهديّ في يوم لا ينفع إلاّ غفران ذي الغفران[1] .

***

أسّس الدولة الحمَدانيّة حمَدان بن حمدون شيخ قبيلة تَغلِب من بطون ربيعة بن نزار. وكان هؤلاء من نصارى العرب في الجاهليّة.

كان حمدان أميراً على قلعة ماردين قرب الموصل من قبل العبّاسيّين. وفي عهد المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م.) مال حمدان إلى الخوارج، فسار إليه الخليفة العبّاسيّ وهدم قلعته بعد أن سارع حمدان بالانتقال إلى قلاع أخرى بقرب الموصل، فتبعه المعتضد حتّى ظفر به بعد مطاردة طويلة[2] .

بعد موت المعتضد، ولّى المكتفي سنة ٢٩٣ هـ / ٩٠٥ م. ابن حمَدان: عبد الله، الموصل، فتمكّن من ضبطها بعد تغلّبه على الأكراد[3] .

ونلتقي بابنٍ آخر لحمدان بعهد المقتدر، هو الحسين بن حمَدان، وقد خرج على طاعة الخليفة العبّاسيّ بالجزيرة. وبنتيجة ملاحقة المقتدر له سنة ٣٠٣ هـ / ٩١٥ م. قُبض على الحسين وإخوته وحُبسوا، وقُتل ابن الحسين في آمد إذ هرب مع إخوته إلى هناك، وأُرسل رأسه إلى الخليفة ببغداد، بينما بقي عبد الله متولّياً الموصل التي راح يحكمها من بغداد، وينوب عنه بالموصل ولده ناصر الدولة[4] ، وذلك في أحداث سنة ٣١٤ هـ / ٩٢٦ م. إذ يظهر اسم ناصر الدولة لأوّل مرّة في المدوّنات.

---

١ ـ مصطفى الشكعة، فنون الشعر في مجتمع الحمدانيّين؛ مغنيّة، ص ٩٥ ـ ١٠٠
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٦٦ و ٤٦٩؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٣٤٦
٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٣٨ ـ ٥٤٠
٤ ـ المرجع السابق، ج ٨ ص ٩٣ ـ ٩٤ و ١٦٣

بعد أربع سنوات من ذلك التاريخ (٣١٨ هـ / ٩٣٠ م) وكان لا يزال العهد للخليفة العبّاسيّ الثامن عشر: المقتدر (٢٩٥ ـ ٣٢٠ هـ / ٩٠٨ ـ ٩٣٢ م.) عُزل ناصر الدّولة الحسن بن عبد الله بن حمدان عن الموصل ووُلّيها عمّاه: سعيد ونصر ابنا حمَدان، بينما وُلّي ناصر الدّولة ديار ربيعة، ونصيبين، وسنجار، والخابور، ورأس عين، ومعها من ديار بكر ميفارقين، وأرزن، وذلك لقاء مبلغ مقطوع من المال[1] . غير أنّ ناصر الدّولة عاد واستولى على الموصل بعد أن قتل رجاله، بأمر منه، أحد عمّيه الواليَين عليها. حدث ذلك سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤م. بعهد الخليفة العبّاسيّ الراضي[2] .

أحكم ناصر الدولة قبضته على الموصل بعد عدّة وقعات بينه وبين القادة الأتراك في الخلافة العبّاسيّة، حتّى تمكّن منهم، سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤١ م. في عهد الخليفة العبّاسي الحادي والعشرين: المتّقي (٣٢٩ ـ ٣٣٣ هـ / ٩٤٠ ـ ٩٤٤ م.) الذي اعتمد لقب ناصر الدّولة للحسن بن عبد الله الحمَدانيّ، ولقّب أخاه أبا الحسن عليّاً بسيف الدولة. حتّى إنّ المتّقي جعل ناصر الدّولة «أميراً للأمراء[3] ». وبدا أنّ ذلك قد كان إيذاناً بقرب سطوع نجم الحمدانيّين، إذ منذ ذلك التاريخ، أصبح ناصر الدّولة وأخوه سيف الدّولة وبعض أقربائهما، يشكّلون القوّة العمليّة في قصر الخليفة وممالكه، خاصة في حروب المتّقي مع البريديّين. إلاّ أنّ القائد التركيّ المملوكيّ توزون، استطاع أن ينتزع بغداد من الحمدانيّين، وأن يطيح الخليفة سنة ٣٣١ هـ / ٩٤٢ م. بينما بقيت المناطق الأخرى خاضعة للحمدانيّين[4] ، وقد لجأ إليها الخليفة قبل أن يعود إلى بغداد ليُطيحه توزون. وقد بقيت الموصل بأيدي الحمدانيّين حتّى سنة ٣٦٧ هـ / ٩٨٧ م. إذ انتزعها منهم البويهيّون على يد عضد الدّولة.

---

١ ـ المرجع السابق، ج ٨ ص ٢١٦
٢ ـ المرجع السابق، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٣٤٠
٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ و ٣٨٢ ـ ٣٨٣
٤ ـ المرجع السابق، ص ٣٨٤ و ٣٩٤ و ٣٩٦ ـ ٣٩٩

بينما كان أبناء ناصر الدّولة، الذي توفي سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م. يتنازعون الموصل، كان شقيق ناصر الدولة: سيف الدّولة، يحلم بما هو أهمّ من ولاية أو إمارة، فاتّجه بطموحه نحو حلب، التي كانت تترجّح بين حكم الخليفة العباسيّ في بغداد، والأخشيديّين في مصر ودمشق، وهي على حدود الأعداء الأساسيّين: البيزنطيين. فراح يتحيّن الفرصة.

ويبدو أنّ هذه الفرصة قد حانت في أواخر سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م. إذ سار سيف الدّولة بجيشه إلى حلب، وانتزعها من يد والي الأخشيديّين بدون مقاومة تذكر. ومن حلب، سار سيف الدّولة إلى حمص التي استولى عليها هي الأخرى بعد قتال قصير، ولكنّه عجز في هذه الحقبة عن الاستيلاء على دمشق التي امتنعت عليه رغم حصارها لبعض الوقت. وتمكّن سيف الدّولة من الإبقاء على سيطرته على حلب وحمص رغم قتاله الطامحين بهما على ثلاث جبهات: العبّاسيّين، والأخشيديّين والبيزنطيين[1]. ثمّ بعد وقت قصير، عُقد صلح بين سيف الدّولة والأخشيديّين، نصّ على أن تكون حلب وحمص وإنطاكية للحمدانيّين، ودمشق للأخشيديّين. وإذ كان الأخشيديّون من أهل السنّة، كثر التسنّن في دمشق، بينما كثر التشيّع في شمال الشام بعهدهم[2]. وقد تمكّن هذا المحارب الفذ من القضاء على فتن داخليّة كثيرة نشبت بحلب خلال حكمه، فكان يردّ تلك الفتن بيد، ويغزو بلاد الروم ويردّ الهجمات الخارجيّة للطامعين باليد الثانية، وقد استمرّ هذا الوضع على حاله حتّى وفاته سنة ٣٥٦ هـ / ٩٦٥ م. بمرض الفالج، فملك بلاده بعده ابنه أبو المعالي الشريف الملقّب بسعد الدّولة، بعد حروب ومنازعات مع خاله أبي فراس، ثم مع حاجبه قرغويه. واستقرّت له الأمور في عهد الخليفة العبّاسيّ، الطائع (٣٦٣ ـ ٣٨١ هـ / ٩٧٤ ـ ٩٩١ م.) وقد أكمل سعد الدّولة نهج أبيه، وصمد في وجه الروم وهزمهم، حتّى توفّي بالفالج كأبيه سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م. وهو على أرض المعركة

١ ـ المرجع السابق، ص ٤٤٥ ـ ٤٤٦
٢ ـ كرد عليّ، خطط الشام، ج ١ ص ٢١٨

بخلال تمرّد أحد قوّاده الذي انحاز إلى الفاطميّين[1]، إلاّ أنّه كان قد خسر حكم إنطاكية أمام الروم.

خلف سعد الدّولة ابنه أبو الفضائل الملقّب بسعيد الدّولة، فاضطر إلى محاولة الاستعانة بالروم ضدّ الفاطميّين الذين حاولوا الاستيلاء على ملكه كما فعلوا بعهد أبيه، ولكنّ النجدة البيزنطيّة لم تصل إليه بسبب قطع الطريق عليها من قبل الفاطميّين[2]. وهكذا سقطت المملكة الحمَدانيّة التي كانت تضمّ حلب وحمص، بيد الفاطميّين سنة ٣٨١ هـ / ٩٩١ م.

لا شكّ في أنّ أبرز وجوه الدّولة الحمَدانيّة إنّما هو سيف الدّولة، الذي حقّق انتصارات عسكريّة باهرة، وقد ازدهرت في عهده الآداب والعلوم، فنبغ في بلاطه المتنبيّ وأبو فراس الحمدانيّ[3]، وأبو نصر الفارابي الفيلسوف، وإليه قدّم أبو الفرج الأصفهانيّ كتاب الأغاني.

أمّا إخوة سيف الدّولة، فكانوا قد فقدوا سلطتهم على الموصل إثر منازعات دامية فيما بينهم، ممّا أدّى إلى إضعافهم وانهيار حكمهم في حوالى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م.

وبزوال الدّولة الحمدانيّة، بدأت الإثنا عشريّة بالضعف في بلاد الشام، وفُتح الباب واسعاً أمام الإسماعيليّة التي بلغت أوج انتشارها في عهد الخلافة الفاطميّة.

١ ـ المرجع السابق، ج ٩ ص ٨٥ ـ ٩٠
٢ ـ المرجع السابق، ص ٩٠
٣ ـ قتل أبو الفراس على يد أبي المعالي، ابن سيف الدّولة، وهو ابن أخت أبو الفراس، بسبب «وحشة وقعت بينهما»؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٥٨٨

الفصل العاشر

القرامطة

- ظهور القرامطة
- الثوريّة القرمطيّة
- أبو طاهر الجنابيّ
- النهاية القرمطيّة
- القرمطيّة: اشتراكيّة شيوعيّة مبكّرة

قد يكون البحث في حقيقة القرامطة من أكثر الأبحاث تعقيداً في مجال المجتمعات الإسلاميّة وفرقها. وممّا زاد في تعقيدات البحث، سيل الآراء المتناقضة حول أصل القرامطة ومعتقدهم وارتباطهم بالإسماعيليّة. إنّما الثّابت هو أنّ القرامطة هم من الشيعة المتطرّفة، تصلهم صلة النسب بالإسماعيليّة والفاطميّين. أمّا نسبهم: القرامطة، فيعود إلى فلاّح عراقيّ اسمه حمدان قرمط[١].

ويُجمع المؤرّخون على أنّ دخول حمدان قرمط في الدعوة جاء على يد داعية شيعيّ اسمه حسين الأهوازي، توجّه إلى سلميّة[٢] بعد أن سكن المكان المعروف بعسكر مكرم، ثمّ تحوّل إلى البصرة. ومن سلميّة، التي كانت مركز أئمّة السبعيّة، توجّه الأهوازي إلى العراق داعيةً، فصادف بطريقه في سواد الكوفة حمدان بن الأشعث، فسأله عن الطريق إلى قرية يُقال لها «قس بهرام» فتبيّن له أنّ حمدان أيضاً يقصد هذه القرية، فترافق الرجلان، وإذ عرض حمدان على الأهوازيّ أن يركب ثوره، أبى، قائلاً أنّه لم يؤمَر بذلك، ممّا أدهش حمدان الذي تساءل عمّن يأمره وينهاه؟ فأجابه الأهوازيّ: «مالكي ومالكك ومن له الدنيا والآخرة»، وبعد تفكير، نظر حمدان إلى الأهوازيّ وتساءل: «ما هذا؟ ما يملك ما ذكرته إلاّ الله!» ـ قال: «صدقت. والله يهب ملكه لمن يشاء!» ـ قال حمدان: «فما تريد في القرية التي سألتني عنها؟» ـ قال: «دُفع إليّ جراب فيه علم وسرّ من أسرار الله، وأُمرت أن أشفي هذه القرية وأغني أَهلها وأَستنقذهم وأُملّكهم أملاك أصحابهم».

وبعد أخذ ورد، طلب حمدان من الأهوازيّ أن «يدفع إليه من هذا العلم وينقذه» ـ فأجابه: «لا يجوز ذلك أو آخذ عليك عهداً وميثاقاً أخذه الله على النّبيّين والمرسلين وأُلقي إليك ما ينفعك».

---

١ ـ Bernard lewis, the origins of Ismaïlism (Cambridge, 1940) PP. 19 - 22

٢ ـ السلميّة: مدينة سوريّة تقع شرقي نهر العاصي، وهي اليوم مركز قضاء ينسب إليها. كانت قاعدة الأئمّة الشيعيّة (الإسماعيليّة) المستورين قبل ظهورهم.

واستمرَّ الحوار حتّى أخذ الحسين الأهوازيّ العهد على حمدان الذي دعاه إلى منزله قائلاً: «إنَّ لي إخواناً أصير بهم إليك لنأخذ عليهم العهد للمهديّ». فصار معه إلى منزله، وجمع عليه حمدان الناس، فأخذ عليهم العهد، واغتبط حمدان لكثرة ما شاهده من خشوعه وصيام نهاره، وقيام ليله... واغتبط به كافّة القوم، وترسّخ احترامه بينهم واشتدّت ثقتهم به. ولمّا مات الأهوازيّ، خلفه في الدّعوة حمدان بن الأشعث. وكان ذلك سنة ٢٦٤ هـ / ٨٧٧ م[١].

أمّا الأهوازيّ هذا، فهو داعية أرسله إلى العراق أحمد بن عبد الله بن ميمون القدّاح. وكان عبد الله عالماً بجميع الشرائع والسنن والمذاهب واشتهر بالعلم والتشيّع، فكان يدعو للإمام من آل البيت محمّد إسماعيل بن جعفر الصادق، وكوّن له الدعاة، ولمّا مات خلفه ابنه أحمد[٢].

أمّا حمدان، فكان راعي بقر، وكان ذكيّاً رغم جهله[٣]. وبينما ذكر بعضهم أنّ لقب قرمط قد أُطلق على حمدان بن الأشعث لأنّه كان يقرمط بمشيه[٤]، ذكر آخرون أنّ أصل لقب قرمط هو «كرميتة» الذي يعني باللغة النبطيّة «أحمر العين»، وقد لُقّب حمدان «بكرميتة» لحمرة في عينيه، ثمّ خُفّف فقيل: قرمط[٥].

ويختلف بعض الروايات في موضوع اللقاء بين الأهوازيّ وحمدان، وإن كان الجوهر واحداً[٦]. إلاّ أنّ الاختلاف في الجوهر، يرد في موضوع الدعوة بالذات. وأساس الاختلاف هو في ما إذا كانت الدعوة أصلاً، حنفيّة أم إسماعيليّة.

١ - المقريزي، إتّعاظ الحنفا بأخبار الأئمّة الفاطميّين الخلفا، (القاهرة ١٩٤٨) ص ٢٠٤ وما بعدها؛ راجع سامي عيّاش، الإسماعيليّون في المرحلة القرمطيّة، ص ٦٧ - ٦٨

٢ - المقريزي، الخطط المقريزيّة، (القاهرة ١٣٢٦ هـ) م ٢ ص ١٥٠ وما بعدها.

٣ - عبد القاهر البغدادي، أصول الدين، (استانبول ١٩٢٨) ص ٢٣٩.

٤ - المرجع السابق.

٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٤٥ - ٤٤٦

٦ - قابل: ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٤٤ وما بعدها.

فلقد أجمع عدد كبير من المؤرّخين على أنّ القرامطة قد جاؤوا بكتاب فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم! يقول الفرج بن عثمان، وهو من قرية يُقال لها نصرانة، إنّه داعية المسيح، وهو عيسى، وهو الكلمة، وهو المهديّ، وهو أحمد بن محمّد بن الحنفيّة، وهو جبريل» ويذكر أنّ المسيح تصوّر له في جسم إنسان وقال له: «إنّك الداعية، وإنّك الحجّة، وإنّك الناقة، وإنّك الدابّة، وإنّك يحيى بن زكريّا، وإنّك روح القدُس...» وعرّفه «أنّ الصلاة أربع ركعات: ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان بعد غروبها، وأنَّ الأذان في كلّ صلاة أن يقول المؤذّن: - الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلاّ الله، أشهد أن لا إله إلاّ الله، أشهد أنّ آدم رسول الله، أشهد أنّ نوحاً رسول الله، أشهد أنّ إبراهيم رسول الله، أشهد أنّ موسى رسول الله، أشهد أنّ عيسى رسول الله، أشهد أنّ محمّداً رسول الله، أشهد أنّ محمّد بن الحنفيّة رسول الله..- وأن يقرأ في كلّ ركعة الاستفتاح، وهي - من المنزّل على أحمد بن محمّد بن الحنفيّة[١]-.

غير أنَّ مؤرّخين وبحّاثين آخرين، أكّدوا على أنّ القرامطة هم إسماعيليّة من خلال تأكيدهم على أنّ «القرامطة والإسماعيليّة والسبعيّة... هي ألقاب لدعوة واحدة... لها ألقاب متعدّدة على اختلاف الأعصار والأزمنة ولكلّ لقب سبب[٢]»... وقد ذهب بعضهم إلى أنّ «الإسماعيليّة تسمّوا بالقرامطة في مرحلة معيّنة، من مراحل نشر الدعوة وانطلاقاً من حادثة معيّنة وذلك عندما أوصى أحد دعاة «شطنبيل» أهل الأحساء قائلاً: - إذا دخلتم هجر فعبّسوا وجوهكم وقرمطوا أنوفكم على أهلها[٣] -»...

على أيّ حال، فإنّ الدعوة القرمطيّة كانت دعوة باطنيّة، وقد طبعت مرحلة الاضطراب التي تميّز بها الإسلام فيما بين نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٤٧ - ٤٤٨؛ قابل: ابن خلدون، م ٢ ص ٣٣٥ - ٣٣٦؛ المقريزي، إتّعاظ الحنفا، ص ٢٠٦ - ٢٠٧

٢ - أبو حامد الغزالي، فضائح الباطنيّة، تحقيق وتقديم عبد الرحمن بدوي، (القاهرة ١٩٦٤) ص ١١

٣ - سامي العيّاش، ص ٨١ بالاستناد إلى: حمزة بن عليّ، في: السيرة المستقيمة ورسائل درزيّة أخرى (مخطوطة لدى العيّاش).

الميلاديّ. وقد كان للقرامطة نظام جمعيّة سريّة ذو مبدإٍ إشتراكيّ، ولم يكن الانضمام إلى جماعتهم جائزاً إلاّ بشروط معيّنة، وبعد إجراء مراسيم خاصة.

هذه الطائفة التي بدأت تظهر عملياً بقيادة حمدان قرمط، سوف تنشئ دولة مستقلّة على الضفّة الغربيّة من الخليج الفارسيّ، لتنشر الدمار حواليها، ولتزحف فيما بعد على بلاد الشام ناشرة الويل والخراب و... شهوة السلطة والانتقام.

يبدو للمدقّق في ظاهرة القرامطة أنّ منطلقاتها كانت اجتماعيّة ثوريّة أكثر منها دينيّة، لا بل إنّ تلك المنطلقات كانت متستّرة بالدين لأهداف اقتصاديّة ومعيشيّة. وقد اعتبر الغزاليّ أنّ الحركات الباطنيّة، «لم يفتتحها منتسب إلى ملّة ولا معتقد... ولكن تشاور جماعة من المجوس والمزدكيّة[1]، وشرذمة من الملحدين، وطائفة كبيرة من ملحدة الفلاسفة المتقدّمين»، بهدف القضاء على الإسلام، ولم يروا سبيلاً إلى ذلك إلاّ بانتحال عقيدة طائفة من فرقهم... وراحوا يعتزّون بأهل البيت ويتودّدون إليهم بما يلائم طباعهم «من ذكر ما تمّ على سلفهم من الظلم العظيم والذلّ الهائل... حتّى يسهل استدراجهم إلى الانخلاع عن الدين... وإن بقي عندهم معتصم من ظواهر القرآن ومتواتر الأخبار أوهموهم أنّ تلك الظواهر لها أسرار وبواطن...» واعتبروا «أنّ أمارة الأحمق الانخداع بظواهرها، وعلامة الفطنة اعتقاد بواطنها»، وقالوا: «ثمّ نَبثّ إليهم عقائدنا، ونزعم أنّها المراد بظواهر القرآن. ثمّ إذا تكثّرنا بهؤلاء سهل علينا استدراج سائر الفرق بعد التحيّز إلى هؤلاء والتظاهر بنصرهم». ثمّ قالوا: «طريقنا أن نختار رجلاً ممّن يساعدنا على المذهب، ونزعم أنّه من أهل البيت، وأنّه يجب على كافّة الخلق مبايعته، وتتعيّن عليهم طاعته فإنّه خليفة رسول الله، ومعصوم عن الخطأ والزلل من الله تعالى[2]»...

١ ـ المزدكيّة، نسبة إلى مزدك، داع إيرانيّ، إتّبع في تعليمه ماني وأيّد النزعة الغنوسيّة. أراد إشتراكيّة الأموال والنساء. أيّد مذهبه الملك قباذ الأوّل (٤٨٨) حتّى خُلع فأعاد كسرى أنو شروان الزرادشتيّة.

٢ ـ الغزالي، فضائح الباطنية، ص ١٨-١٩

عند بدء ترؤّس حمدان قرمط أتباعه، كانت حركة الزنج المنطلقة من المبادئ الثوريّة الاجتماعيّة لا تزال نشطة، وكان صاحب الزنج لا يزال حيّاً، فسار إليه حمدان وأبلغه أنّ لديه من الأتباع «مائة ألف ضارب سيف» ودعاه الى الإنضمام إليه، إلاّ أنّ المناظرة التي حصلت بين الرّجلين لم تؤدّ إلى اتفاق[1].

من شأن هذه المحاولة القرمطيّة أن تشير بوضوح إلى المنطلقات الثوريّة الاجتماعيّة للقرامطة. ذلك أنّ حركة الزنج لم تكن سوى حركة ثوريّة اجتماعية تحت غطاء دينيّ، إتّخذه لها قائدها الذي ادّعى أنّه المهديّ، وأنّه من سلالة عليّ بن أبي طالب من أحفاد الحسين، بينما الواقع أنّه من فخذ عبد القيس من بني أسد[2].

لم يكن مرّ أربعة عشر عاماً على دخول حمدان قرمط الدعوة التي صارت تنتسب إليه، حتّى ظهر أوّل تحرّك ثوريّ قرمطيّ فعّال بسواد الكوفة، وذلك في أواخر عهد الخليفة العبّاسيّ الخامس عشر: المعتمد (٢٥٦ ـ ٢٧٩ هـ / ٨٧٠ ـ ٨٩٢ م.) بعد أن كان قد انضمّ إلى حمدان معظم أهل الكوفة ومعظم القبائل العربيّة في هذه المنطقة، حتّى لم يتخلّف عنه رفاعيّ ولا ضُبَيْعيّ... ولم يبقَ من بطون العرب المتّصلة بواسط بطن إلاّ استجاب له[3]. وبرز بين أنصار القرمطيّ جماعة من الدعاة النشيطين الذين راحوا يستقطبون الناس، أبرزهم زكرويه بن نهرويه وأبناؤه، وقد لقّب زكرويه بالسيّد[4].

في هذه الأثناء، بثّ القرامطة الدعاة إلى الأقطار، ومنهم يحيى بن المهديّ الذي قصد القطيف ونزل عند عليّ بن المعلّ، وهو من المُغالين في التشيّع. وعندما قرأ عليّ على أهل القطيف الكتاب المرسل من المهديّ، استجابوا له كما استجاب

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٤٩

٢ ـ الطبري، م ٦ ج ١١ ص ١٨٣

٣ ـ المقريزي، المقفى، ص ٩٨

٤ ـ الطبري، م ٦ ج ١١ ص ٣٨٠ ـ ٣٨١

سائر قرى البحرين. وكان أحد المستجيبين، أبو سعيد الجنابيّ. وبعد أن غاب يحيى عن البحرين لبعض الوقت، عاد إليها ومعه كتابٌ ثانٍ من المهديّ، فيه أن «إدفعوا ليحيى خمس أموالكم» فانصاع أهل البحرين لأمر المهديّ، الذي راحوا ينتظرون ظهوره بفارغ الصبر، وعَظُمَ أمر أبي سعيد بعد أن اجتمع حوله العديد من القبائل[1]. وفي ٢٨٦ هـ / ٨٩٨ م. ثار القرامطة في البحرين بقيادة أبي سعيد الجنابيّ الذي اجتمع إليه القرامطة والأعراب، فقتلوا النّاس في القطيف، وأظهروا من البدع ما دفع والي البحرين إلى اعتقال يحيى بن المهديّ وضربه وحلق رأسه ولحيته، فهرب أبو سعيد الجنابيّ إلى خارج البحرين، وسار يحيى إلى بني كلاب وعُقيل والخريس، فاجتمعوا معه ومع أبي سعيد حتّى قويت شوكة القرامطة في البحرين[2]. وما أن حلّت السنة التالية (٢٨٧ هـ / ٨٩٩ م.) حتّى أغاروا على نواحي هجر، وهدّدوا البصرة، ممّا جعل الخليفة العبّاسيّ السادس عشر: المعتضد (٢٧٩ ـ ٢٨٩ هـ / ٨٩٢ ـ ٩٠٢ م.) يرسل والياً قوياً إلى البحرين هو العبّاس بن عمرو الغنويّ، مزوّداً بألفي رجل، إضافة إلى عدد كبير من المتطوّعين والخدم، بهدف القضاء على القرامطة. وقد أبدى أهل البصرة حماساً في التطوّع لقتال القرامطة، بهدف ردّ خطرهم عن مدينتهم. بيدَ أنّ القرامطة بقيادة الجنابيّ أبادوا هؤلاء المهاجمين عند أوّل واقعة، وأسروا الوالي العبّاسيّ، ومن نجا من متطوّعي البصرة عاد إلى أرضه بلا زاد. وإذ حاول قرابة أربعماية من أهل البصرة ملاقاة المهزومين بالزاد والرّواحل، هاجمهم بنو أسد، وسلبوا رواحلهم والزاد، وقتلوا من سَلِمَ من المعركة.

هذه الأحداث، أرعبت أهل البصرة الذين عزموا على الانتقال منها، لكنّ واليها منعهم من ذلك.

١ ـ راجع: سامي العيّاش، ص ٧٥ مستنداً إلى: ابن سنان؛ ابن خلدون، م ٣ ص ٣٥٠

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٩٣ ـ ٤٩٥

وبعد أيّام، أطلق القائد القرمطيّ الواليَ العبّاسيَّ الأسير، وأرسله إلى الخليفة «ليعرّفه ما رأى[1]».

لم يمضِ سنتان على سيطرة القرامطة على البحرين، حتّى بدأ ظهورهم في بلاد الشام ابتداءً من سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م.

وكان الداعية القرمطيّ هناك، ابن زكرويه بن مهرويه: يحيى، الذي كنّى نفسه بأبي القاسم، ولقّبوه بالشيخ. وقد زعم الشيخ بأنّه محمّد بن عبد الله بن محمّد بن إسماعيل بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب. كما زعم أنّ له في البلاد مائة ألف تابع، وأنّ ناقته التي يركبها مأمورة، فإذا تتبّعوها في مسيرها نُصِروا. وهكذا تمكّن من تجميع الأتباع حوله، حتّى إذا ما أرسل الخليفة حملة لاعتقاله، تمكّن من القضاء عليها ومن قتل قائدها. وراح ابن زكرويه وأتباعه يعيثون بالأرض تدميراً، فأحرقوا مسجد الرصافة، ونهبوا كل قريَة مرّوا بها، حتّى بلغوا أرض الطولونيّين، وكانت إذ ذاك ولاية هارون (٨٩٦ ـ ٩٠٤م.)[2]

أمّا في الكوفة، فقد اجتهد الخليفة العبّاسيّ في ملاحقة القرامطة. وقد يكون في الكلام الذي تجرّأ أحد قادتهم: أبو الفوارس، على أن يوجّهه إلى الخليفة المعتضد عندما أُحضر إليه بعد اعتقاله، أوضح تعبير عن موقف القرامطة من مسألة الخلافة. فلقد واجه هذا القرمطيّ المتشيّع الخليفة العبّاسيّ في عقر قصره بقوله: «إنّ رسول الله صلعم مات وأبوكم العبّاس حيّ، فهل طالب بالخلافة أم هل بايعه أحد من الصحابة على ذلك؟ ثمّ مات أبو بكر فاستُخلف عمر، وهو يرى موضع العبّاس، ولم يوص إليه، ثمّ مات عمر وجعلها شورى في ستّة أنفس، ولم يوص إليه، ولا أدخله فيهم، فبماذا تستحقّون أنتم الخلافة؟ وقد اتّفق الصحابة على دفع جدّك عنها؟». أمام هذا الكلام العميق الجريء، لم يكن بوسع الخليفة سوى أن يأمر بتعذيب القرمطيّ وقتله وتخليع عظامه. وهذا ما جرى له بعد تقطيع يديه

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠

٢ ـ الطبري، م ٦ ج ١١ ص ٣٨٠ ـ ٣٩٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥١١ ـ ٥١٢

ورجليه[1]. بيدَ أنَّ الخليفة المعتضد قد مات هو الآخر بعد أيَّام، ليخلفه المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م.) وهو الخليفة العبّاسيّ السابع عشر.

في هذه الأثناء، سجّل القرامطة في بلاد الشام انتصاراً واضحاً على الطولونيّين؛ ومع إطلالة سنة ٢٩٠ هـ / ٩٠١ م.، كانوا قد حاصروا دمشق، وضيّقوا على أهلها، فأرسل الخليفة العبّاسيّ الجديد نجدة إلى دمشق، وكذلك فعل المصريّون، ممّا أضعف القرامطة الذين قُتل مقدّمهم: الشيخ يحيى بن زكروَيه، على باب المدينة. فسارع أتباعه إلى الالتفاف حول شقيقه الحسين الذي سمّى نفسه أحمد، وتكنّى بأبي العبّاس.

فكّ أبو العبّاس القرمطيّ الحصار عن دمشق بعد أن فرض الخراج على أهلها. ثمّ سار إلى حمص، فاستولى عليها بسهولة، وخُطب له على منابرها، وتسمّى المهديّ أمير المؤمنين. وبعد حمص، سار إلى حماة، ومعرّة النعمان، وغيرهما، فقتل أهلها بمن فيهم النساء والأطفال. ثمّ سار إلى بعلبكّ وأباد أهلها في إحدى أبشع المجازر. ثمّ سار إلى سلميّة، وبعد أن صالحه أهلها وأخذوا منه الأَمان، فتحوا له أَبوابها، فغدر بهم، وبدأ بإبادة من فيها من بني هاشم، وانتقل إلى إبادة كل حيّ، بما في ذلك البهائم، ولم يترك فيها عيناً تطرف. مع العلم أنَّ سلميّة كانت ملجأ الأئمّة الشيعة المستورين، ومنها خرجت الدعوة القرمطيّة.

بعد سلميّة، سار القرامطة بقيادة ابن زكروَيه الذي تكنّى بأبي العبّاس، يمشّطون القرى المحيطة، سبياً ونهباً. وقد أصبح اسم أبي الشامة، الذي أُضيف إلى ألقاب ابن زكرَويه إذ رسم شامة على وجهه وتكنّى بها، مُرادفاً للموت والرعب والدّمار.

تجاه هذا الواقع، جرّد الخليفة العبّاسيّ جيشاً جرّاراً إلى نواحي حماة، للقضاء على أبي الشامة وجماعته. وقد تمكّن جيش الخليفة من إنزال الهزيمة في القرامطة

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥١٢ ـ ٥١٣

الذين تفرّقوا بعدئذ في البوادي. ولم ينجح أبو الشامة في محاولة فراره. فقُبض عليه ونقل إلى الخليفة المكتفي في بغداد، هو وأصحابه الكبار، فأمر المكتفي بقطع أرجلهم وأيديهم وضرب أعناقهم بعد ذلك[1].

هذه الهزيمة لم تمنع زكرويه، والد أبي الشامة، وأخاه الشيخ، اللذين أصبحا في عداد الأموات، من إكمال نشاطه. فأرسل جماعة إلى إذراعات[2] وبصرى[3] وبثنية[4]، فحاربوا أهلها حتّى أمّنوهم، فلمّا استسلم أهل هذه البلدات للقرامطة، أقدم هؤلاء، كالعادة، على قتلهم وسبي ذراريهم ونهب أموالهم. ثمّ هاجموا دمشق التي قاومهم أهلها بقوّة بعد أن قضى القرامطة على العسكر النظاميّ، فتحوّلوا إلى طبريّة التي لم يكن حالها أفضل من أيّة بلدة عاث بها القرامطة قتلاً وسبياً ونهباً.

في هذه الأثناء، تحرّك زكروَيه في العراق، وتمكّن من جمع المريدين حوله، فاعترفوا له بالرئاسة، ودعوه بالسيّد، وصاروا يسجدون له ويتباركون منه. ولمّا حاول الخليفة القضاء على زكروَيه وأتباعه، كلّفه ذلك حوالى ١٥٠٠ قتيل بخلال معركة دارت بسقي الفرات، ممّا زاد في قوّة القرامطة وسطوتهم[5].

في الوقت نفسه، بدأ ظهور القرامطة في اليمن، وبدأوا يُثيرون الاضطربات هناك.

مع إطلالة السنة التالية (٢٩٤ هـ / ٩٠٦ م.) سار زكروَيه مع أتباعه يريد الحجّ. وبطريقه إلى مكّة، لم يدع بلدة إلاّ وقتل أهلها وسبى نساءها ونهب أموالها، كذلك فعل بكلّ من التقاه وجماعته عائداً من الحجّ. ولم يكتفِ القرامطة بهذا القدر من الإجرام، بل أقدموا على طمر الآبار الواقعة على طريق مكّة بالجيَف والتراب والحجارة.

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٢٣ ـ ٥٢٦ و ٥٣٠ ـ ٥٣٢

٢ ـ إذراعات: هي مدينة درعا السوريّة اليوم، قاعدة محافظة حوران.

٣ ـ بصرى: هي بصرى إسكي شام، مدينة سوريّة في محافظة حوران حالياً.

٤ ـ بثنية: إسم أطلقه العرب على البلاد الخصبة المجاورة لحوران والجولان ما وراء الأردن. كانت قاعدتها إذراعات (درعا).

٥ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٤١ ـ ٥٤٧؛ السيوطي، ص ٣٧٦.

كان لهذه الأعمال البالغة الخطورة أثر فظيع في نفوس القادة المسلمين والمجتمعات الإسلاميّة، فقد بلغ عدد القتلى من الحجّاج ما يزيد على العشرين ألفاً، وباتت طريق مكّة غير آمنة على الإطلاق. أمام هذا الواقع المخيف الذي لا يُحتمل جهّز الخليفة المكتفي جيوشاً للقضاء على زكرويه وأتباعه. وبالفعل، فقد تمكّن جيش الخليفة هذه المرّة من إنزال الهزيمة بالقرامطة، فقتل زكرويَه، وأسر أكثر خاصّته وأقربائه، وتتبّع الجيش القرامطة في بلاد الشام والعراق فقتل بعضهم وسجن بعضهم الآخر سجناً مؤبّداً. ويذكر بعض المؤرّخين أنّ مجموع ما أُزهق من أرواح حتّى هذا التاريخ بسبب القرامطة، يبلغ الستمائة ألف نسمة[1].

أمّا في البحرين، فقد تمكّن القائد القرمطيّ، أبو سعيد الجنابيّ، من الاستيلاء على هجر والأحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين. غير أنّه في سنة ٣٠١ هـ / ٩١٢ م. أقدم خادم أبي سعيد، وهو صقلبي، على قتل سيّده في الحمّام، إضافة إلى أربعة من رؤساء القرامطة. وقد اعتبر بعض المؤرّخين أنّ الخادم الصقلبي قد أقدم على قتل القادة القرامطة بتحريض من الداعية الفاطميّ: عبيد الله[2].

أبو طاهر الجنابيّ

كان أبو سعيد قد عهد قبل موته إلى ابنه البكر: سعيد، لكنّ سعيداً كان أضعف من أن يتمكّن من السيطرة على الوضع بوجه طُموح أخيه الأصغر: أبي طاهر، الذي استجاب لطلب الخليفة العبّاسيّ بالإفراج عن الأسرى العبّاسيّين[3].

لم يكن أبو طاهر الجنّابي، رغم تجاوبه مع طلب الخليفة، أقلّ عُنفاً وثورة من

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٧ ص ٥٤٨ - ٥٥١؛ المسعودي، مروج الذهب، ج ٤ ص ٢٨٠؛ السيوطي، ص ٣٧٦ - ٣٧٧؛ المقريزي، المقفّى، ص ١٠٦

٢ - راجع: سامي العيّاش، ص ٧٦ بالإستناد إلى: دائرة المعارف الإسلاميّة - مادة «جنابي»؛ ابن الأثير الكامل، ج ٨ ص ٨٣ - ٨٤.

٣ - ابن سنان، مقالات في أخبار القرامطة، تحقيق سهيل زكار (بيروت ١٩٧١) ص ٣٦ - ٣٧ بالإستناد إلى سامي العيّاش، ص ٢٢٢

أبيه وسائر كبار القادة القرامطة، فهو لم يوفّر التعرّض لقوافل الحجّاج، مثلما فعل زكرويه، لا بل تجاوز أبو طاهر في عنفه وتطرّفه سائر أولئك القادة، إذ بلغ به الأمر أن أغار على مكّة نفسها محتجزاً الحجر الأسود عدّة سنوات. وفي سنة ٣١٢ هـ ٩٢٤ م. راح أبو طاهر وأتباعه يتعرّضون لقوافل الحجّاج على طريق مكّة، وعندما فرّ الحجّاج إلى الكوفة تاركين جِمالهم في السنة التالية، تبعهم الجنابيّ وجماعته، ولمّا حاول جند الخليفة إيقافهم، هزمهم القرامطة رغم أنّ عديد الفرقة العبّاسيّة كان بحدود السبعة آلاف جنديّ، حتّى إنّ القرامطة تمكّنوا من أسر أحد كبار قادة الجيش، الذي لجأ مَن نجا من أفراده إلى الفرار. ودخل القرامطة إذّاك الكوفة واستولوا على ما فيها من خيرات. وأقام أبو طاهر فيها ستّة أيّام. وقد امتنع بعد خروجه منها أهل العراق عن الحجّ تلك السنة خوفاً من القرامطة[1]. وفي سنة ٣١١ هـ / ٩٢٣ م. كان القرامطة قد أقدموا على مهاجمة البصرة بالطريقة نفسها، وقد فعلوا فيها ما فعلوه بالكوفة[2]. وبعد أربع سنوات (٣١٥ هـ - ٩٢٧ م.) ألقى القرامطة الرّعب مرّة جديدة بقلوب العراقيّين، إذ هاجموا بعض المدن العراقيّة بحوالى ألفيّ مقاتل، فقهروا جيش الخلافة الذي قاتلهم بأكثر من ثمانين ألف جنديّ، وغزوا الكوفة، والأنبار، إلاّ أنّهم فشلوا في غزو بغداد. وفي السنة التالية (٣١٦ هـ / ٩٢٨ م.) غزوا الدالية، والرحبة، والموصل، وقرقيسية، إضافة إلى أعراب الجزيرة، والرقّة، والربض، ورأس العين، وكفرتوثا، وسنجار، وأحلّوا الدمار والموت والنهب والسبي حيثما حلّوا[3].

تبقى كلّ هذه الغزوات أقلّ فظاعة ممّا أقدم القرامطة على فعله بمكّة في هذه الحقبة المظلمة من التاريخ الإسلاميّ.

١ - سامي العياش، ص ٦٠ و ٦٤؛ ابن سنان، ص ٣٨؛ المقفّى، ص ١٠١؛ ابن خلدون، م ٣ ص ٣٧٧؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ١٥٥

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ١٤٣

٣ - المرجع السابق، ص ١٧١ - ١٧٣ و ١٨١ - ١٨٢

لمّا وصل الحُجّاج إلى مكّة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م. قادمين من بغداد، لم تكتمل فرحتهم بالوصول سالمين من مخاطر الطريق، حيث أصبح غزو القرامطة أمراً شبه مستمر، إذ ما أن حلّوا بالمدينة المقدّسة، حتّى أرعبهم وفود القائد القرمطي أبو طاهر يوم التروية، بدخوله المدينة مع جماعته.

لم يضيّع القرامطة الوقت، إذ منذ لحظة وصولهم إلى مكّة، راحوا ينهبون الحجّاج أموالهم، ويقتلون من يطاله سيفهم، سواء كان الضحايا في الطريق أو في المسجد الحرام وفي البيت نفسه. وقلع القرامطة الحجر الأسود من مكانه، ونقلوه إلى هجر، وقلعوا باب البيت وأخذوه، وقتلوا كلّ من حاول الوقوف بوجههم ورموا الجثث في بئر زمزم، ولمّا لم يعد من مكان في البئر، ملأوا المسجد جثثاً لا مصلّى عليها ولا مغسولة. ثمّ تفرّغوا لكسوة البيت فنهبوها واقتسموها. وانتقلوا إلى بيوت أهل مكّة، فنظّفوها من كلّ ذي قيمة[1].

ولم يَعُد الحجر الأسود إلى مكانه إلاّ بعد مرور ٢٣ سنة، إثر تدخّل الداعية الفاطميّ أبي محمّد عبيد الله العلويّ المهديّ، الذي كتب الى أبي طاهر القرمطيّ لائماً بكلام قاسٍ، وآمراً بإعادة الحجر المقدّس إلى مكانه[2].

وقد يكون من اللاّزم في هذا المجال، ذكر بعض ما جاء في كتاب المهديّ أبي عُبيد الله العلويّ الفاطميّ إلى أبي طاهر، ومنه:

«قد حقّقت على شيعتنا ودعاة دولتنا اسم الكفر بما فعلت... سجّلت علينا في التاريخ نقطة سوداء لا تمحوها الليالي والأيّام، وإن لم تردّ على أهل مكّة وعلى الحُجّاج وغيرهم ما أخذت منهم، وتردّ الحجر الأسود إلى مكانه، وتردّ كسوة الكعبة، فأنا بريء منك في الدنيا وفي الآخرة[3]».

يرى بعض الباحثين أنّه كان هنالك تعاون تكتيكي بين القرامطة من جهة،

١ - المرجع السابق، ص ٢٠٧ - ٢٠٨
٢ - القرطبي، عريب بن سعيد، صلة تاريخ الطبري، ص ٧١؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٠٧ - ٢٠٨
٣ - ابن خلدون، م ٣ ص ٣٧٩؛ ابن سنان، ص ٥٤ - ٥٥؛ قابل: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٠٨

ودعاة الدولة الفاطميّة من جهة أخرى، ممّا جعلهم يربطون بين أسباب غزو مكّة والاستيلاء على ما فيها من قبل القرامطة، وبين قيام الدولة الفاطميّة، من منطلق أنّ أحد أهداف القرامطة من غزو مكّة كان إشغال الخليفة وجيشه عن أحداث إفريقية حيث كان قد بدأ تأسيس دولة الإسماعيليّين الفاطميّين، وإن كان هؤلاء الباحثون يعدّدون لذلك أسباباً أخرى، منها الانتقام لمقتل زكرويه، ومنها الحطّ من قدر الخليفة العبّاسيّ وهيبته في عيون المسلمين[1].

قد يكون في ما جاء في الرسالة الجوابيّة التي بعثها القائد القرمطي أبو طاهر إلى الخليفة العبّاسيّ، إثر كتابة هذا الأخير له متوعّداً بعد دخول القرامطة مكّة واقتلاعهم الحجر الأسود، أفضل توضيح لحقيقة دوافع القرامطة لأعمالهم العنفيّة تلك. ويتّضح من تلك الرسالة الجوابيّة، أنّ القرامطة كانوا مؤمنين بصحّة أعمالهم على عنفها ودمويّتها، وكانوا يرون أنّ الكفرة إنّما هم أهل الخلافة وأتباعهم الذين، برأيهم، إبتعدوا عن صوابيّة الإسلام.

لقّب أبو طاهر نفسه في تلك الرسالة بـ«الداعي إلى تقوى الله القائم بأمر الله الآخذ برسول الله، صلعم»؛ ولقّب الخليفة بقائد الأرجاس «المسمّى بولد العبّاس». واتّهم أبو طاهر الخليفة بأنّه يتّبع الأباطيل ويصغي «إلى فحش الأقاويل من الذين يصدّون عن السبيل، فبشّرهم بعذاب أليم، على حين زوال دولتك... وتمكّن أولياء الله من رقبتك وهجومهم على معاقل أوطانك، ألاّ أنّ حزب الله هم المفلحون... وقد خرج عليك الإمام كالأسد ليُبطل الباطل ولو كره المجرمون». ويردّ أبو طاهر إلى الخليفة جميع التُّهم التي وجّهها العبّاسيّ إليه وجماعته: «تالله لتسألنّ عمّا كنتم تعملون، فأمّا ما ذكرت من قبل الحجيج، وإخراب الأمصار، وإحراق المساجد، فوالله ما فعلت ذلك إلاّ بعد وضوح الحجّة كإيضاح الشمس، وادّعى طوائف منهم أنّهم أبرار، ومعاينتي منهم أخلاق الفجّار، فحكمت عليهم

١ - جوزي بندلي، من تاريخ الحركات الفكريّة في الإسلام (بيروت؟) ص ١٧٢ - ١٧٣

حكم الله، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون... خبّرني أيّها المحتجّ لهم والمناظر عنهم في أيّة آية من كتاب الله، أو أيّ خبر من رسول الله صلعم، إباحة شرب الخمور، وضرب الطنبور، وعزف القيان، ومعانقة الغلمان؟ وقد جمعوا الأموال من ظهور الأيتام، واحتووها من وجوه الحرام؛ وأمّا ما ذكرتَ من إحراق مساجد الأبرار، فأيّ مساجد أحقّ بالخراب من مساجد إذا توسّطتَها سمعتَ فيها الكذب على الله تعالى وعلى رسوله صلعم، بأسانيد من مشايخ فجَرة بما أجمعوا عليه من الضلالة وابتدعوا من الجهالة؟». وبعد أن يتّهم أبو طاهر القرمطيّ الخليفة العبّاسيّ بإسراف الأموال على الملذّات، وحجبها عن مستحقّيها، يقول: «يدْعو على المنابر للصبيان ويخطب للخصيان. الله أذن لكم أم على الله تفترون؟». ويبلغ هجوم الرسالة ذروته عندما يوجّه القرمطيّ للعبّاسيّ أعنف ما قد يكون قرأه الخليفة من سباب، إذ يقرأ: «لأنت أمير الفاسقين أولى بك من أمير المؤمنين». وبعد أن يذكّره بواقع ضعفه وبسيطرة خدمه عليه، ينهي رسالته مُبدياً استغرابه من تجرّؤ خليفة المسلمين على الوعيد والتّهديد وهو على تلك الحال. مُعرباً، في الوقت نفسه، عن ثقته بقوّته وهو يخاطب الخليفة: «أعزم على ما أنت عليه عازم، وأقدم على ما أنت عليه قادم، والله من ورائي ظهير وهو نعم المولى ونعم النصير[1]».

واضح أنّ منطلقات القرامطة، بنظر هذا القائد، كانت دينيّة - اجتماعيّة ثوريّة. وفي شعرٍ منسوب الى أبي طاهر نفسه، يقول إنّه «سيملك الأرض مشرقاً ومغرباً[2]». ومن شأن هذا الكلام أن يزيد في توضيح أهداف القرامطة ودوافع عنفهم، وفي تفسير الغاية من الهجومات التي شنّوها على الخلافة في عاصمتها بالذات. وقد تمكّن القرامطة فعلاً من تعميم البلبلة على مختلف نواحي الامبراطوريّة العبّاسيّة. وقبل حلول العام ٣١٧ هـ / ٩٢٣ م. كانوا قد تمكّنوا، بقيادة قائد

١ - أبو منصور اليماني، كشف أسرار الباطنيّة وأخبار القرامطة، ص ٣٤ - ٣٥؛ راجع، العيّاش، ص ٢٢٥ - ٢٢٦.

٢ - الديلمي، بيان مذهب الباطنيّة وبطلانه، (استانبول ١٩٣٨) ص ٨٨

دولتهم البحرينيّة، أبي طاهر بن أبي سعيد الجنابيّ، من السيطرة على معظم أراضي الخلافة في العراق والجزيرة، وبذلك راح الفقراء والصّعاليك والمحرومون يدخلون في الحركة القرمطيّة بإقبال، واستمرّت الحروب بينهم وبين جنود الخلافة التي كانت قد أصبحت منهمكة بمسألة محاولات إنشاء الحكم الفاطميّ في إفريقية. ولمّا كان القرامطة في بعض الأحيان يصابون بهزيمة أو أكثر، ما كانوا يتخاذلون أمام أيّة نكسة، بل كانوا يسيطرون على الوضع بسرعة في العديد من مناطق الخلافة، مصرّين على تحقيق أهدافهم حتّى النهاية. وقد كثرت أعمال ضرب الحجّاج، خاصة سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٤ م. عندما اعترضهم أبو طاهر بالقادسيّة. كما قام بغزو الكوفة، وعلى غرار ما فعله بالسابق، أقام فيها أيّاماً ثمّ رحل عنها[1]. وبعدسنتين، أعاد العمليّة نفسها على الكوفة، بعد أن فرض على أهل بغداد وخراسان والشام ومصر الأموال الباهظة.

النهـــاية القـــرمطية

إنّ ما يدعو للدهشة، وللعبرة، هو أنّ رجلاً من القرامطة، قد تمكّن بالأساليب نفسها التي وضعها القرامطة لبثّ دعوتهم وفرض سيطرتهم، من أنْ يشقّ الجماعة على مختلف مستوياتها، ومن أن يُنزل الخلل في أمورها، ومن أن يضعها على شفير الهاوية، بعد أن قتل بعضهم بعضاً إثر فساد الحال فيما بينهم.

ذلك الرجل، اسمه ابن سنبر، كان من خاصة أبي سعيد والد أبي طاهر، وكان مُطّلعاً على أسرار أبي سعيد.

قصد ابن سنبر رجلاً من أصبهان، وأطلعه على أسرار أبي سعيد، ومنها علامات كان يذكر أنّها في صاحبهم، (المهديّ الذي يدعون إليه). وبناءً على

١ - ابن سنان، ص ٥٥؛ إبن الأثير الكامل، ج ٨ ص ٣١١

توجيهات ابن سنبر، حضر الأصبهاني إلى أبي طاهر وإخوته، مظهراً علامات المهديّ الذي تحدّث عنه أبو سعيد، وسرعان ما آمن به أبو طاهر وإخوته، فأطاعوه «حتّى كان يأمر الرجل بقتل أخيه فيقتله، وكان إذا كره رجلاً... يأمر بقتله. وبلغ أبا طاهر أن الأصبهاني يريد قتله ليتفرّد بالملك، فقال لإخوته: لقد أخطأنا في هذا الرجل، وسأكشف حاله. ثمّ دعا أبناء أبي سعيد، الأصبهاني، وقالوا له: إنّ لنا مريضاً، فانظر إليه ليبرأ؛ وكانوا قد أحضروا والدتهم وغطّوها بإزار على أنّها ذلك الرجل. فلمّا رآها الأصبهاني، قال: - إنّ هذا المريض لا يبرأ، فاقتلوه! - فقالوا له: - كذبت هذه والدتنا - ؛ ثمّ قتلوه بعد أن قُتل منهم خلق كثير من عظمائهم وشجعانهم. وكان هذا سبب تمسّكهم (منذ ذلك الحين) بهجر، وترك قصد البلاد والإفساد فيها[1]».

بعد هذه النكبة على القرامطة، أتى موت أبي طاهر سنة ٣٣٢ هـ / ٩٤٣ م. ليزيدهم ضعفاً، ذلك أنّ أخويه: أبا القاسم سعيداً، وأبا العبّاس الفضل، لم يكونا بمقدرته، وإن كانا يتّفقان معه على الرأي والتدبير. أمّا الأخ الثالث، فكان بعيداً عن كلّ هذه الأمور، منصرفاً إلى اللهو والشرب. وقد قام الأخوان بإدارة أمور القرامطة، فأبديا انصياعاً للفاطميّين، وكان أوّل ما فعلاه لإرضائهم نقل الحجر الأسود إلى مكّة سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠ م[2].

دام الانحسار القرمطي زمن قيادة الأخوين ابني أبي طاهر حتّى سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م. إذ تحرّك حفيد أبي طاهر الجنابيّ: الحسن بن أبي العبّاس، الذي عُرف بعدّة أسماء، منها: الحسين بن بهرام، والحسن الأعصم، والحسين بن أحمد بن بهرام القرمطيّ، الذي خرج عن طاعة الفاطميّين، فأغار على دمشق وسيطر عليها وولّاها لأحد مؤيّديه، وسيطر على قسم كبير من الجزيرة، حتّى خطب للقرامطة في

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٣٥١ - ٣٥٢

٢ - المقفّى، ص ١٠٣ - ١٠٤؛ إبن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٤١٥ - ٤١٦

مكّة نفسها. واحتلّ القرامطة في تلك الحقبة المناطق المجاورة لدمشق، ثمّ توجّهوا إلى مصر، حيث واجههم الفاطميّون والأخشيديّون وجماعة كبيرة من العرب. رغم ذلك تمكّنوا من النزول في عين شمس حيث دارت اشتباكات بينهم وبين المقاومين، وخاصة جيش جوهر الصقلّي قائد المعزّ الفاطميّ، فحاصروا جيش جوهر حصاراً شديداً، بيدَ أنّ القائد الفاطمي استطاع فكّ الحصار مُجبراً القرامطة على الرحيل إلى الشام، فنزلوا الرملة وحاصروا يافة وتمكّنوا من القضاء على القوّة الفاطميّة التي طاردتهم وحاولت مُساعدة المحاصرين بيافة. ويبدو أنّ القرامطة قد تحالفوا فيما بعد مع البويهيّين ضدّ الفاطميّين في حروب دارت حول دمشق سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م.، شنّ بعدها القرامطة هجوماً على مصر أيّام الخليفة الفاطميّ الرابع: المعزّ لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥ م.) الذي حاول أن يتّقي شرّهم من خلال كتاب أرسله إلى الحسن بن أحمد ذكر له فيه فضل الفاطميّين عليهم، وأنّ الدعوة واحدة، وأنّ القرامطة إنّما كانت دعوتهم إليه، وإلى آبائه من قبْله... كما ضمّن الكتاب مبالغة في الوعظ، وإشارة إلى التهديد. ولكنّ كل ذلك لم يُفد، إذ كان جواب القرمطيّ: «وصل كتابك الذي قلّ تحصيله وكثُر تفضيله، ونحن سائرون إليك على أثره، والسلام». وسار القرمطيّ حتّى وصل مصر، «فنزل عين شمس بعسكره، وأنشب القتال، وبثّ السرايا في البلاد ينهبونها، فكثرت جموعه، وأتاه من العرب خلق كثير...».

وإذ برز الخطر القرمطيّ واضحاً على الفاطميّين، عرف الخليفة الفاطميّ كيف يوقع بين القرامطة وحلفائهم. وبعد أشهر قليلة أنزل الجيش الفاطميّ أشدّ الهزائم في القرامطة بأرض الشام. وبعد أن سقط منهم ألوف القتلى، انهزموا إلى الأحساء[1].

وبذلك انتقلت السيطرة على دمشق إلى الفاطميّين، وبدأ نجم القرامطة

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٦٣٨ - ٦٣٩؛ راجع: العيّاش، ص ٢٢٧ - ٢٣٠؛ ابن سنان، ص ٥٧ وما يليها؛ المقفّى، ص ٩٥ - ١٠٤

بالأفول، وانتقلت أخبارهم إلى حواشي الكتب. ومن أخبارهم أنّهم غزوا بغداد سنة ٣٧٤ هـ / ٩٩٤ م. طامعين بموت عضد الدولة، «فصولحوا على مال أخذوه وعادوا». وكان القرامطة قد أولوا قيادتهم في البحرين إلى هيئة من ستّة أفراد، يؤلّفون شبه مجلس حاكم، وأطلقوا عليهم لقب السادة. وقد قصد اثنان من هؤلاء السادة الكوفة في السّنة نفسها، وهما إسحاق وجعفر البحريّان، وملكاها، ممّا أدّى إلى الاقتتال بينهما وبين البويهيّين، وإلى انهزام القرامطة إلى القادسيّة بعد سقوط عدد كبير منهم، ومنذ ذلك الحين، «غاب ناموس» القرامطة عن العراق[1].

وفي نهاية سنة ٣٧٨ هـ / ٩٨٨ م. ظهر رجل يُعرف بالأصفر، وهو من بني المنتفق[2]، وجمع الرجال حواليه للانتقام من القرامطة. وإذ تمكّن الأصفر من قهر القرامطة، تتبّعهم إلى قاعدة حكمهم في الأحساء[3]، حيث تحصّن منه القرامطة، فعدل إلى القطيف[4]، وأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم وسار بها إلى البصرة[5]. ومنذ ذلك التاريخ، لم يعد يرد ذكرٌ للقرامطة.

القرمطية: اشتراكية ... شيوعية مبكرة

بالامكان اعتبار أن القرامطة قد انقرضوا تماماً من الوجود كقرامطة، وإن كان بعض مفاهيمهم ومبادئهم قد انتقل إلى فرق أخرى سوف يرد ذكرها لاحقاً.

---

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٦٨٨ و ج ٩ ص ٣٧ و ٤٢ ـ ٤٣

٢ ـ المنتفق: فرع من قبيلة بني عقيل المتفرّعة من عامر من صعصعة. موطنهم جنوب غربي اليمامة في جزيرة العرب. أقاموا أيّام الفتح بين الكوفة والبصرة. والمنتفق اليوم عشائر عراقيّة تسكن الناصريّة على الفرات الأسفل، وهي مركز قضاء الناصريّة.

٣ ـ الاحساء أو الحسا، أو هجر والبحرين، هو اليوم إقليم يشمل الساحل الشرقي في المملكة العربيّة السعوديّة من حدود الكويت إلى حدود قطر، قاعدته الدمّام.

٤ ـ القطيف: مدينة في منطقة الاحساء.

٥ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ٥٨ ـ ٥٩

وجلّ ما يمكن اعتباره بالنسبة الى هذه الحركة التي دامت أكثر من مائة عام، أنّها كانت حركة إجتماعيّة إشتراكيّة شعوبيّة أكثر منها حركة دينيّة. وكانت هذه الحركة، مثلها مثل سائر الحركات في الإسلام، ذات جذور شيعيّة متطرّفة. وقد نسب بعض المؤرّخين الكثير من الاتهامات الخلقيّة إلى القرامطة، ليس أقلّها إباحة نسائهم لبعضهم البعض من ضمن اشتراكيّتهم، وخروجهم عن الإيمان بالآخرة، إلاّ أنّ هذه الاتهامات تفتقر إلى السند الموثوق. ولكنّ الثابت أنّ القرامطة قد مارسوا نظاماً اشتراكيّاً متقدّماً جداً نسبة إلى تاريخ وجودهم. وقد وصف المقريزيّ[1] بعض تفاصيل هذا النظام، كما مارسها مؤسّس الدعوة: حمدان قرمط، فذكر أنّ قرمطاً بدأ بفرض ضريبة على أتباعه، سمّاها «الفطرة»، وكانت الفطرة درهماً يؤخذ من كلّ عضو ينتسب إلى الدعوة، سواء كان رجلاً أم امرأة أم صبيّاً، وإذ لبّى الأتباع الأمر، فرض عليهم لاحقاً ما سُمّي بـ «الهجرة»، وهي دينار واحد يؤخذ من كلّ بالغ، وذلك بالإستناد إلى الآية «خذ من أموالهم صدقة تطهرها وتزكيهم بها. وصلّ عليهم من صلاتك تسكن لهم والله سميع عليهم[2]». وفسّر لهم الآية بأنّها تعني الضريبة التي سمّاها الهجرة، فلبّوا الأمر متعاونين، وكانوا يسعفون من كان منهم فقيراً ليتمكّن من دفع الفرض. ثمّ فرض عليهم «البلغة» وهي سبعة دنانير، وذلك بالاستناد إلى الآية: «قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين[3]». وكان من يدفع سبعة دنانير عن البلغة يُطعمه شيئاً لذيذاً حلو الطعم بحجم البندقة ويقول: «هذا طعام أهل الجنّة». بعد ذلك فرض عليهم «الخُمس» من كلّ ما يملكونه ويكسبونه تالياً عليهم الآية: «واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فلله خُمسه[4]». ولم يبخل الأتباع بتقديم الخُمس من كلّ ما يملكونه بما في ذلك الثياب، وصارت المرأة تؤدّي له خُمس ما يخرج من غزلها، والرجل يقدّم خُمس ما يكسبه؛ ثمّ فرض

---

١ ـ المقريزيّ، فضائح الباطنيّة، ص ١ ـ ٢؛ راجع: عيّاش، ص ٢٣٦ ـ ٢٣٧

٢ ـ الآية ٩: ١٠٤

٣ ـ الآية ٧: ١١١

٤ ـ الآية ٨: ٤١

عليهم «الإلفة»، وهي أن يجمعوا أموالهم في مكان واحد، وأن يكونوا فيه أسرة واحدة لا يغفل أحد من أصحابه على صاحبه ولا أخيه في ملك يملكه بشيء البتّة، وقال لأتباعه: لا حاجة بكم إلى الأموال فإنّ الأرض بأسرها تكون لكم دون غيركم؛ وقال أيضاً: هذه محنتكم التي امتُحنتم بها ليعلم كيف تعملون. إضافة إلى هذا، ألزم حمدان أتباعه بشراء السلاح. وقد عممّ حمدان نظامه الاقتصادي - الاجتماعي - الاشتراكيّ هذا، إذ أقام في كلّ قرية رجلاً من الثقات تُجمع عنده الأموال والمتاع، وكان هذا الرجل يكسو عاريهم، وينفق عليهم ما يكفيهم حتّى لم يبقَ منهم فقير ولا محتاج.

حتّى إنّ إشتراكيّة القرامطة قد بلغت حدّ الشيوعيّة، إذ «أخذ كلّ رجل منهم بالاجتهاد في صنعته والكسب بجهده ليكون له الفضل برتبته، وجمعت إليه المرأة كسبها من مغزلها، وأدّى إليه الصبيّ أجرة نظارته وحراسته للطير ونحوه، ولم يبقَ في ملك أحد غير سيفه وسلاحه لا غير».

وقد اعتبر المقريزيّ، أنّ إشتراكيّة حمدان لم تقتصر على الأموال، بل تعدّتها إلى النساء، إذ يقول إنّ حمدانَ أمر الدعاة بجمع النساء في ليلة عيّنها لهم، ويقوم الرجال بمعاشرتهنّ قائلاً: «هذا من صحّة الودّ والإلف» وإنّ جماعته فعلوا ذلك[1].

وكما في الشيوعيّة، كذلك حرّر حمدان أتباعه من العديد من فرائض الدين، فأمر بالتخلّي عن الصوم والصلاة وجميع الفرائض، وقال لجماعته: «هذا كلّه موضوع عنكم، ودماء المخالفين وأموالهم حلال لكم، ومعرفة صاحب الحقّ تغنيكم عن كلّ شيء، ولا تخافون معه إثماً ولا عذاباً[2]».

١ - راجع: العيّاش، ص ٢٣٧ - ٢٣٨

٢ - البغدادي، الفرَق بين الفِرَق، ص ٢٩٧ - ٢٩٨؛ راجع: العيّاش، ص ٢٣٩ - ٢٤٠؛ للإطّلاع على المزيد، راجع: الديلمي، بيان مذهب الباطنيّة وبطلانه (استانبول ١٩٣٨)

لقد عنى حمدان، على مايبدو، بصاحب الحقّ، الإمام محمّد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وقال: «بهذا الإمام انسقت هذه الأمور ولولاه لهلك الخلق وعدم الهدى والعلم». حتّى إنّ بعض المؤرّخين نسب إلى القرامطة رسالة زعموا أنّها موجّهة من المهديّ إلى سليمان بن الحسن القرمطيّ، جاء فيها قول المهديّ إنّ «التحريمات مردّها إلى أنّ النبيّ حرّم الطيّبات وخوّف الناس بغائب لا يعقل وهو - الإله المزعوم - فاستعبدهم النبيّ بذلك، وجعلهم له في حياته ولذريّته بعد وفاته، واستباح بذلك أموالهم» وتساءل المهديّ في هذه الرسالة: «هل الجنّة إلاّ هذه الدنيا ونعيمها؟ وهل النار وعذابها إلاّ ما فيه أصحاب الشرائع من التّعب والنصب في الصلاة والصوم والجهاد والحجّ؟». ويقول المهديّ في رسالته المزعومة إلى سليمان القرمطيّ: «أنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس، وفي هذه الدنيا، وأنتم نعيمها ولذّاتها المحرّمة على الجاهلين المتمسّكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئاً لكم ما نلتم من الراحة عن أمرهم[1]».

على أيّ حال، فإنّ القرمطيّة أصبحت من التاريخ، ولا علاقة للفرق الشيعيّة المعاصرة بها.

وإذا كانت الدعوة القرمطيّة قد تمكّنت بهذه الأساليب من تحقيق ما حقّقته، فإنّ الإسماعيليّة الحقيقيّة، قد تمكّنت من تحقيق ما هو أعظم من ذلك بكثير، فلمرّة واحدة في التاريخ، جعلت الخلافة شيعيّة.

١ - أبو الحسن الملطي، التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع (مصر ١٩٤٩)؛ أبو منصور اليماني، كشف أسرار الباطنيّة وأخبار القرامطة.

الفصل الحادي عشر

الإسماعيليّون والخلافة الفاطميّة

- الأئمّة المستورون
- مسألة أصل عُبيدَ الله المهديّ
- أبو عبد الله الشيعيّ
- الخلافة الفاطميّة في طورها الأوّل
- أبو الحسن جوهر الصقلّيّ
- الحاكم بأمر الله
- انهيار الدولة الفاطميّة
- الحشّاشون

لمّا اختلف الشيعة على مسألة مَن يكون الإمام بعد موت جعفر الصادق سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م. وهو الإمام السادس، وقد عدل بعضهم عن الإمام موسى الكاظم، الذي اعتبره سائر الشيعة الإمام السابع، عدلوا إلى أخيه إسماعيل، فعُرفوا بالإسماعيليّة. وبما أنّ إسماعيل بن جعفر، كان قد توفّي قبل موت أبيه، فقال هؤلاء بإمامة ابنه محمّد بن إسماعيل، واختلفوا في من يكون الإمام السابع: إسماعيل أم ابنه محمّد؟ على أنّهم عرفوا جميعاً بالإسماعيليّين، وساروا على المعتقد نفسه، واتبعوا سلسلة الأئمّة نفسها، وهي تتمثّل، بعد إسماعيل ومحمّد، بابن محمّد: جعفر، ثمّ محمّد بن جعفر الملقّب بالحبيب. وقال الإسماعيليّة، وقد عرفوا أيضاً بالسبعيّة نسبة إلى الإمام السابع، قالوا بغيبة محمّد بن إسماعيل، واعتبروه المهديّ المنتظر[1]. واتّبعت هذه الطائفة التقيّة في مسلكها الدينيّ، وبقي أئمّتها في حالة من السرّيّة، عُرفت بحالة الستر، إتّقاء لشرّ الخلفاء العبّاسيّين ومناهضتهم لسلالة أهل البيت، فيما كانت العلاقات بين الخلفاء وأئمّة الاثني عشريّة (أو الإماميّة) من الشيعة، على الوضع الذي جاء تأريخه في الفصول السابقة.

بعد اختفاء محمّد بن إسماعيل الملقّب بمحمّد المكتوم، وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره، وقد اختفى في المدينة المنوّرة حيث وُلد، ويقال إنّه هرب خوفاً من غضبة الخليفة العبّاسيّ هارون الرّشيد، واختبأ في مكان بالقرب من الريّ في بلاد فارس، ولم يعد يعرف أحد عنه شيئاً، تفرّق نسله في الشرق والغرب، أمّا الأئمّة الذين جاؤوا بعده في المذهب الإسماعيليّ، فقد جعلوا من بلدة سَلَمِيَّة بين حمص وحماة مخبأً ومقاماً لهم. وتُعرف سلَميَّة اليوم بالسَّلْمِيَّة.

---

١ ـ راجع الفصل السابع من هذا البحث ص ٩ وما بعدها.

وباعتبار أنّ المهديّ، إنّما هو الإمام الغائب: محمّد المكتوم، وبانتظار ظهور المهديّ هذا (الذي هو غير المهديّ عند الاثني عشريّة) كان كلّما قام إمامٌ تسمّى بمحمّد، والإشارة بذلك إلى محمّد بن إسماعيل «والمراد بإسماعيل عبد الله، والمراد بمحمّد كلّ من كان في عصره... إلى أن يظهر صاحب الظهور، وهو محمّد، فتزول التقيّة التي بدأت في عهد جعفر الصادق وبأمر منه، وهو الذي، باعتقاد الإسماعيليّة، كتم اسم الإمام بعده إلاّ عن بعض الثقات[1]». وهكذا اتُّبعت السرّيّة التامّة في ستر الأئمّة. وقد بقي هؤلاء الأئمّة على هذه الحال من الستر حتّى ظهور عبيد الله المهديّ قبل نهاية القرن الثالث للهجرة (بداية القرن العاشر ميلاديّ).

وبحسب الإسماعيليّة، فإنّ آخر أولئك الأئمّة المستورين كان أحمد، الذي خلف أباه إسماعيل الثاني بن محمّد بن إسماعيل، وبه بدأ الستر.

مسألة أصل عبيد الله المهديّ

تقول الإسماعيليّة بأنّه كان لآخر الأئمّة المستورين ابن يدعى أبا محمّد عُبَيْد الله، وبأنّ أبا محمّد عبيد الله هذا، إنّما هو المهديّ المنتظر. وبذلك يكون عبيد الله هو ابن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمّد بن إسماعيل بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب.

غير أنّ هذا النسب قد تعرّض لكثير من التشكيك ومن التكذيب عبر التاريخ، خاصة من قبل مناهضي الإسماعيليّة من علماء الأنساب المسلمين.

وبينما نجد عند من يؤكّدون صحّة النسب بعض الاسناد، لا نجد عند المشكّكين والمكذّبين ما يمكن الركون إليه.

وقد زعم بعضهم أنّ عبيد الله فارسيّ الأصل، يعود نسبه إلى القدّاح عبد

---

١ - عبد الله المهديّ، في نسب الخلفاء الفاطميّين (بالاستناد إلى كتاب أرسله المهديّ عبد الله إلى ناحية اليمن) تقديم حسين فيض الله الهمذاني (القاهرة ١٩٥٨) ص ٩ - ١٠

الله بن ميمون بن ريصان المتوفّي بعد سنة ٢٧٦ هـ / ٨٨٩م. صاحب كتاب الميزان، الذي عدّوه الداعية الأوّل للباطنيّة، ونسبوا إليه «القدّاحيّة»، وقالوا إنّه لُقّب بالقدّاح لأنّه كان «يعالج العيون ويقدحها». وقد خلف القدّاح في تزعّم أتباعه من القدّاحيّة ابنه أحمد الملقّب بعبد الله، فراح، بالتعاون مع بعض الأنصار، يبثّ الدعوة الباطنيّة سرّاً، في نواحي العراق والجزيرة، ويبشّر بقرب مجيء المهديّ، ويجمع حوله المقاتلين والأنصار. وسرعان ما بثّ الدعاة في بلاد المغرب، وكان من جملة هؤلاء، رجل اسمه أبو عبد الله، أرسله ابن القدّاح إلى أرض كتامة من المغرب، ليكمل الدعاية التي كان قد بدأ بها رسولان سبقاه إلى هناك، فماتا بعد عمل ناجح استمرّ سنوات.

وتقول روايات أخرى بأنّه لمّا توفّي عبد الله بن ميمون القدّاح، ادّعى أبناؤه أنّهم من أحفاد عقيل بن أبي طالب، وأنّ آباءهم كانوا يسترون نسبهم إتّقاء لشرّ العبّاسيّين. وقد خلف عبد الله ولده محمّد الذي قاد الدعاة، ثمّ خلفه في ذلك ولداه: أحمد والحسين.

وبحسب هذه الروايات أنّ الحسين قد أصبح صاحب الأمر، «والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه ويراسلونه؛ واتّفق أنّه جرى بحضرته حديث النساء بسلميّة، فوصفوا له امرأة رجل يهوديّ حدّاد، مات عنها زوجها، وهي في غاية الحسن، فتزوّجها، ولها ولد من الحدّاد يماثلها في الجمال، فاحبّها وحسن موقعها معه، وأحبّ ولدها، وأدّبه، وعلّمه، فتعلّم العلم، وصارت له نفس عظيمة وهمّة كبيرة. وعندما مات الحسين، لم يكن له ولد، فعهد إلى ابن اليهوديّ الحدّاد، وكان عرّفه أسرار الدعوة... وأعطاه العلامات، وجعله الإمام الوصيّ، وزوّجه ابنة عمّه أبي الشلغلغ، وجعل له اسماً ونسباً هو: عبيد الله بن الحسن بن عليّ بن محمّد بن عليّ بن موسى بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب». وبحسب أصحاب هذا الرأي يكون أصل عبيد الله يهوديّاً.

ويغالي آخرون في التخمين بالنسبة لأصل عبيد الله، فيقولون بأنّ المهديّ

الحقيقيّ قُتل في سجن سجلماسة، وإنّ عبيد الله الذي خرج من السجن (كما سيجيء) لم يكن إلاّ يهودياً تقمّص شخصيّة الزعيم المنشود، ولعب دور المهديّ المنتظر[١].

جميع هذه الروايات، تبقى اجتهادات غير مبنيّة على أساس يركن إليه. ومع عدم نكران الغموض الذي يكتنف أصل عبيد الله، فما يجب التذكير به في هذا المجال، هو ذلك الخوف الذي كان مسيطراً على كلّ من ينتسب إلى بيت عليّ في تلك الحقبة من التاريخ، التي كان كلّ من يتجرّأ فيها على عدم الذمّ بأصل المهديّ، عبيد الله، يعرّض نفسه للقتل[٢]. وإذا كان عدد من مؤرّخي السنّة قد أكّد على عدم صحّة النسب العلويّ لعبيد الله، فإنّ مؤرّخين سنّة عظماء، قد أكّدوا على صحّة هذا النسب، ومنهم ابن خلدون، وابن الأثير[٣].

على أيّ حال، فالثّابت أنّ عبيد الله هذا، قد وُلد في سلميّة سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م[٤]. تلك البلدة المنعزلة الواقعة في بلاد الشام، إلى الجنوب الشرقيّ من حماة، والتي كانت قد غدت في ذلك الزمن، مقرّاً لرؤوس الإسماعيليّة، ومركزاً رئيسيّاً لنشاطهم.

أبو عبد الله الشيعيّ

أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن محمّد بن زكريّا، المعروف بعبد الله الشيعيّ، الذي أرسله الأئمّة الإسماعيليّون إلى بلاد المغرب لبثّ دعوتهم، كان في

١ - راجع: P. H. Mamour, Polemics on the Origin of the Fatimi caliphs (London, 1934), PP. 26 Seq., 43 seq., 124 seq.; W. Ivavow, Ismaili Tradition Concerning the rise of Fatimids (oxford, 1942). PP. XVII - XIX, P. 127 seq.; ابن خلّكان، ج ١ ص ٤٨٧؛ ابن تغري بردي، ج ٢ قسم ٢ ص ١١٢؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٤ - ٣٧؛ للاستفاضة، راجع: حسن وطه أحمد شرف، عبيد الله المهديّ (القاهرة ١٩٤٧)

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٤ - ٢٥

٣ - راجع: ابن خلدون، ج ٤ ص ٣١ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٢٤ وما بعدها.

٤ - راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤١

أوّل أمره شيعيّاً من الاثني عشريّة، لا من السبعيّة - الإسماعيليّة. وهو من مواليد صنعاء، عاصمة اليمن، وكان ذا مواهب وميّزات جعلت منه داعيةً إسماعيليّاً ممتازاً. وقد بدأ دعوته في حوالى سنة ٢٧٧ هـ / ٨٩٠ م. بين قبائل البربر، من بني كتامة، وقد قصد التقرّب منهم وهم في مكّة لتأدية فريضة الحجّ في تلك السنة. «فسمعهم يتحدّثون بفضائل أهل البيت، فأظهر استحسان ذلك، وحدّثهم بما لم يعلموه...» ثمّ ترافق معهم وهم في طريقهم إلى بلادهم، مدّعياً أنّه ذاهب إلى مصر. ولمّا وصلوا إلى مصر، تمنّوا عليه أن يرافقهم إلى بلادهم ويعدوه بإتّباعه ونصرته «ولم يزالوا حتّى أجابهم إلى المسير معهم، بعد الخضوع والسؤال». وكان وصول أبي عبد الله إلى أرض كتامة في بداية سنة ٢٨٠ هـ / ٨٩٢م[١].

عندما وصل أبو عبد الله الشيعيّ إلى إفريقية الشماليّة كانت هذه المنطقة من العالم مجزّأة سياسيّاً إلى دويلات، بعضها مستقلّ تماماً، وبعضها شبه مستقلّ، إضافة إلى توزّع مجموعات قبليّة في مناطق لا تعترف بأيّة سلطة سوى سلطة زعمائها القبليّين. وسط هذا التجزّؤ، كانت تلك الدويلات على غير مذهب، فبعضها كان شيعيّاً، وبعضها سنّيّاً، وبعضها الآخر من الخوارج. أضف إلى ذلك التوزّع العرقيّ، فبينما القبائل المحليّة كانت من العرق الحاميّ، كان الحاكمون ومن هاجر معهم من العرق الساميّ. وبذلك كان الجزء الشماليّ من إفريقية في حال عدم استقرار، لا بل في حال من التردّي الاقتصاديّ والاجتماعيّ. وكان الجزء الشرقيّ من إفريقية تحت حكم الطولونيّين السُنّة (٢٥٥ - ٢٩٣ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥م). وكانت عاصمتهم: القطائع، بالقرب من الفسطاس الواقعة بالقرب من بابليّون على الضفّة الشرقيّة للنيّل. أمّا القسم الأوسط من شماليّ إفريقية الذي يشمل تونس وغرب ليبية وشرق الجزائر، فكان تحت حكم الأغالبة السنّة أيضاً، الذين حكموا المنطقة بين ١٨٥ - ٢٩٧ هـ / ٨٠٠ - ٩٠٩ م. وجعلوا عاصمتها

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٣١ - ٣٢

القيروان التي تشكّل اليوم مدينة تونسيّة ومركز ولاية. وإذا كان الطولونيّون قد احتفظوا بشيء من الذكر للخليفة العبّاسيّ، فإنّ الأغالبة كانوا قد كفّوا عن نقش اسم الخليفة على نقودهم، ممّا يعني عدم الاعتراف بسلطته.

أمّا المغرب، الذي يشكّل الجزءالغربيّ من إفريقية، فكان قد أضحى دولة شيعيّة، هي دولة الأدارسة التي مرّ التعريف بها عبر الفصول السابقة، وقد دامت من سنة ١٧٢ هـ / ٧٨٨ م. إلى سنة ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م[1].

وسط هذه الأحوال، وصل أبو عبد الله الشيعي داعية للإسماعيليّة قبل نهاية القرن الثالث للهجرة، والقرن التاسع للميلاد. وبدهاء وذكاء خارقين، راح يستقطب حوله البربر، دون أن يذكر لهم في البداية أمر المهديّ. وقد انطلق أبو عبد الله مع بني كتامة في أعماله من مكان جبليّ يعرف بفجّ الأخيار، فقال لهم: «لقد جاء في الآثار: إنّ للمهديّ هجرة تنبو عن الأوطان، ينصره فيها الأخيار من أهل ذلك الزمان، قوم مشتقّ اسمهم من الكتمان، فإنّهم كتامة[2]». وبذلك أصبح بنو كتامة شعب المهديّ المختار، وغنيّ عن المعالجة إذّاك كيف أنّ قبائل كتامة والته إلى حدّ الفداء.

لم يمضِ وقت طويل حتّى تزعّم أبو عبد الله مناطق شاسعة من تلك التي لم يكن أهلها البربر ليعترفوا بأيّة سلطة قبل مجيئه. وكانت مناطقهم لا تزال على حال البراءة القياديّة القبليّة وسط تلك الدول المحيطة بها. وقد سبق تلك السيطرة عدّة معارك بين أبي عبد الله وأنصاره الكتاميّين وبين سائر قبائل البربر، وكان النصر دائماً حليف الداعية الأسماعيليّ، وكانت النتيجة مزيداً من الاستقطاب والتوسّع، إلى أن بلغ وضعاً ممتازاً لكثرة ما أصبح لديه من أتباع ومقاتلين، ولنوعيّة التنظيم العسكريّ والسياسيّ الذي أجاد تطبيقه، فأصبح مستعدِاً للانقضاض على الدويلات الإفريقيّة المبعثرة.

---

١ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤٣ ـ ١٤٤

٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٣٢ ـ ٣٣

بدأ أبو عبد الله تطبيق طموحاته بالدولة الأغلبيّة. وكان قد بلغ عدد أفراد جيشه نحو مائتي ألف مقاتل بين فارس وراجل. وراحت حصون الأغالبة تسقط تباعاً أمام الجيش البربريّ ـ الإسماعيليّ الظافر، بعد أن كان أبو عبد الله قد باح للناس بأمر المهديّ: عبيد الله.

في هذه الأثناء، كان أمر عبيد الله المهديّ قد شاع في سلميّة، ووصلت أخباره إلى الخليفة العبّاسيّ السابع عشر: المكتفي (٢٨٩ ـ ٢٩٥ هـ / ٩٠٢ ـ ٩٠٨ م.) الذي سارع إلى إرسال الجواسيس لقتله، فهرب عبيد الله ومعه ابنه أبو القاسم نزار، الذي كان يومئذ غلاماً، والذي سيتزعّم الفاطميّين بعد أبيه وسيلقّب بالقائم. واصطحب عبيد الله المهديّ معه خاصّته ومواليه، واتجه نحو المغرب، مُتخفّياً بزيّ التجّار. وعندما وصل إلى مصر، كان واليها قد تلقّى كتاب الخليفة العبّاسيّ الملحّ في طلب القبض عليه وقتله. وبفضل تشيّع بعض موظّفي الولاية، تسرّبت المعلومات إلى موكب عبيد الله الذي تمكّن من الخروج من مصر مع أصحابه متخفّياً، ومعه أموال كثيرة، وقد أوسع النفقة على من صحبه. بيدَ أنّ العامل المصريّ قد تمكّن من إدراك المهديّ قبل خروجه من أرض ولايته. ولا شكّ في أنّ الأموال لعبت دورها التقليديّ هنا، وأكمل المهديّ وصحبه مسيرهم حتّى وصلوا إلى مدينة طرابلس الغرب، رغم تعرّض قافلتهم لهجمات اللصوص الذين تمكّنوا من السطو على بعض متاعها، ومن جملتها «كتب وملاحم لآبائه، عظم أمرها عليه...». وكان مع المهديّ أخ لأبي عبد الله، اسمه أبو العبّاس، فأرسله من هناك إلى أخيه عبد الله الشيعيّ في أرض كتامة. ولكنّ الحاكم الأغلبي في القيروان، قبض على أبي القاسم، قبل أن يصل إلى أخيه. ذلك أنّ الملك الأغلبيّ: زيادة الله الثالث (٢٩١ ـ ٢٩٧ هـ / ٩٠٣ ـ ٩٠٩ م.) كان جمع المعلومات الكاملة حول تحرّكات المهديّ وأصحابه. في الوقت نفسه، كان المهديّ يتلقّى المعلومات من عبد اللّه الذي لم ينقطع عن مراسلته أبداً. لذلك فضّل المهديّ الانتقال من طرابلس إلى مكان آخر، بانتظار التمكّن من العبور إلى أرض كتامة. وعندما التقى قافلة في طريقها إلى

سجلماسة، في أقصى الجنوب من مراكش، ذهب معها. وكان والي تلك المدينة من الخوارج، الذين يضمرون العداء لكلّ متشيّع، خاصّة إذا كان يمتّ بأيّ نسب الى آل البيت. غير أنّ ذلك الخارجيّ لم يعرف حقيقة أمر عبيد الله ونسبه فأنزله ضيفاً في داره، مقابل الكرم السخيّ لذلك الضيف المميّز. ولكن لم يطل الوقت حتّى أتت ذلك الخارجيّ المعلومات عن حقيقة ضيفه، فسارع إلى اعتقاله وإلقائه في السجن، وأمر بتعذيبه حتّى يبوح بحقيقة شخصه وأهدافه، بيدَ أنّ عبيد الله لم يبح بشيء، كذلك فعل ابنه السجين في زنزانة أخرى.

كان عبيد الله، وهو في سجنه بسجلماسة، يتلقّى الأخبار عن تقدّم أبي عبد الله في فتوحاته، وانهيار أسطورة قوّة الأغالبة التي لا تقهر، أمام جيشه الظافر. ولم يمضِ وقت طويل حتّى كانت القيروان، عاصمة الأغالبة، تطلب الاستسلام إلى أبي عبد الله وجيشه الإسماعيليّ بعد أن أصبح هذا الجيش على مشارف مداخل رقّادة: مقرّ سكن ملوك الأغالبة القريب من العاصمة. وبسقوط القيروان، أصبحت السيطرة الإسماعيليّة على إفريقية أمراً محتوماً.

بينما اتّخذ أبو عبد الله الشيعيّ القصر الملكيّ مقراً له، وراح يتصرّف تصرّف الملوك، وجيشه يتنعّم بنساء المدينة المغلوبة على أمرها وبشرابها وبطعامها، ويتقاسم كنوزها ومغانمها، كان المهديّ لا يزال سجين سجلماسة. وأعطى أبو عبد الله نفسه الوقت لسكّ نقوده، وقد نقش على وجهها: «بلغت حجّة الله» وعلى قفاها «تشتّت أعداء الله». ونقش على خاتمه «فتوكّل على الله إنّك على الحقّ مبين[1]» وكتب على رايته: «سيهزم الجمع ويولّون الدبر[2]». وعلى أفخاذ خيله «الحكم لله». وعندما كان يركب كان المنادي يصيح: «إركبوا يا جنود الله». ولم يذكر في صلاة الجمعة أسماء الخلفاء، وإنّما كان يذكر النبيّ محمداً والحسين

١ ـ سورة النمل: ٨١
٢ ـ سورة القمر: ٤٥

وفاطمة. ونلاحظ هنا أنّ أبا عبد الله قد ساير الخوارج، إن في عبارة «الحكم لله» أم في تجاهل عليّ في الدعاء. كما نلاحظ أنّ الاعتبار الإسماعيليّ لسلالة أهل البيت إنّما هو اعتبار لفاطمة وليس لعليّ، وهذا ما سوف يعطي للدولة الإسماعيليّة اسم: الفاطميّة.

كان أبو عبد الله، إثر سيطرته على القيروان، قد أخرج أخاه أبا العبّاس من السجن سالماً معافى. وبعد انقضاء ثلاثة أشهر على فتح القيروان، توجّه أبو عبد الله جنوباً لإخراج عبيد الله المهديّ من سجنه، وكلّف أبا العبّاس بتصريف الشؤون بغيابه. وكانت القبائل والمدن الواقعة على طريق أبي عبد الله تعلن له الخضوع دونما مقاومة، باستثناء سجلماسة، التي حاولت الدفاع، بيدَ أنّها سقطت سريعاً، ولم ينجُ واليها من القتل.

يروي أكثر المؤرّخين أنّ أبا عبد الله، عندما دخل سجلماسة برجاله منتصراً، قصد سجن عبيد الله المهديّ، وحرّره منه هو وابنه «فكانت الناس في مسرّة عظيمة كادت تذهب بعقولهم»، وقد عمد أبو عبد الله إلى التطواف بالمهديّ وابنه راكبَين على المطايا، وهو ورؤساء القبائل سائرون حولهما، وأبو عبد الله يقول للناس: «هذا مولاكم» وهو يبكي من شدّة الفرح[1].

إلاّ أنّ بعض المشكّكين بحقيقة المهديّ من المؤرّخين، يذكر أنّ «أبا عبد الله الشيعيّ عندما دخل زنزانة عبيد الله وجده ميتاً، كما وجد في الزنزانة مولًى له يهوديّاً، فأخذ اليهوديّ وادّعى أنّه المهديّ[2]». ولكن ليس هناك ما يثبّت صحّة هذا الخبر[3].

منذ ذلك اليوم، زال عهد تستّر الأئمّة الإسماعيليّين، وأُلبس عبيد الله المهديّ الثياب الحريريّة وسط خفقان الرايات الفاطميّة، وقد نشأت بذلك سلالة

١ ـ راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٣١ ـ ٤٧؛ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤٣ ـ ١٤٧
٢ ـ ابن خلّكان، ج ١، ص ٤٨٧.
٣ ـ راجع: حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٤٧

خلافيّة جديدة، هي السلالة الفاطميّة، وتُعرف أيضاً بالعلويّة وبالعبيديّة، نسبة إلى عبيد الله.

بقي القوم يحتفلون أربعين يوماً في سجلماسة، بظهور المهديّ، وقد وضعوا على رأسه عمامة تليق بمقامه، وصنعوا له سرادقاً عليه ما سُمّي بعرش السماء، ليجلس المهديّ عليه، وهو السيّد والمولّى الجديد المطاع. وبعد انقضاء كلّ هذا، انتقل المهديّ مع صحبه إلى رقّادة[1] في نهاية شهر ربيع الآخر من سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م. فاستقبله أهلها وأهل القيروان ورؤساء البربر مشاة «بين يديه»، وولده خلفه، ونزل بقصر من قصور الأغالبة، وأصبح اسمه هو المذكور في الخطبة بالبلاد، وتَلقَّب عبيد الله، بالمهديّ أمير المؤمنين[2] ». وبذلك يبدأ عهد الخلافة الفاطميّة.

سرعان ما بدأ عبيد الله بإدارة شؤون دولته بنفسه، ورغم أنّ أبا عبد الله كان قد انتزع هذه الدولة وهيّأ للمهديّ كلّ شيءٍ لترؤّسها، وانتزعه من سجن سجلماسة بعد حرب قلّ نظيرها بطولةً وإقداماً وجهاداً، فقد كفّ المهديّ يدي أبي عبد الله وأخيه أبي العبّاس، الذي «عظم عليه الفطام عن الأمر والنهي والأخذ والعطاء» فراح يقبّح سرّاً بالمهديّ في مجلس أخيه أبي عبد الله، الذي حاول نهيه عن ذلك دون جدوى، ولكنّ العكس حصل، إذ تمكّن أبو العبّاس من إقناع أخيه بعقّ المهديّ، ممّا جعل أبا عبد الله يقول يوماً للمهديّ: «لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم، لأنّي عارف بعاداتهم، لكان أهيب لك في أعين الناس». وإذ كان عبيد الله قد سمع شيئاً ممّا يجري بين أبي عبد الله وأخيه» تأكّد من صحّة الإشاعات إثر بوح أبي عبد الله برغبته. وبالرغم من أنّ جوابه لعبد الله كان لطيفاً، فقد اعتمد الحيطة والحذر والمراقبة... إلى أن اتّصل به ما كان يهيّئ له أبو العبّاس من أجل اغتياله، بمشاركةٍ وتدبيرٍ من قبل أبي عبد الله، فأمر

١ - هي اليوم في تونس، أسّسها إبراهيم الثاني الأغلبي سنة ٨٧٦م. وجعل منها قاعدة دولة الأغالبة في إفريقية.

٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٤٩

المهديّ رجاله بقتل أبي عبد الله وأخيه أبي العبّاس. وعندما وضع أحدهم السيف على ذلك الذي صنع للمهديّ دولة، قال له أبو عبد الله: «لا تفعل يا بنيّ» فردّ الجلّاد: «الذي أمرتنا بطاعته أمرَنا بقتلك» وأنهى السيف ذلك الذي أنهى دولة الأغالبة ومُلك بني مدرار الذين كان لهم مائة وثلاثون سنة منفردين بحكم سجلماسة، ومُلك بني رستم من تاهَرت وكان لهم مائة وستّون سنة منفردين بحكم تاهرت، واستوعب قبائل البربر، وقدّم كلّ ذلك على طبق من فضّة لرجل آمن به، هو عبيد الله، الذي أصبح المهديَّ أمير المؤمنين. وتمكّن أمير المؤمنين من خنق الفتنة التي ثارت إثر اغتيال أبي عبد الله وشقيقه. واستتبّ الحكم نهائيّاً لعبيد الله[1].

الخلافة الفاطمية
في طورها الأول

كان الذي قتل أبا عبد الله وأخاه أبا العبّاس بأمر من المهديّ، رجلاً من كتامة، اسمه عروبة بن يوسف، وقد أصبح عروبة فيما بعد أحد كبار قادة الفتوحات في جيش المهديّ، وقد تمكّن فعلاً من تحقيق النصر للمهديّ، خاصة في «تاهَرت» عاصمة قبيلة زناتة البربريّة التي دخلها عروبة بعد حصار شديد، فسقطت سنة ٢٩٩ هـ / ٩١١ م. فاستبحيت، وقتل من أهلها ثمانية آلاف. وقد جعل عروبة تاهَرت مقرّاً له ومنطلقاً لحملاته العسكريّة، لحساب سيّده المهديّ، في أقصى المغرب. بيدَ أنّ عروبة هذا، قد لاقى حتفه على يد عبيد الله، كما لاقى حتفه من قَبل أبو عبد الله الشيعيّ على يد عروبة بأمر من عبيد الله. لذلك وصف أحد كبار البحّاثين المعاصرين شخصيّة عبيد الله المهديّ، بأنّها كانت «مصنوعة من المادّة الصلبة التي صنعت الزعماء والقادة والمغامرين: العزم، والمثابرة، والشجاعة، والإقدام... أمّا العرفان بالجميل فأمر لا شأن له في تكوين هذا الرجل... وكانت

١ - المرجع السابق، ص ٥١ - ٥٣

القوّة الدافعة والحافز الشديد، حبّه للقوّة والسيطرة، التي هي غاية تبرّر كلّ وسيلة في سبيل الوصول إليها[1] ».

ومن تطوّر الأحداث فيما بعد، يتّضح جليّاً أنّ غاية عبيد الله لم تكن دينيّة بقدر ما كانت سلطويّة. فهو لم يصرّ على الأهلين بأن يعتنقوا المذهب الشيعيّ الإسماعيليّ، مع أنّ معظم سكّان المدن كانوا من السنّة. وقد جعل مذهبه مغلّفاً بغشاء رقيق من السنّة ومذاهب شيعيّة أخرى. وبدأ العنصر الدينيّ في الدعوة ينحسر ليحلّ محلّه العنصر العلمانيّ، واستحال عبيد الله المهديّ، الزعيم الدينيّ، شيئاً فشيئاً إلى حاكم إداريّ. فقد كان عليه أن يحكم ملكاً شاسعاً يمتدّ نظريّاً من برقة إلى مشارف فاس. فراح يحذو حذو الأغالبة في الحكم وتصريف الشؤون، مستفيداً من تنظيمهم الذي على رأسه إداريّون وفنّيّون وموظّفون مدرّبون، أمّا في المراكز العليا الحسّاسة، فقد أقام إسماعيليّين من جماعته، وبعث إلى الولايات عمّالاً من قبيلة كتامة. أمّا القضاة فكانوا إسماعيليّين. وقد حرص عبيد الله على حسن اختيار عمّاله، ويشهد على ذلك الأعمال العظيمة التي كانوا يقومون بها في خدمة الدولة، والتي لم تقتصر على قمع الحركات الانفصاليّة والقبض على زمام الأمور، بل تعدّت ذلك إلى ما هو أكثر مستقبليّة، إذ تمكّن عمّال طرابلس الغرب من البدء بالتحرّش بمصر التي كانت تتخبّط في حالة من الفوضى السياسيّة. وفي صقلّية، أفلح العمّال في تنظيم الانتقال من حكم الأغالبة إلى الحكم الفاطميّ، وذلك عن طريق المصالحة أحياناً، أو عن طريق القوّة أحياناً أخرى. وكانت مهمّة الأسطول الذي انتقل الآن من الأغالبة إلى الفاطميّين، كما كانت أيّام الأغالبة: القيام بغزوات على شواطئ إيطالية الجنوبيّة وغيرها من البلدان الأوروبيّة بقصد إزعاجها، وحماية شواطئ إفريقية الشماليّة من غزوات الروم. ورجّح بعض المؤرّخين أنّ بحّارة الأسطول آنذاك كانوا لا يزالون من مرتزقة الروم[2].

١ - حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٥٩
٢ - المرجع السابق، ص ١٥٠

على العموم، لم يكن من السهل على أيّ كان، أن يتمكّن من تثبيت أقدام أمبراطوريّة جديدة في قلب ذلك العالم المتفجّر، مثلما فعل عبيد الله، الذي لم يتوانَ عن استعمال شتّى أساليب العنف والدسّ والدهاء من أجل صون مملكته الجديدة وتوسيعها.

فعلى الصعيد الداخليّ، كان على عبيد أن يقمع سلسلة من الثورات التي قامت ضدّه لأسباب عدّة، منها النّقمة التي قابل بها بنو كتامة عمليّة قتل أبي عبد الله، وقد زعم بعضهم أنّ أبا عبد الله لم يمت، وأنّه لا يزال حيّاً يطلب إليهم «أن يحاربوا الآن من كان يطلب إليهم أن يحاربوا من أجله». بينما أعلنت قبيلة أخرى عن ظهور مهديّ جديد، ناسبين المهديّة إلى أحد الأطفال، فسارع عبيد الله إلى إرسال ابنه: «القائم» لقمع تلك الحركة، وقد تمكّن القائم من تخريب مضارب القبيلة وإحراقها وأخذ الطفل مع عدد من الأسرى إلى عاصمة أبيه، حيث قُتلوا جميعاً. ووسط هذا العنف، قامت الفتن الخطيرة في مختلف أنحاء المملكة الجديدة، فهدّدت كيانها الطريّ جدّياً، بيدَ أنّ عبيد الله قد تمكّن من التغلّب عليها جميعاً برباطة جأش قلّ نظيرها. وراح، في الوقت ذاته يتطلّع إلى التوسّع شرقاً نحو مصر، وغرباً نحو دولة الأدارسة الشيعيّة، ونحو قرطبة التي كان قد تسنّم عرشها بعد ظهور عبيد الله بقليل، الأمويّ عبد الرحمن الثالث الذي أعلن نفسه، هو الآخر، خليفة سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م. ولأوّل مرّة في التاريخ، انقسم العالم الإسلاميّ إلى ثلاث خلافات متعادية: العبّاسيّة في بغداد، والأمويّة في الأندلس، والفاطميّة في إفريقية. ولقد كان المجال الوحيد للتوسّع أمام الخلافة الأمويّة الأندلسيّة، المجال الجنوبيّ، أي: الدولة الفاطميّة. فكان على عبيد الله أن يحتاط لهذا الخطر. وقد استعمل الأمويّون في الأندلس قبيلة صنهاجة السنّيّة لتكون رأس حربة لهم في إفريقية، تزرع الفتن وتنشر الدمار.

سيطر عبيد الله على معظم دولة الأدارسة الذين انكفأوا إلى فاس. وفي الوقت نفسه، سارع إلى البدء ببناء عاصمة جديدة منيعة، اختار لها موقعاً يحيط

به البحر من ثلاث جهات، يقع على مسافة سبعين ميلاً جنوبيّ القيروان. وقد جاءت عاصمته هذه كناية عن حصن منيع يعتصم به عند الحاجة، ومنه يوجّه هجماته على الخارجين عليه، ويوجّه حروبه الخارجيّة. وأطلق على هذه العاصمة الحصن اسم المهديّة نسبة إليه. وقد «جعل لها سوراً محكماً وأبواباً عظيمة وزن كلّ مصراع مائة قنطار». وقد أشرف المهديّ شخصيّاً على بناء مدينته المحصّنة، التي احتوت على دار للصناعة، وأهراء للطعام، وخزّانات للمياه، إضافة إلى القصور والدّور، فلمّا فرغ منها نظر إليها وقال: اليوم أمنتُ على الفاطميّات[1]».

كانت هذه العاصمة المحصّنة أشبه برأس حربة موجّهة إلى قلب مصر[2]. وكان بناؤها منماً عن أنّ مصر، كانت الغنيمة التي تطلّع إليها عبيد الله بشوق، ذلك أنّ وراء مصر إلى الشرق، عدوّه اللدود: العبّاسيّين. وقد كان الحكم في مصر، يومذاك، عبّاسيّاً، وكان مسُوداً بالفوضى والقلق، إذ كانت الفترة انتقاليّة من حكم الطولونيّين إلى الأخشيديّين، أمّا الخضوع للعبّاسيّين فكان اسميّاً، ولم يكن الخليفة العبّاسيّ بدوره مستقلاً تمام الاستقلال، بل كان خاضعاً لرئيس حرس البلاط، القائد التركيّ الخصيّ.

وكان المهديّ قد حاول سنة ٣٠٢ هـ / ٩١٤ م. الاستيلاء على الإسكندريّة، إذ أرسل حملة بحريّة بقيادة رجل يدعى حُباسة، وما أن نزل الجيش الاسماعيليّ في مصر، حتّى أرسل الخليفة العبّاسيّ الثامن عشر: المقتدر، جيشاً إليها بقيادة مؤنس الخادم لصدّ الهجمة الفاطميّة. وبعد قتال شديد تميّز بالكرّ والفرّ، «انهزم المغاربة أصحاب عبيد الله العلويّ، وقُتلوا وأُسروا، وبلغ عدد القتلى سبعة آلاف مع الأسرى، وهرب الباقون. فلمّا وصلوا إلى الغرب، قَتل المهديُّ قائده حباسة». وبعد خمس سنوات، وكانت مدينة المهديّة قد أُنجزت، أرسل عبيد الله حملة ثانية إلى

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٩٤ ـ ٩٥
٢ ـ حتّي، صانعو التاريخ العربي، ص ١٥٦

مصر، بقيادة ابنه أبي القاسم القائم هذه المرّة، «بعد أن جهّز لها جيشاً كثيفاً» فتمكّن ابن عبيد الله من دخول الإسكندريّة التي فرّ منها العامل العبّاسيّ، ومن الإسكندريّة انتقل القائم إلى الجيزة، فملك الأشمونيّين وجزءاً كبيراً من الصعيد، وكتب إلى أهل مكّة المكرّمة يدعوهم إلى الدخول في طاعته، فلم يقبلوا. ومرّة أخرى، سارع الخليفة العبّاسيّ إلى إرسال مؤنس الخادم لقتال القائم الفاطميّ، فنشبت بين القوّتين معارك بحريّة وبرّيّة قاسية، كان النصر بنتيجتها للقائد العبّاسيّ مؤنس الخادم، الذي لُقّب منذ ذلك الحين بمؤنس المظفّر. أمّا القائم، فعاد إلى إفريقية مهزوماً بعد أن فقد أكثر رجاله[1].

وهكذا، لم يتسنَّ لعبيد الله أن يحقّق حلمه الكبير، وإن كان هذا الحلم سيتحقّق على يد من سيليه، حين تصبح مصر قاعدة الخلافة الفاطميّة. أمّا عبيد الله، فقد مات سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م. في العاصمة التي أنشأها وعمره أكثر من ستّين سنة بقليل. وقد روي أنّ ابنه أبا القاسم، قد أخفى موته لمدّة سنة كاملة، خوفاً من أن يختلف الناس إذا علموا بذلك. ولم يعلن القائم عن موت أبيه إلاّ بعد أن تدبّر أمور المملكة بشكل كامل، وقضى على كل صاحب فتنة محتمل[2].

مهما كان الرأي بعبيد الله المهديّ، ومهما كان أصل هذا الرّجل، فما لا يمكن تجاهله هو أنّه استطاع أن يحقّق حلماً شيعيّاً كان عمره أقلّ من ثلاثة قرون بقليل، بإنشائه خلافة شيعيّة عظيمة، سوف تغيّر، وإن إلى حين، شيئاً من مجرى التاريخ. وإذا اعتبرنا بدء الخلافة الفاطميّة مع إعلان المهديّ نفسه أميراً للمؤمنين، يكون عبيد الله المهديّ، الخليفة الفاطميّ الأوّل قد حكم من سنة ٢٩٧ هـ / ٩٠٩ م. إلى سنة ٣٢٢ هـ / ٩٣٣ م. لتنتقل الخلافة من بعده إلى ابنه الوحيد: أبي القاسم الملقّب بالقائم بأمر الله.

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٨٩، ١١٣ ـ ١١٤
٢ ـ المرجع السابق، ص ٢٨٤

إذا كان الفاطميّون مدينين لأبي عبد الله الشيعيّ بتأسيس خلافتهم، دعوة وقوّة، في بلاد المغرب، فهم مدينون بالقدر نفسه إلى رجل آخر لا علاقة له بالسلالة الفاطميّة، حتّى إنّه ليس من أصل شيعيّ ولا إسماعيليّ ولا حتّى مسلم ولا عربي، هم مدينون له بإنشاء أمبراطوريّتهم العظيمة. هذا الرجل، اسمه جوهر الصقلّي، ونادراً ما ذُكر اسمه كاملاً، إنّما ذُكر غالباً باسم جوهر فقط. فجوهر هذا، وُلد في أرض الروم مسيحيّاً، وقد سُبي إلى القيروان مملوكاً، وراح يترقّى في الوظائف إلى أن غدا فاطميّاً تمكّن من تحقيق ما عجز عنه ثلاثة خلفاء فاطميّين على التوالي، إذ فتح مصر للخليفة الفاطميّ الرابع: المعزّ لدين الله (٣٤١ - ٣٦٥ هـ / ٩٥٣ - ٩٧٥ م.) وأسّس فيها مدينة القاهرة التي ستصبح قاعدة الخلافة الفاطميّة، ومن ثمّ أشهر مدن القارّة الإفريقيّة على الإطلاق. كذلك بنى جوهر في القاهرة المسجد الجامعيّ المعروف بالأزهر، وهو أقدم المؤسّسات الإسلاميّة وأعظمها طرّاً في العالم قاطبة. وهو الذي طرد الأخشيديّين من مصر إلى سورية نهائيّاً سنة ٣٥٩ هـ / ٩٦٩ م[١].

قبْل جوهر، كان قد تعاقب على الخلافة الفاطميّة ثلاثة خلفاء بعد الخليفة الأوّل عبيد الله المهديّ، أوّلهم ابنه القائم بأمر الله أبو العبّاس. ورغم أنّ القائم قد أخّر إعلان موت أبيه سنة كاملة ليرتّب له أمور الحكم قبل أن يثور المترقّبون، فما أن آلت إليه الخلافة حتّى اندلعت نار الثورة في بعض أجزاء المملكة، وانحاز بعض زعماء القبائل إلى عبد الرحمن الناصر الأمويّ بالأندلس. كذلك ثار على القائم خارجيّ اسمه أبو يزيد، كان قد اشتهر بعدائه للإسماعيليّة، وقد اجتمع إليه سائر الخوارج، فقويت بهم شوكته، خاصّة بعد أن أخذ عليهم البيعة لنفسه على قتال

١ - راجع: ابن خلّكان، ج ١ ص ٢٠٩ - ٢١٣؛ المقريزي، ج ١ ص ٣٧٧ وما بعدها؛ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٥٩٠ - ٥٩١، ج ٩ ص ٩٠

الإسماعيليّة وسبيهم واستباحة غنائمهم. فحاصر أبو يزيد المهديّة الحصينة حصاراً شديداً، ممّا أحلّ البلاءَ والمجاعة في أهلها الذين اضطروا إلى أكل الدواب الميتة. وقد استطاع بعضهم أن يهرب مهاجراً إلى مصر وطرابلس وبلاد الروم. بيدَ أنّ أصحاب يزيد المحاصِرين، تمكّنوا من القبض على عدد كبير من الفارّين، فكانوا يشقّون بطونهم طلباً للذهب المهرّب. وراحت الغوغاء تتوافد على أبي يزيد الخارجيّ من كل صوب بهدف النهب وسلب المغانم. ولمّا تأكّد للخوارج أنّه لم يبقَ في المهديّة ما يُنهب، تخلّوا عن أبي يزيد، الذي فكّ الحصار تاركاً المملكة الإسماعيليّة في وضع من القلّة كان على القائم أن يجتهد للتغلّب عليه. وعندما مات القائم سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٦ م. كان أبو يزيد لا يزال يشكّل تهديداً جدّيّاً للمملكة الفاطميّة، وكان على خلفه: المنصور، أن يبدأ ولايته وسط هذا الخطر[١].

كان على إسماعيل، ابن أبي القاسم القائم بأمر الله، أن يفعل، عند موت أبيه، كما فعل أبوه عند موت جدّه، فكتم موت أبيه عن النّاس «فأبقى الأمور على حالها، ولم يتسمَّ بالخليفة، ولم يغيّر السكّة، ولا الخطبة، ولا البنود»... ذلك أنّه كان في حالة حرب مريرة مع أبي يزيد الخارجيّ في سوسة، المدينة التونسيّة الواقعة على المتوسّط. وكان أبو يزيد يحاصر تلك المدينة منذ أشهر. وما أن أصبح الأمر لإسماعيل حتّى شنّ هجوماً بحريّاً صاعقاً على المحاصِرين، ممّا أدّى إلى انهزامهم شرّ هزيمة، بعد أن قُتل من الخوارج عدد كبير، وفرّ أبو يزيد إلى القيروان، فاصطحب عياله ولجأ إلى سبيبة على مسافة يومين من القيروان. حينها أعلن إسماعيل عن موت أبيه، وتسنّم سدّة الخلافة بعد أن لقّب نفسه بالمنصور. وراح يتعقّب الزعيم الخارجيّ من مكان إلى مكان متكبّداً مع جيشه عناءً شديداً بسبب وعورة المسالك التي سلكوها، وقد أُصيب المنصور بالإعياء والمرض، قبل أن يتمكّن من إدراك أبي يزيد في قلعة كتامة، حيث حصلت معركة يائسة وشديدة

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٤٢٢ - ٤٣٤.

العنف والخسائر، سقط بنهايتها أبو يزيد صريعاً بعد أن فرّ أكثر رجاله. وكان انتقام المنصور منه عظيماً، إذ أمر بسلخ جلده وحشوه تبناً. وأمر بالكُتُب إلى البلا د بالبشارة. وأصبح من السهل على المنصور فيما بعد أن يتغلّب على بعض الخوارج الذين حاولوا الثورة عليه[1].

تميّز المنصور بشجاعته وفصاحته وحسن تدبيره، إلاّ أنّه لم يتمكّن من توسيع مملكة جدّه بسبب سوء حالها الذي آلت إليه جرّاء ثورة الخوارج، فكان عليه أن يعمل على إعادة إنعاش البلاد، وتقوية الجيش، وإعادة بناء الأسطول. ومن إنجازاته إضافة إلى كلّ هذا، إنشاؤه مدينة المنصوريّة التي جعلها عاصمة ملكه. وينسب المحقّقون إليه الفضل في إعادة القرامطة للحجر الأسود إلى مكّة، بعد أن أمرهم المنصور بوجوب إعادته. لكنّ عمر هذا الخليفة كان قصيراً، إذ مات سنة ٣٤١ هـ / ٩٥٣ م. وعمره تسع وثلاثون سنة إثر مرض أصابه بسبب تعرّضه للصقيع. وإثر دفنه في قصره، وُلّي الأمر بعده ابنه: معدّ، الذي لُقّب بالمعزّ لدين الله، وكان عمره أربعاً وعشرين سنة[2].

تميّز الخليفة الفاطميّ الرابع بالثقافة والولع بالعلوم والآداب وحسن التدبير وإحكام الأمور، وقد تمكّن سريعاً من تطويع قبائل البربر التي دانت له وأطاعته على ما بينها من خلاف. وبعد أن أشاع الأمن في مملكته الإفريقيّة، راح يعدّ العدّة لغزو مصر، التي تعتبر بالنسبة الى موقعها باب بلاد الشام والعراق والحجاز. وعمل في الوقت نفسه على إنشاء الطرق داخل مملكته، وهيّأ الآبار على طريق مصر، وأقام المنازل على رأس كل مرحلة مسير. ولمّا وصلته أخبار وفاة الملك الأخشيدي كافور سنة ٣٥٧ هـ / ٩٦٧ م. راح يعدّ الجيش والمال لغزو مصر، إذ رأى أنّ فرصة تحقيق الهدف الذي عجز عنه آباؤه قد حانت. وما أن حلّت سنة

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٤٣٤، ٤٣٨ ـ ٤٤١

٢ ـ المرجع السابق، ص ٤٩٧ ـ ٤٩٨

٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م. حتّى كان أبو الحسن جوهر الصقلّي على رأس جيش زاحف على مصر تنفيذاً لأمر مولاه.

دخل جوهر مصر بجيشه الإسماعيليّ من دون مقاومة، ذلك أنّ العسكر الأخشيديّ كان قد هرب قبل وصول الإسماعيليّين وفور انتشار نبإ زحف جوهر الذي ما أن حطّ بمصر، حتّى أذّن المؤذّنون بحيّ على العمل، وأُقيمت الدعوة للمعزّ، وبدأ العمل ببناء القاهرة. وبعد وقت قصير، سيّر جوهر حملة إلى بلاد الشام بقيادة جعفر بن فلاح، فأطاح القرامطة والعبّاسيّين والأتراك وامتلك دمشق. ثم إنّ الروم دخلوا دمشق وسائر مدن المنطقة في السنة نفسها، ففضّل القائد الفاطميّ عدم المقاومة نظراً لتفاوت القوى. وما أن خرج الروم من دمشق في السنة التالية حتّى سارع القرامطة إلى انتزاعها من يد العامل الإسماعيليّ بعد أن قتلوه. بينما انتقل الخليفة الفاطميّ: المعزّ بأمر الله، إلى الديار المصريّة، ومعه كنوز الخلافة وهيئاتها كاملة، فاستقبله المصريّون بالتبجيل والإكرام، ورحّبوا بنقله مركز خلافته إلى عاصمته المدينة الجديدة التي بناها جوهر: القاهرة.

قبل نهاية سنة ٣٦٣ هـ / ٩٧٣ م. كان على المعزّ أن يصدّ القرامطة عن مصر بإيقاع الخلاف بينهم وبين حلفائهم إذ هاجموه في عقر ملكه، ولمّا تمّ له ذلك، أرسل حملة بأثرهم إلى بلاد الشام، وبدأت حرب عصابات في دمشق بين المغاربة الفاطميّين من جهة، والقرامطة وأعوانهم من جهة أخرى، عانى منها أهل المدينة معاناة كبرى، لكثرة ما عاث بها المقاتلون جميعاً نهباً وإحراقاً وسلباً وتدميراً، وشهدت دمشق موتاً كثيفاً وفقراً وجوعاً وبرداً ومرضاً. أمام هذا الواقع المرير، تحرّكت الخلافة العبّاسيّة فأرسلت قائداً تركيّاً اسمه أفتكين، لينتزع دمشق من أيدي المتقاتلين فيها.

دخل أفتكين المدينة بقوّة، وقطع خطبة المعزّ الفاطميّ، وخطب للطائع العبّاسيّ. كان ذلك في شعبان ٣٦٤ هـ / ٩٧٤ م. وبينما كان المعزّ يتجهّز لشنّ

الحرب على القائد العبّاسيّ التركيّ، مات، بينما أكمل أفتكين طرد المغاربة الفاطميّين من صيدا وطبريّة، بعد أن قتل منهم أعداداً هائلة حتّى كاد يبيدهم.

خلف المعزّ بالله، ولده أبو منصور نزار الملقّب: بالعزيز بالله. الذي سارع إلى إرسال جوهر، هذه المرّة، ليعالج وضع بلاد الشام، مثلما فعل بمصر[1].

وصل جوهر إلى محيط دمشق في ذي القعدة من سنة ٣٦٥ هـ / ٧٩٥ م. وأقام على المدينة حصاراً شديداً، ثمّ بدأ بشنّ الغزوات، حتّى اشتعلت حرب قاسية تكبّد فيها الطرفان عدداً كبيراً من القتلى، ممّا جعل القائد التركيّ يستنجد بالقرامطة. وخوفاً من أن يقع بين جيشين، فكّ جوهر الحصار عن دمشق، بينما كان القرامطة في طريقهم إليها من الأحساء. وبتحالف جند الدولة العبّاسيّة والقرامطة، حاصر خمسون ألف جنديّ جوهراً في عسقلان، حيث انقطعت الإمدادات عن القائد الفاطميّ، وقد كان ممكناً أن تصله الإمدادات عبر البحر فيما لو لم يكن الزمن شتاءً. وقد عانى جوهر وجيشه التعب الكثير من هذا الحصار، حتّى أكلوا الجيَف. حينها طلب جوهر إلى أفتكين أن يجتمع به، «فتقدّم إليه واجتمعا راكبَين. فقال جوهر لأفتكين:

«قد عرفت ما يجمعنا من عصمة الإسلام وحرمة الدين، وقد طالت هذه الفتنة، وأُريقت فيها الدماء، ونُهبت الأموال، ونحن المؤاخذون بها عند الله تعالى، وقد دعوتك إلى الصلح والطاعة والموافقة، وبذلت لك الرغائب، فأبيت إلاّ القبول ممّن يُشبِّ نار الفتنة[2] فراقب الله تعالى، وراجع نفسك، وغلّب نفسك على هوى غيرك».

عندما سمع أفتكين هذا الكلام، لم يَسعه إلاّ أن يفكّ الحصار عن جوهر، شريطة أن يعود برجاله إلى مصر، ولم يصغِ لاعتراض القرامطة الذين أرادوا إماتة إخوانهم الإسماعيليّين جوعاً.

١ - ابن الأثير الكامل، ج ٨ ص ٥٩٠ ـ ٥٩٢، ٥٩٦ ـ ٥٩٧، ٦١٤ ـ ٦١٦، ٦٢٠ ـ ٦٢١، ٦٤٢ ـ ٦٤٣؛ ابن خلدون، ج ٤ ص ٥٠ وما بعدها.

٢ - إشارة إلى القرامطة الذين منعوا أفتكين عن القبول بالصلح قبل ذلك.

عاد جوهر إلى مصر، وشرح الوضع للخليفة، فكان القرار بأن يقود الحملة الخليفة شخصيّاً إضافة إلى جوهر، وبذلك صدق ظنّ القرامطة الذين نصحوا أفتكين بأن يمتنع عن فكّ الحصار عن جوهر، لأنّه سيعود ... لقتالهم.

إلتحم الجيشان في محيط الرملة في المحرّم من سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م. بعد أن رفض أفتكين عرض الخليفة بأن يبذل له الرغائب والأموال والولايات، وبأن يجعله مقدّم عسكره، والمرجع الأوّل في دولته. وكانت نتيجة المعركة الأولى مقتل نحو عشرين ألفاً من القرامطة وعسكر الخلافة العبّاسيّة. وأُسر أفتكين وحُمل إلى الخليفة الفاطميّ الذي أبى إلاّ أن يكرّمه ويعزّزه ويحمله معه إلى مصر ويجعله من أخصّ خدمه وحجّابه. أمّا القائد القرمطيّ، فانهزم إلى طبريّة، وإذ رفض الاستسلام للخليفة الفاطميّ رغم بذله له الوعود بالإكرام، أرسل إليه هذا الخليفة السياسيّ عشرين ألف دينار، وجعلها له كلّ سنة، وسمح له بالعودة إلى الأحساء آمناً.

ولمّا أقدم أحد وزراء العزيز على دسّ السمّ لأفتكين في القاهرة بعد سنوات، حزن العزيز، وحبس الوزير الذي اتُّهم بدسّ السمّ، وأخذ منه خمسمائة ألف دينار[1].

وبذلك أحكم الفاطميّون قبضتهم على دمشق، وبدأوا حملاتهم على الحجاز. وقبل أن تنتهي سنة ٣٦٥ هـ / ٩٧٥ م. خُطب للخليفة الفاطميّ بمكّة المكرّمة، بعد أن أرسل إليها جيشاً حاصرها، وضيّق على أهلها، فلقوا شدّة عظيمة قبل أن يعترفوا بسلطة الفاطميّين.

بلغت الخلافة الفاطميّة في عهد العزيز بالله (٣٦٥ ـ ٣٨٦ هـ / ٩٧٥ - ٩٩٦ م.) أوج عزّها وأوسع مداها، فاخضع هذا الخليفة لسلطته المناطق الواقعة بين

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٨ ص ٦٥٦ ـ ٦٦٢؛ ابن القلانسي، ذيل تاريخ دمشق، نشر أمدورز (ليدن ١٩٠٨) ص ١٨ ـ ١٩

المحيط الأطلسيّ والبحر الأحمر، إضافة إلى تدخّله المباشر في بلاد الشام والحجاز واليمن، وصولاً حتّى الموصل أحياناً[1]. وقد أظهر العزيز تعاوناً مع النصارى واليهود، «فولّى عيسى بن نسطور النصرانيّ كتابته واستناب بالشام يهوديّاً». وكانت جاريته الأثيرة امرأة نصرانيّة عيّن أحد أخويها رئيس أساقفة في القاهرة والآخر في القدس. وقيل إنّ «النصارى واليهود قد اعتزّوا بوزارة النصرانيّ في قصر الخليفة، ونيابة اليهودي في دمشق، وإنّ هذين قد أذلاّ المسلمين، فعمد أهل مصر إلى كتابة قصّة جعلوها في شكل صورة على قراطيس، فيها: ـ بالذي أعزّ اليهود بمنشا، والنصارى بعيسى[2] بن نسطورس، وأذلّ المسلمين بك ألا كشفت ظلامتي ـ واقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز، فلمّا رآها أمر بأخذها، فلمّا قرأ ما فيها، ورأى الصورة، علم ما أُريد بذلك، فقبض على النصرانيّ واليهوديّ وأخذ منهما أموالاً كثيرة[3]». وفي عهد العزيز، إشتدت حركة الإنشاء والتعمير في مصر، حيث تمّ تجديد قصر الذهب بالقاهرة، وجامع القرافة، وجامع القاهرة، وقصور عين شمس، ودار الصناعة، وقنطرة الخليج، وسواها من الأعمال العمرانيّة. وعُني العزيز كأبيه المعزّ، بنشر المذهب الشيعيّ، وحتّم على القضاة أن يُصدروا أحكامهم وفق مذهبه، كما حصر المناصب الهامّة بالإسماعيليّين، وأصبح لزاماً على الموظّفين السنّة الذين تقلّدوا المناصب الصغيرة أن يسيروا وفقاً لأحكام المذهب الإسماعيليّ[4].

وعندما مات العزيز سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م. كان قد مضى خمس سنوات

١ ـ إبن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، (ليدن ١٨٥٥) ج ٢، قسم ٢، ص ١٠؛ ابن خلّكان، ج ٣ ص ٥٤

٢ ـ «منشا» هو اسم اليهودي الذي وليّ دمشق، وعيسى هو الوزير (الكاتب) النصراني الذي عيّنه الخليفة في قصره.

٣ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ١١٦؛ قابل: ابن القلانسي، ص ٣٣؛ ابن تغري بردي، ج ٢، ق ٢، ص ٤؛ السيوطي، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، (القاهرة ١٣٢١ هـ) ج ٢ ص ١٤

٤ ـ راجع: مغنِّية، ص ٧٠ ـ ٧١ بالاستناد إلى: مصر في عصر الدولة الفاطميّة، نقلاً عن اتعاظ الحنفا للمقريزي، ص ١٩٧، وإلى: الحاكم بأمر الله، لمحمّد عبد الله عنان، طبعة ثانية، ص ٨٩.

على موت ذلك القائد الفذ الذي أسّس للفاطميّين أمبراطوريّة، بعد أن كان عبداً نصرانيّاً ترقى في سلّم الدولة حتّى غدا الفاتح الأكبر: جوهر. وقد مات جوهر وضيعاً، بعد أن كان العزيز... قد عزله. ولّما مات العزيز، كان عمر ابنه البكر إحدى عشرة سنة وستّة أشهر... فبان وكأنّ الفاطميّة في خطر.

الحاكم بأمر الله

حيّرت شخصيّة الحاكم بأمر الله عقول الباحثين والمؤرّخين، حتّى خلصوا إلى اعتبارها تغرق في التناقضات. فهو فوضويّ ومنظّم، كريم وبخيل، شجاع وجبان، عاقل ومجنون، سفّاك للدّماء ورحيم، محلّل للحرام ومحرّم للحلال، متعصّب ومتسامح... وقد بلغ هذا التناقض حدّ الغرابة في اسمه، فهو حيناً الحاكم بأمر الله، وحيناً الحاكم... بأمره، وشتّان بين المعنيين. أمّا اسمه قبل الخلافة، فكان: أبا عليّ منصوراً.

هذا الخليفة الفاطميّ، بويع بالخلافة، لّما مات والده، وهو في الحادية عشرة من عمره، فتولّى الوصاية عليه أستاذه ومربّيه أرجوان الخادم «فقام بأمره، وبايع له، وأخذ له البيعة على النّاس». ومع ذلك، ما كاد الخليفة الفتيّ يبلغ الخامسة عشرة من عمره، حتّى أمر بقتل أرجوان «لأنّه كان يضايقه!». ذلك أنّه أراد الاستقلال بالحكم[1].

والجدير ذكره، أنّ الخلافة الفاطميّة قد بلغت دركاً سيئاً من التردّي بعد موت العزيز، بسبب سيطرة قبائل البربر عل الحكم، «فانبسطت كتامة في البلاد،

١ ـ لمزيد من المعلومات حول شخصيّة الحاكم بأمر الله، راجع: ابن خلّكان، ج ٣، ص ٤ ـ ٧؛ ابن خلدون، ج ٤، ص ٥٩ ـ ٦١؛ ابن تغري بردي، ج ٢ ق ٢ ص ٦٢ وما بعدها؛ السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٤ ـ ١٥؛ ابن القلانسي، ص ٦٦ ـ ٦٧، ٧٩ ـ ٨٠؛ ابن حماد، أخبار ملوك بني عبيد (الجزائر ١٩٢٧) ص ٥٤ ـ ٥٥؛ عبد الله عنّان، الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطميّة، مؤسّسة الخانجي (القاهرة ١٩٥٩) ص ١٠٣ وما بعدها.

وحكموا فيها، ومدّوا أيديهم إلى أموال الرعيّة وحريمهم، وأرجوان مقيم مع الحاكم في القصر يحرسه[1] ».

وقد حاول أرجوان بكلّ ما له من سطوة أن يخفّف من الفوضى والثورات والانتفاضات في أنحاء الأمبراطوريّة الفاطميّة، ولكنّه لم يفلح. فقد استطاع شيخ كتامة وسيّدها: الحسن ابن عمّار، أن يحكم إفريقية بأمره، بعد أن لقّب نفسه بأمين الدولة، وهو أوّل من تلقّب في دولة الفاطميّين. ولو لم يحتقر ابن عمّار عمر الخليفة الفاطميّ الجديد، «ذلك الصبيّ ذي السنوات الاحدى عشرة» لكان قتله، فلقد كان متأكّداً من أنّه لن تقوم لذلك الطفل قائمة، ومن أنّ الخلافة لن تكون إلاّ لكتامة بعد ذلك اليوم. فراح يستعمل الولاة على المناطق، إلى أن دبّت الفوضى في مصر نفسها، لا بل في قصر الخلافة بالذات، بين أرجوان وجماعته من جهة، وابن عمّار وأنصاره من جهة أخرى. في الوقت نفسه، عصى أهل صور وظهر فيهم علاّقة. وعصى المفرّج بن دغفل بن الجرّاح، ونزل على الرملة وعاث في البلاد. وبدأ الروم يغزون أطراف الأمبراطوريّة ويساندون العصاة. واستقوى الحمدانيّون الذين راحوا يشنّون الغزوات على المدن السوريّة. ورغم أنّ أرجوان قد تمكّن من ضرب كلّ هذه التحرّكات بواسطة قائد فاطميّ شجاع، اسمه: جيش، فقد اضطر أرجوان، بعد موت جيش بمرض البواسير، إلى أن يعقد صلحاً مع الرّوم ليتمكّن من حفظ أمن البلاد قدر المستطاع. غير أنّ الحاكم، عندما بلغ الخامسة عشرة من عمره، ثقُل عليه نصح أرجوان، فقتله سنة ٣٨٩ هـ / ٩٩٨ م. واستوزر نصرانيّاً اسمه فهد بن إبراهيم، كان يعمل مساعداً لأرجوان، وجعل الحسين بن جوهر مكان أرجوان، ولقّبه بقائد القوّاد، وأمره بقتل الحسن بن عمّار الذي لقّب نفسه بأمين الدولة، ثمّ أمر بقتل الحسين بن جوهر الذي قتل بن عمّار، ولم يزل الحاكم يقيم الوزير بعد الوزير ويقتلهم، وهو بعد في الخامسة عشرة من عمره[2].

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٩، ص ١١٨ ـ ١١٩

٢ ـ المرجع السابق، ج ٩ ص ١٢٠ ـ ١٢٣

قسّم دارسو الحاكم شخصيّته إلى أربعة أدوار هي:

١ ـ من سنة ٣٨٦ هـ / ٩٩٦ م. إلى سنة ٣٩٠ هـ / ٩٩٩ م. وكان في هذه الحقبة «لا يملك من السلطان شيئاً لصغر سنّه».

٢ ـ من سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م. إلى سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٤ م. حيث انتزع لنفسه سلطة كبيرة رغم صغر سنّه، أظهر بخلالها تعصّباً شديداً للمذهب الإسماعيليّ.

٣ ـ من سنة ٣٩٦ هـ / ١٠٠٥ م. إلى سنة ٤٠١ هـ / ١٠١٠ م. ترك سياسة التعصّب، واتّبع سياسة التسامح مع جميع الطوائف.

٤ ـ من سنة ٤٠٢ هـ / ١٠١١ م. إلى سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م. حيث ظهرت سياسته بمظهر القلق والتذبذب، رغم أنّها ساعدت على إقرار الأمن وقضت على الفوضى التي كانت سائدة في أوائل عهده.

هذا التقسيم، الذي جاء نتيجة تصرّفات الخليفة الفاطميّ السادس، من شأنه أن ينطبق على كبرى قراراته. ففي «حقبة التعصُّب» انتهى عهد التسامح الذي عاش فيه المسيحيّون واليهود طيلة العهد الفاطميّ الذي سبق الحاكم، إذ أجرى هذا الأخير عليهم التّدابير المذلّة التي كان عمر بن عبد العزيز والمتوكّل قد فرضها عليهم، «ثمّ أضاف إليها فنوناً أخرى من الإذلال، مع أنّ والدته ووزيره كانا مسيحيّين. فقد زاد سنة ٤٠٠ هـ / ١٠٠٩ م. على القيود السابقة المتعلّقة بالملابس تمييزاً للذمّي عن المسلم، فأوجب على النصارى، متى دخلوا الحمّامات العامّة، أن يجعلوا في أعناقهم صلباناً زنة الواحد منها خمسة أرطال (نحو كيلوغرامين) على أن يرسلوها متدلّية على صدورهم؛ ورتّب على اليهود، في مثل هذه الحال، أن يجعلوا في أعناقهم إطاراً من الخشب بالوزن نفسه، شُدّت إليه الأجراس المجلجلة[1] ». وفي العام نفسه، أمر بهدم الكنائس، وكان أهمّها «كنيسة

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢، ص ٢٢١ بالاستناد إلى: ابن خلّكان، ج ٣ ص ٥؛ سعيد ابن البطريق، ص ١٩٥؛ المقريزي، ج ٢ ص ٢٨٨؛ ابن حماد، ص ٥٤

السيّدة في دمشق، وكنيسة القيامة في القدس. وعمد، تطبيقاً للنصوص القرآنيّة التي حرّمت الخمرة، إلى الأمر باقتلاع الكرمة، وهي في مصر من مزروعات المسيحيّين. أمّا مَن أبى الخضوع لهذه التدابير من أهل الذمّة، فقد خيّره بين اعتناق الإسلام والرحيل إلى بلاد الروم. والظاهر أنّ عدد النصارى في مصر وسورية في عهد الحاكم ـ بعد النبيّ محمّد بنحو أربعمائة سنة ـ كان مساوياً لعدد المواطنين من المسلمين إن لم يفقه. وبعد عشرين سنة، عمد ابن الحاكم وخلفه الملقّب بالظاهر، بموجب معاهدة عقدها مع أمبراطور الروم، إلى إعادة بناء الكنائس التي هُدمت، ومنها كنيسة القيامة، ومع ذلك فإنّ تهديم هذا الأثر من آثار المسيحيّة قد أسهم في حمل الغرب على تجريد الحملات الصليبيّة على الأرض المقدّسة[1]».

لم تقتصر تصرّفات الحاكم المتناقضة على معاملة أهل الذمّة والرموز المسيحيّة، فهو أنشأ معهداً للعلوم العالية في القاهرة، ولم يمضِ ثلاث سنوات حتّى هدمه وبطش بأساتذته. ووضع تشريعاً ضدّ الدعارة، وحظّر حتّى ظهور النساء في شوارع القاهرة. ثمّ إنّه سنّ قوانين منع بموجبها المآدب وحفلات الطرب، وحرّم بعض ألوان الطعام، كما حرّم لعب الشطرنج[2].

ويعتبر بعض المتعاطفين مع الإسماعيليّين والحاكم، أنّ هذا الأخير قد أظهر كرهه لمظاهر الراحة والتنعّم التي كان يغرق بها الشعب، فاستفاق الناس من نشوة الانهماك في الملذّات، ليواجهوا نظماً أخلاقيّة دقيقة قاطعة لم يكن في تطبيقها هوادة... فأعلن الناقمون الغرابة في أطواره، وأوجدوا تناقضاً في أحكامه المتناهية بالرحمة والقسوة، وصنّفوا تصانيفَ تناقلها المؤرّخون كلّ على هواه، مع أنّ الحاكم ظهر وسط الازدهار الفاطميّ، فكان لغز عصره، بعيد الغور، وافر الابتكار، عقليّته تسمو على مجتمعها وتتقدّم عصرها بمراحل، وعبقريّته يجب أن تتبوّأ في التاريخ

١ ـ حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٢٢
٢ ـ المرجع السابق.

مكانها اللائق، وشخصيّته تفيض من خفائها على المجتمع الذي يقبض هو على أقداره ومصائره... وقد لازمها الخفاء لأنّ الدولة الفاطميّة عُنيت منذ استقرارها بمصر، بتنظيم دعوتها المذهبيّة السرّية وبثّها، وكانت هذه الدعوة تُلقى في مجالس الحكمة، أحياناً بالقصر وأحياناً بالجامع الأزهر، وكان يشرف على إلقائها قاضي القضاة نفسه ثمّ داعي الدعاة الذي يليه في المرتبة والمنصب، وكان يُنتخب من أكابر فقهاء الشيعة المتضلّعين من العلوم الدينيّة ومن أسرار الدعوة الفاطميّة، يعاونه في نشر الدعوة اثنا عشر نقيباً وعدّة كبيرة من النواب، يمثّلونه في سائر النواحي. وكانت هذه الدروس الخاصّة تُلقى، بعد مراجعة الخليفة وموافقته، في إيوان القصر الكبير، وتُعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعي بالقصر، وهو المسمّى بالمحلول، وكان من أعظم الأبنية وأرحبها. فإذا انتهت القراءة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعي، فيمسح على رؤوسهم بعلامة الخليفة، ويأخذ العهد على الراغبين في دخول المذهب، ويؤدّي له النجوى من استطاع، وهي رسم اختياري قدره ثلاثة دراهم وثلث، يُجبى من المؤمنين للإنفاق على الدعوة والدعاة. وكانت ثمّة مجالس أخرى تُعقد بالقصر أيضاً لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذاهب ورجال الدولة والقصر ونساء الحرم الخاص، ويسودها التحفّظ والتكتّم، ويُمنع الكافّة من مشاهدتها، وتُعرض فيها الدعوة الفاطميّة السرّية على يد دعاة تفقّهوا في درسها وعرضها. وكان للعامّة أيضاً نصيب من تلك المجالس، فيُعقد للرجال مجلس بالقصر، ويُعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر، ويُعقد مجلس للأجانب الراغبين في تلقّي الدعوة. وكان الداعي يشرف على هذه المجالس جميعاً إمّا بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوّابه، وكانت الدعوة تنظّم وترتّب طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان، فلا يتلقّى الكافّة منها سوى مبادئها وأصولها العامّة، ويرتفع الدعاة بالخاصّة المستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا. ثمّ أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ هـ / ١٠٠٥ م. فأضحت مدرسة للعلوم الدينيّة والزمنيّة، ومثوى للدعوة السرّية الفاطميّة، احتشد فيها الدعاة والنقباء السرّيون من كل

حزب، وقد ظهر في أواخر العهد أبو الفضل حمزة بن عليّ الزوزنيّ، فأضفى على شخصيّة الحاكم قدسيّة ناسوت اللاّهوت، ثمّ بدأ يوجّه رسائله إلى المستجيبين لدعوته ابتداء من العام ٤٠٨ هـ / ١٠١٧ م. ووجّه مثلها الشيخان إسماعيل التميميّ، وعليّ بن محمّد السموقيّ الملقّب ببهاء الدين، الذي استمرّ يدعو لهذا المذهب حتّى سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م. وتشرح تلك الرسائل ماهيّة الدعوة، وتُرشد المستجيبين لأصول المذهب وروابطهم ببعضهم وصلاتهم بغيرهم. وقد وُجّهت الرسائل إلى مختلف الممالك والأمصار بما فيها الشام، والعراق، وإيران، والحجاز، واليمن، ومصر، والهند، والبحرين، وإلى ملك الروم في القسطنطينيّة، وأقطار أخرى في الشرق والغرب.

وفي سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م. ، اختفى الحاكم وهو في طريقه إلى جبل المقطّم، حيث يُظنّ أنّه كان قاصداً إلى المرصد الفلكيّ الذي أقامه الفاطميّون لعالمهم الفلكيّ الكبير عليّ بن يوسف، فكان اختفاؤه في تلك الظروف التي تشبه الأساطير في غموضها وخفائها وانعدام كلّ أثر يدلّ على مصيره أو يلقي ضوءاً على ملابسات اختفائه أو مصرعه، عاملاً جديداً في إذكاء شغف الخفاء والتطلّع إلى ما وراء الغيب وإذكاء الدعوات السريّة[1].

تعدّدت الروايات التاريخيّة حول نهاية الحاكم واختفائه، وبالاستناد إلى أكثرها، يُستدلّ أنّه قد قتل، وأخفيت جثّته، ممّا خلق ذلك الاعتقاد باختفائه حيّاً. ومن أشهر الروايات في هذا المجال تلك التي تقول بأنّ أخت الحاكم هي التي دبّرت قتله، بعد أن «أوحشها وأرسل إليها مراسلات قبيحة يقول فيها: ـ بلغني أنّ الرجال يدخلون إليك ـ وتهدّدها بالقتل»، فتآمرت مع أحد كبار قوّاد الحاكم، واسمه بن دوّاس، مستغلّة خوف هذا الأخير من أخيها، وكان عرضها له: «بوسعك أن تحفظ نفسك ونفسي، فأنت تعلم ما يعتقده أخي فيك، وأنّه متى تمكّن

١ ـ سعيد الصغير، بنو معروف الدروز في التاريخ، (بيروت ١٣٧٤ هـ) ص ٢٣٣ ـ ٢٣٥ بالاستناد إلى: عنّان، الحاكم بأمر الله، ص ٧٧، ١٥٢، ١٦٢ ـ ١٦٣؛ راجع مجلّد الدروز من هذا المؤلّف، الفصل الأوّل ص ١٠ وما يليها.

منك لا يُبقي عليك، وأنا كذلك، وقد انضاف إلى هذا ما تظاهر به (الحاكم) ممّا يكرهه المسلمون، ولا يصبرون عليه، وأخاف أن يثوروا به، فيهلك هو ونحن معه، وتنقلع هذه الدولة». وعندما أجابها بن دوّاس إلى ما تريد، أعلمته أنّ الحاكم «سيصعد إلى جبل شرقيّ حلوان في الغد، وليس معه سوى الركابيّ وصبيّ، وينفرد بنفسه، فتقيمُ رجلين تثق بهما، فيقتلانه والصبيّ، وتقيم ولده بعده، وتكون أنت مدبّر الدولة، وأزيد في اقطاعك مائة ألف دينار».

ويبدو أنّ هذا ما حصل، ذلك أنّ الحاكم قد توجّه بالفعل في اليوم التالي إلى ذلك الجبل «ومعه ركابيّان، فأعاد أحدهما مع جماعة من العرب إلى بيت المال، وأمر لهم بجائزة، ثمّ عاد الركابيّ الآخر، وذكر أنّه خلّف الحاكم عند العين والمقصبة. وصار الناس كعادتهم يخرجون كلّ يوم ملتمسين رجوعه، فلم يعد، ممّا جعل خواصّ الحاكم يقصدون الجبل بحثاً عنه، وإذ دخلوا ذلك الجبل، وجدوا الحمار الذي كان مطيّته، وعلى قوائمه أثر لضربات سيف، وعليه سرجه ولجامه؛ وعلى مسافة من الحمار، بقرب بركة مياه تقع شرقيّ حلوان، وجدوا ثيابه مزرّرة بحالها لم تحلّ، وفيها أثر للسكاكين، فعادوا ولم يشكّوا في قتله[1]».

بهذه الحادثة الغريبة، إنتهت حياة ذلك الرجل الذي لا تقلّ أطواره غرابة عن ظروف مقتله واختفاء جثّته. وكانت النساء أكثر الخلق ارتياحاً لنهايته، لشدّة ما عانين من أحكامه الجائرة عليهنّ. من تلك الأحكام أنّه كان قد منع النساء من الخروج من بيوتهنّ، وأمر بقتل من يخالف منهنّ هذا الأمر. وإذ «شكت إليه مَن لا قيّم لها يقوم بأمرها» أمر التجّار بأن يجولوا ببضائعهم على البيوت ليبيعوها للنساء، وأمر من يبيع أن يكون معه ما يشبه المغرفة بساعد طويل، يمدّه إلى المرأة وهي وراء الباب، وفيه ما تشتريه، فإذا رضيت وضعت الثمن في المغرفة وأخذت ما فيها دون أن يراها البائع... فنال النساء من ذلك شدّة عظيمة[2]».

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٩ ص ٣١٥ ـ ٣١٦

٢ ـ المرجع السابق، ص ٣١٧

كانت نهاية الحاكم سنة ٤١١ هـ / ١٠٢٠ م. فخلفه ابنه أبو الحسن عليّ، ولُقّب بالظاهر لإعزاز دين الله، واختصاراً: الظاهر. وإذ كان عمر الظاهر لا يتجاوز السادسة عشرة، كان الحاكم الفعليّ للدولة الوزير أبا القاسم عليّ بن أحمد الجرجرائيّ، وكانت عمّة الظاهر التي اتُّهمت بالتآمر على قتل الحاكم، واسمها ست الملك، صاحبة الوصاية عليه، في الفترة الأولى من حكمه. ويبدو أنّ ست الملك وأبا القاسم قد أظهرا كفاءة في تدبير المملكة وسياسة الناس. وقد أكمل الظاهر، بعد بلوغه، تلك السياسة، فكان عاقلاً سمحاً متديّناً عفيفاً حليماً متواضعاً، وقد عدل في الرعيّة، فاستقامت له الأمور، بعد أن تمكّن من اكتساب عطف أهل الذمّة ومحبّتهم، إذ تمتّعوا في عهده بالحرّيّة الدينيّة. ويبدو أنّ طموحات الخلافة الفاطميّة قد هدأت بعهده، إذ اقتصرت اهتمامات الظاهر على الشؤون الداخليّة، وبدا وكأنّ نجم تلك الدولة قد أخذ بالأفول. وتأكّد ذلك عندما خلف الظاهر بعد موته سنة ٤٢٧ هـ / ١٠٣٥ م. ابنه أبو تميم معدّ، الذي لُقّب بالمستنصر بالله، وكان عمره سبعة عشر عاماً، وهو الذي ضرب رقماً قياسيّاً في طول مدّة الخلافة، إذ دامت خلافته حوالى ستّين سنة، انتهت سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢ م. وقد شهدت مصر في أيّامه غلاءً وقحطاً «لم يُعرف مثله منذ زمن يوسف... وقد دام سبع سنين، حتّى بلغ ثمن الرغيف الواحد خمسين ديناراً. وقيل إنّه كان يموت بمصر كلّ يوم عشرة آلاف نسمة جوعاً، ثمّ عُدمت الأقوات تماماً، فأكل الناس الكلاب والقطط، ثمّ أكل بعضهم بعضاً، وقد دوّن المؤرّخون في هذه المجاعة قصصاً مروّعة[1]». وفي عهده، سقطت مدينة القدس بيد السلاجقة، وتبعتها بعد خمس سنوات مدينة دمشق. أمّا حلب، فكانت قد أصبحت تحت حكم بني مرداس بعهد الظاهر سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٣ م. كما زالت سلطة الفاطميّين عن بلاد الأقصى سنة ٤٧٥ هـ / ١٠٨٢م. بعد أن خلع أمير مكّة والمدينة طاعتهم سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م.

١ - راجع: ابن الأثير، الكامل، ج ١٠ ص ٢٣٧

بموت المستنصر سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٢ م. خلفه ابنه أبو القاسم أحمد وتلقّب بالمستعلي بالله، خلافاً لما كان عَهد به المستنصر بالخلافة لابنه نزار، لأنّ وزير الدولة وقائد جيوشها: الأفضل بن بدر الجماليّ الملقّب بأبي القاسم شاهنشاه، الذي استوزره المستنصر بضغط من الجيش، كان قد أصبح الآمر والنّاهي في الدولة، فاستبعد نزاراً، وقرّر الخلافة لأحمد المستعلي، الذي مات سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠١م. فجاء الأفضل بابن المستعلي: أبي علي المنصور، ولقّبه بالآمر بأحكام الله، وبايع له بالخلافة. وبما أنّ الآمر كان له من العمر خمس سنوات، أصبح الآمر الحقيقيّ في الخلافة: الأفضل. وكانت الخلافة الفاطميّة قد أضحت في حال من الوهن، بسبب الفتن الداخليّة التي أدّت إلى تنازع المستعلي مع أخيه نزار على المُلك، فدارت بينهما حروب دامية أدّت إلى مقتل نزار وإلى انشقاق داخل الخلافة. وكان الصليبيّون بدأوا يغيرون على سواحل بلاد الشام، فاستولوا على إنطاكية وتوابعها، ثمّ تابعوا سيرهم إلى فلسطين فاستولوا عليها تماماً. ولم يكن الآمر قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره عندما اغتيل الرجل القويّ في خلافته، قائد جيوشه ووزيره صاحب الأمر والحكم بمصر: الأفضل بن بدر الجماليّ، الذي اغتاله مجهولون بالخناجر في الشارع سنة ٥١٥ هـ / ١١٢١ م. فعيّن الآمر في الوزارة خلفاً للأفضل: المأمون البطائحيّ، الذي ظلم... وأساء السيرة، فقتله الآمر وصادر أمواله، بينما كان الصليبيّون قد احتلّوا الشاطئ الممتدّ من فلسطين إلى طرابلس. فتضعضع مُلك الفاطميّين قبل أن يتمّ اغتيال الآمر على يد تسعة رجال من العامّة، سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٨ م. في أحد شوارع القاهرة، فقام بعده ابن عمّه عبد المجيد ابن محمّد بن المستنصر، الذي لُقّب بالحافظ لدين الله.

وزّر الحافظ في بداية عهده أبا عليّ أحمد بن الفضل، الذي استأثر بالأمر، حتّى إنّه «ضيّق على الخليفة، وحجر عليه، ومنعه من الظهور، وأودعه في خزانة لا يدخل إليه أحد إلاّ بأمر الوزير، الذي أهمل فيما بعد الخليفة والدعاء له، لأنّه ـ أي الوزير ـ كان سنّيّاً، فأبغضه الأمراء والدعاة لأنّهم كانوا من الشيعة، وصمّم الشيعة

المصريّون على قتله، فكمن له جماعة وقتلوه وأخرجوا الحافظ وبايعوه ثانية[1]». إلاّ أنّ الحافظ كان من ضعف الشخصيّة بحيث «كانت خلافته عشرين سنة إلاّ خمسة أشهر، ولم يزل في جميعها محكوماً عليه، يحكم عليه وزراؤه، حتّى إنّه جعل ابنه حسناً وزيراً ووليّ عهده، فحكم إبنه عليه واستبدّ بالأمر دونه، وقتل كثيراً من أمراء دولته وصادر كثيراً، فلمّا رأى الحافظ ذلك سقاه سمّاً فمات[2]». أمّا الحافظ، فمات سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م. فخلفه ابنه أبو منصور إسماعيل الذي تلّقب بالظافر بأمر الله، وكان له من العمر سبعة عشر عاماً، فكانت أيّامه مضطربة، ولم يتمكّن من تثبيت حكمه، لحداثة سنّه وانشغاله باللهو. وعُرف عنه أنّه ترك كلّ شيء، وانصرف إلى شاب بعمره، هو نصر ابن وزيره عبّاس الصنهاجي، الذي أحبّه الظافر، وجعله من ندمائه وأحبابه «الذين لا يقدر على فراقهم ساعة واحدة». إلى أن اغتنم الوزير مخالطة الخليفة لولده، فأوعز إلى هذا الأخير بقتل الظافر، ففعل.

ولم تقتصر الفعلة على هذا الحدّ، ولكنّ ذلك الوزير المسمّى بعبّاس، اتّهم إخوة الخليفة بقتله، فقتلهم. وكان للخليفة ابن اسمه عيسى له من العمر خمس سنين «حمله عبّاس على كتفه وأجلسه على سرير الملك وبايع له الناس». وأخذ عبّاس من القصر من الأموال والجواهر والأعلاق النفيسة ما أراد، ولم يترك إلاّ ما لا خير فيه[3].

حدث هذا سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤ م. وكان اسم ذلك الطفل الذي بويع بالخلافة: عيسى، فلقّب بالفائز بنصر الله، وكان الخليفة الفاطميّ الثالث عشر، وبقي على سرير الملك ست سنوات إذ مات وعمره حوالى العشر سنوات في العام ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م. وليس في المدوّنات ذكر لأسباب وفاته. لكنّ المدوَّن، أنّ الذي استقلّ بأمور الدّولة طيلة عهد الطفل، كان طلائع بن رزيك، الذي لقّب نفسه

١ - ابن تغري بردي، ج ٢، ق ٢، ص ١٢٠ وما بعدها.
٢ - ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ١٤١
٣ - المرجع السابق، ص ١٩٣؛ راجع: مغنيّة، ص ٨٤ - ٨٥

بالملك الصالح بعد أن أصبح وزيراً في بداية عهد الفائز. قصّة ذلك أنّه خلافاً لما اعتقده عبّاس عند قتله للظافر بأنّ الأمر سيتمّ له على ما يريده، فقد «اختلفت الكلمة عليه، وثار به الجند والسودان، وصار إذا أمر بالأمر لا يُلتفت إليه ولا يُسمع قوله، فأرسل من بالقصر من النساء والخدم إلى الصالح طلائع بن رزّيك يستغيثون به، وأرسلوا شعورهم طيّ الكتب، وكان الصالح في مُنية بني حصيب والياً عليها وعلى أعمالها... فجمع ليقصد عبّاساً، وسار إليه، فلمّا سمع عبّاس ذلك خرج من مصر نحو الشام بما معه من الأموال التي لا تحصى كثرة، والتحف والاشياء التي لا توجد إلاّ هناك ممّا كان أخذه من القصر، فلمّا سار (عبّاس) وقع به الفرنجة فقتلوه وأخذوا جميع ما معه فتقووّا به».

دخل الصالح القاهرة بأعلام سود وثياب سود حزناً على الظافر، وأحضر شاهداً كان قد رأى قتل الظافر، فأراه موضع طمره، فأخرجه ونقله إلى مقابر القصر. وكان أوّل ما فعله الصالح بعد ذلك أن استقصى بيوت الكبار والأعيان بالدّيار المصريّة، فأهلك أهلها وأبعدهم عن ديارهم وأخذ أموالهم، وقد فعل ذلك خوفاً من أن يثوروا عليه وينازعوه في الوزاره[1].

ولّما مات الخليفة الطفل، دخل الوزير الصالح بن رزّيك القصر، واستدعى خادماً كبيراً وقال له: مَن ها هنا يصلح للخلافة؟ فقال الخادم: ها هنا جماعة! وذكر أسماءَهم، وذكر له منهم إنساناً كبير السنّ، فأمر الصالح بإحضاره، فقال بعضهم للصالح: - لا يكون عبّاس (الوزير السابق) أحزم منك حيث اختار الصغير وترك الكبار واستبدّ بالأمر - فأعاد الصالح الرجل إلى موضعه، وأمر حينئذ بإحضار أبي محمّد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، الذي كان مراهقاً قارب البلوغ، وبايع له بالخلافة بعد أن لقّبه بالعاضد لدين الله، وزوّجه ابنته.

كان العاضد لدين الله خاتمة الخلفاء الفاطميّين، وبه انتهت الخلافة الشيعيّة

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ١٩٣ - ١٩٤

سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م. وبينما كان العاضد على فراش الموت، كان صلاح الدين الأيّوبي يأمر بوقف الدعاء للخليفة الفاطميّ في مساجد مصر، ويأمر بالدعاء للخليفة السنيّ العبّاسيّ المقيم ببغداد[1]، وكان يومها الخليفة الثالث والثلاثين، وهو المستضيء بالله (٥٦٦ ـ ٥٧٥ هـ / ١١٧٠ ـ ١١٨٠ م.) الذي كان هو الآخر معترفاً به اسمياً كخليفة، بينما كانت السلطة قد أصبحت بيد الوزراء.

وبذلك كانت خاتمة الدولة الفاطميّة الشيعيّة الإسماعيليّة التي بدأت مع ظهور المهديّ بسجلماسة سنة ٢٩٩ هـ / ٩١١ م. وانتهت بموت العاضد سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م. وكانت نهايتها ختاماً لدول الشيعة في البلاد العربيّة، إذ منذ ذلك التاريخ، انحصرت دولتهم في فارس. أمّا في مصر، فمنذ ذلك التاريخ، لم يعد المؤذّنون ينادون على المآذن «حيّ على خير العمل»، ولم يعد الخطباء في المساجد يفتتحون كلامهم بالصلاة على عليّ المرتضى وفاطمة البتول والحسن والحسين بعد محمّد المصطفى، ولم يعد الثامن عشر من ذي الحجّة، وهو يوم غدير خمّ، يوم عيد، وتوقّفت الاحتفالات التي كانت تجري في تلك المناسبة من كلّ سنة، ولقد كانت من أهمّ الاحتفالات الدينيّة التي كانت تهتزّ لها جوانب القاهرة فرحاً وسروراً... ولم تعد مصر توقف البيع والشراء في العاشر من محرّم، ولم يعد الأهل يجتمعون في عاشوراء على النّوح والإنشاد والتطواف بالأزقّة والأسواق، وقصد مشهد أم كلثوم ونفيسة، وهم نائحون باكون... وقضت سياسة الضغط التي اتّبعها صلاح الدين على المذهب الشيعيّ في مصر قضاء شبه تام.

الحشاشون

سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م. عارض مبايعة الخليفة الفاطميّ التاسع: المستعلي بالله، من جملة من عارضوا، داع فاطميّ اسمه الحسن بن الصبّاح الرازيّ، الذي

١ ـ راجع مجلّد السنّة من هذا المؤلّف، الفصل الخامس تحت عنوان الأيوبيّين ص ١٩٥ وما يليها.

أيّد أتباع نزار، وهرب بنزار من القاهرة إلى الإسكندريّة حيث أعلن ثورة فاشلة قُتل بخلالها نزار. ذلك أنّ الحسن بن الصبّاح، كان قد قصد الخليفة المستنصر، والد المستعلي، ونزار، قبل موته بحوالى تسع سنوات، واستأذنه في إقامته الدعوة له بخراسان وبلاد فارس، فأذن له في ذلك، فعاد إلى خراسان وراح يدعو للخليفة الفاطميّ سرّاً. وفي إحدى زيارات الحسن للخليفة، سأله عمّن سيكون إمامه بعده، فقال الخليفة: ابني نزار. من أجل هذا، رفض الحسن وأتباعه وآخرون من الإسماعيليّة خلافة المستعلي التي جاءت بناء على رغبة وزير الدولة الفاطميّة: الأفضل بن بدر الجماليّ، الذي أراد أن يصبح الآمر والناهي[1].

تمكّن الحسن بن الصبّاح الإسماعيليّ الرازيّ من الفرار إلى بلاد فارس، حيث أكمل دعوته الإسماعيليّة، بينما كانت الباطنيّة تتعرّض هناك لحملة إبادة من قبل السلطان السلجوقيّ الرابع، أبي المظفّر ركن الدين الملقّب بـ «بركياروق»، ابن ملكشاه المتوفّى سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٢ م.

عند وصول الحسن بن الصبّاح إلى بلاد العجم هذه المرّة، كان من تبقّى من القرامطة وكلّ من دان بالباطنيّة قد تجمعوا في تنظيم واحد، في مواجهة دولة السلاجقة. فاستولى هؤلاء الباطنيّون على عدّة حصون وقلاع، منها قلعة أصبهان المنيعة التي بناها السلطان السلجوقيّ الثالث: ملكشاه. وقلعة طَبَس في قهستان، وقلعة وسنمكوه قرب أبهر، وقلعة خالنجان قرب أصبهان، وقلعة أستونا وند بين الريّ وآمل، وقلعة أردهن، وقلعة كردكوه وقلعة الناظر بخوزستان، وقلعة الطنبور قرب أرّجان، وقلعة خلادخان بين فارس وخوزستان، إضافة إلى عشرات القلاع الأخرى. وكان من جملة تلك القلاع، قلعة «أَلَموت» في نواحي قزوين، وأصل إسمها «أله مُوت» ومعناه بلغة الدّيلم: تعليم العقاب. وقد سمّيت كذلك لأنّ ملكاً من ملوك الديلم كان كثير الصيّد، فأرسل يوماً عقاباً وتبعه، فرآه يسقط على

١ ـ راجع الفصل السابق من هذا المجلّد، تحت عنوان: إنهيار الدولة الفاطميّة ص ١٤٢.

موضع هذه القلعة، فوجده موضعاً حصيناً، فأمر ببناء قلعة عليه، وسمّاها «ألَهْ مُوت[1]».

كان سبب سيطرة الباطنيّين على هذه القلاع الاضطهاد الذي تعرّضوا له من قبل بركيارق سنة ٤٩٤ هـ / ١١٠٠ م. إذ أمر بقتل كلّ من هم من الباطنيّة، بسبب أعمال القتل والسلب والنهب الفظيعة التي كانوا يقومون بها. وقد استشرى أمرهم بعد موت السلطان ملكشاه، فاجتمعوا من كل صوب، وراحوا ينزلون الرعب في كلّ مكان، وحيث طالت أيديهم، لا يعفون إلاّ عمّن كان من مذهبهم، حتّى «صار إذا تأخّر إنسان عن بيته قليلاً تيقّن أهله من قتله، وجلسوا يتقبّلون العزاء به». بل إنّهم أحياناً كانوا يوقفون ضحيّتهم الحيّ في مكان قريب من بيته، ليرى أهله وهم «يلطمون ويبكون عليه، ويتقبّلون العزاء بموته، وهو لا يقدر أن يتكلّم خوفاً من خاطفيه». وصدف أن دخل رجل دار صديق له «فرأى فيها ثياباً كثيرة وأحذية وسوى ذلك من المتاع، فخرج من عنده متحدّثاً بما كان، فكشف الناس عنها، فعلموا أنّها لأناس قُتلوا». وبذلك بدأ ينكشف أمر القتلة الذين كان صاحب هذه الدار أحدهم، إذ كانوا إذا اجتاز بهم إنسان أخذوه إلى الدار وقتلوه وألقوه في بئر بداخلها، قد حُفرت خصّيصاً لذلك». وقد استعملوا من أجل ذلك حيَلاً شتّى، منها أنّهم كانوا يوقفون رجلاً يتظاهر بالعمى على قارعة الطريق، حتّى إذا مرّ أحدٌ بقربه، سأله أن يوصله إلى بيت معيّن، فإذا أوصله إلى هناك، أخذوه وقتلوه.

أمام هذا الواقع، أباح الفقهاء قتل معتنقي الباطنيّة، فحُفرت الخنادق، وأُوقدت فيها النيران، «وجعل العامّة يأتون بالباطنيّة أفواجاً ومنفردين، فيُلقون في النار، وجعلوا إنساناً على أخاديد النيران، وسمّوه مالكاً، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً». وهكذا قصد أهل الباطنيّة القلاع، واستولوا عليها احتيالاً وخداعاً، واحتموا بها متسلّحين[2].

١ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٠، ص ٣١٦
٢ - المرجع السابق، ج ١٠ ص ٣١٣ - ٣١٥

لمّا رجع الحسن بن الصبّاح من مصر إلى خرسان، وكان الوضع في بلاد العجم على ما هو عليه، قصد قلعة ألموت، ولم يمضِ وقت طويل حتّى أصبح سيّدها المطاع. ولمّا بلغ خبر الحسن، والي خراسان: نظام الملك، بعث عسكراً إلى قلعة ألموت، فحصروا الحسن فيها، وإذ ضاق ذرعاً بالحصار، أرسل الإسماعيليّ من قتل نظام الملك في عقر ولايته، وهكذا فُكّ الحصار عن القلعة.

إثر موت السلطان بركيارق سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م. عاد الإسماعيليّون إلى الظهور في الرّي، فقتلوا مئات من الناس، وغنموا أموالهم ودوابّهم، كما قتلوا بعض شيوخ الشافعيّة انتقاماً. كذلك تمكّن أحدهم من قتل فخر المُلك بن نظام المُلك، وكان فخر حاكماً لخراسان. وقد جعلت جرائم الباطنيّة السلطان محمّداً السلجوقي يشنّ حرباً طاحنة سنة ٥٠٠ هـ / ١١٠٦ م. على من كان منهم في إحدى القلاع التي ملكوها بالقرب من أصبهان، وكان فيها رجلٌ ألبسته الباطنيّة تاجاً، وجمعوا له الأموال، وجعلوه ملكاً عليهم. اسم هذا الرجل: ابن عطّاش، وكان يرسل أصحابه لقطع الطريق، وأخذ الأموال، وقتل من قدروا على قتله، فذهب ضحيّتهم عدد لا يمكن إحصاؤه من البشر. حتّى إنّ ابن عطّاش قد تمكّن من فرض الضرائب على المدن المجاورة ليكفّ عنها الأذى.

تمكّن السلطان محمّد من إبادة تلك القلعة، ومن قتل ابن عطّاش، الذي كان الحسن بن الصبّاح يعظّمه... لأنّ أباه كان أستاذه. وكانت طريقة قتل ابن عطّاش أن سُلخ جلده حيّاً، فتجلّد حتّى مات، وحُشي جلده تبناً، وعُرض على العامّة. بيدَ أنّ ذلك لم يُضعف الباطنيّة كثيراً، فلقد كان لا يزال لديهم عشرات القلاع والقادة. وبعد مرور ثلاث سنوات، كان الحسن بن الصبّاح لا يزال مسيطراً على قلعة ألموت، حيث فشل السلطان في السيطرة على تلك القلعة رغم الحصار. ويوماً بعد يوم، راحت ألموت تقوى، إذ كان السلطان السلجوقيّ يهاجم سائر قلاع الباطنيّة، ويؤمّن من فيها بعد استيلائه عليها على أن ينتقل المؤمّنون إلى ألموت. وقد تمكّن ابن الصبّاح من الصبر على الحصار الطويل رغم كثرة الجموع التي

أضحت في القلعة، على أنّه أصبح بذلك سيّد القوم ومقدّمهم. وفي النهاية، اضطرّ السلطان إلى فكّ الحصار عن القلعة مرغماً. وبعد تحصّن في قلعة ألموت استمرّ زهاءَ ثلاثين سنة، مات الحسن بن الصبّاح الإسماعيليّ الرازيّ في قلعته سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م[١]. وقد اعتُبر هذا الرجل مؤسّس من سيعرفون لاحقاً بالحشّاشين.

نظّم ابن الصبّاح هذه الفرق الإسماعيليّة المتجدّدة التي استقلّت عن الخلافة الفاطميّة منذ موت الخليفة الفاطميّ الثامن: المستنصر بالله سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م. فأضحت هذه الجماعة عبارة عن منظّمة سريّة يرئسها سيّد كبير هو «داعي الدعاة» يليه جماعة من الزعماء هم «كبار الدعاة» ويلي هؤلاء «الدعاة العاملون» وأخيراً جماعة «الفدائيّين» المستعدّين أبداً لتنفيذ أوامر داعي الدعاة، فهم لا يتحرّجون من اغتيال خصومهم بالخناجر، نصارى كانوا أم مسلمين، حتّى إنّهم اتخذوا الاغتيال فنّاً[٢].

بينما يرى بعض البحّاثين أنّ اسم الحشّاشين، قد اشتقّ من لفظة «حشيش» العربيّة، وهو عشب مخدّر كانوا - في ما يُظنّ - يعمدون إلى تخدير أنفسهم به عند الإقدام على أعمالهم[٣]، يذهب أكثر المؤرّخين مذهباً آخر في التفسير، فيقولون بأنّ لقب الحشّاشين، تحريف للقب إفرنجي: Assassins، والكلمة بمعنى: القتلة، أو الفاتكين. وقد أطلق الإفرنج هذا اللقب على الإسماعيليّين النزاريّين لاشتهارهم بالاغتيال.

إنّنا نميل إلى التفسير الأخير لأصل لقب الحشّاشين، ذلك لأنّ النزاريّين لم يُعرفوا بهذا الاسم إلاّ بعدما عرفهم الصليبيّون في مواقعهم. وكان أشهر من انقاد إلى النزاريّين من الإسماعيليّة رضوان، الحاكم الثاني لدولة السلاجقة في حلب بعد

١ - المرجع السابق، ج ١ ص ٤٣١، ٤٣٣، ٤٧٧، ٥٢٧ - ٥٢٨، ٦٢٥
٢ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٤٦
٣ - المرجع السابق، ص ٢٤٥ - ٢٤٦

أبيه تتش بن ألب ارسلان. وقد حكم رضوان بين ٤٨٩ و ٥٠٧ هـ / ١٠٩٥ - ١١١٣ م[١]. ومثلما فعل الإسماعيليّون النزاريّون في بلاد العجم، كذلك أقدموا في بلاد الشام على السيطرة على عدد من القلاع والحصون في المنطقة الجبليّة من مناطق سورية. وكان أوّل ما وقع بين أيديهم من تلك القلاع قلعة قدموس. أمّا أوّل معقل اتخذوه لهم في هذه المنطقة فكان قلعة بانياس. وقد تراوح عددهم في مناطق الشام يومذاك بين أربعين ألفاً وستّين ألف مقاتل[٢].

برز على رأس هؤلاء الحشّاشين في بلاد الشام رجل اسمه راشد الدّين سنان، الذي قادهم مدّة تزيد على الثلاثين سنة بدءاً من العام ٥٥٨ هـ / ١١٦٢ م. وكان سنان داعي الدعاة في هذه الحقبة، وقد لقبّه الإفرنج بشيخ الجبل، نظراً لسيطرته على المناطق الجبليّة المحيطة بمقرّه في قلعة مصياف[٣]. وقد قام رجال «شيخ الجبل» بمحاولتين فاشلتين لاغتيال صلاح الدين لأنّه كان يحارب الشيعة عموماً والإسماعيليّة بشكل خاص[٤]. وقد هاجم صلاح الدين قلعة مصياف ولم يتمكّن من قهرها. وعندما اغتالت عصابة تخفّت بزيّ النصارى ملك القدس: كونراد مونتفرات سنة ٥٥٨ هـ ١١٦٢ م. تردّد أنّ صلاح الدين قد استخدم الحشّاشين لهذه الغاية[٥]. كذلك يُعزى إلى الحشّاشين قتل كبير آخر من اعلام الصليبيّين، هو: الكونت ريموند الثاني حاكم طرابلس (حوالى ١١٥٢). وعندما قام أحد أشراف الإفرنج بزيارة خلَف سنان في حصنه الجبليّ «ذي الأبراج الشامخة، وكان يتولّى حراستها جماعة من الحشّاشين بالثياب البيضاء» أراد الشيخ أن يدلّ

١ - راجع: ابن خلدون، ج ٥، ص ١٥٣ - ١٥٤؛ ابن الأثير، الكامل، ج ١٠ ص ٣٤٩
٢ - Burchard of Mount Zion. tr. Aubrey stewart, (London, 1896) P. 105
٣ - راجع ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ٤٣٦ وقد ذكر إسم القلعة خطأً «مصياب» وفي بعض المخطوطات «مصياث».
٤ - ابن الأثير، الكامل، ج ١١ ص ٤١٨ - ٤١٩؛ أبو الفداء، ج ٣ ص ٦٠ - ٦١
٥ - ابن الأثير، الكامل، ج ١٢ ص ٥١؛ Jacques de Vitry, the History of jerusalem, tr. Aubrey stewart (London 1896) PP. 334 - 335.

الزائر على إخلاص جماعته، «ولدى إشارة منه عمد اثنان من الحرس إلى الالقاء بنفسيهما من أعلى البرج إلى الصخور فتمزّقا شرّ تمزيق[1]». ويُشير بعض المدوّنات إلى أنّ الحشّاشين حاولوا اغتيال القدّيس لويس قبل قيامه من فرنسة، كما أنّهم حاولوا اغتيال أحد كبار القادة في منغولية، ممّا من شأنه أن يدلّ على مدى اتساع نطاق نشاطهم.

بقي الحشّاشون على حالهم حتّى قضى عليهم المغول سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٦ م. ووجّه إليهم رابع سلاطين المماليك: الملك الظاهر بيبرس، الضربة القاتلة سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م.

وبنهاية الحشّاشين، انتهت القوّة الإسماعيليّة المقاتلة إلى الأبد، إلاّ أنّ أتباعاً قلائل لهذه الطائفة بقوا متفرّقين في مناطق عربيّة متفرّقة، أكثريّتهم في الجبال السوريّة، حيث يقارب عددهم اليوم الخمسين ألف نسمة.

١ - حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢ ص ٢٤٧؛ بالاستناد إلى: Marinus Sanuto, "Liber secretorum", in Bongars, Gesta Dei per Francos (Hanau, 1611) Vol. II, P. 201

الفصل الثاني عشر

العلويّون النصيريّون

- في نسبتهم ونشأتهم
- في معتقدهم
- في تاريخهم وحاضرهم

إجتهد المؤرّخون والبحّاثون حول أصل التسمية «العلويّة» لهذه الطائفة التي تُعرف أيضاً بـ «النصيريّة». بيدَ أنّ الرأي الأقرب للمنطق، هو القائل بأنّ نسبة العلويّين تعود إلى الإمام عليّ بن أبي طالب، وقد بقي سائر الفرق المتشيّعة لعليّ وأهل بيته يُعرف بهذه النسبة حتّى زمن قريب. أمّا لقب النصيريّة، فهو نسبة إلى محمّد بن نصير النميريّ، «باب» الإمام الحادي عشر: الحسن بن الهادي العسكريّ المتوفّي سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م.

من هو «الباب» ولماذا تنتسب إليه الطائفة النصيريّة؟

يقضي النظام الشيعيّ بأن يكون لكلّ إمام «باب» والباب عندهم هو صاحب أسمى مرتبة دينيّة بعد الإمام. فالإمام يأخذ عن «الباب» العلم، ويكون «الباب» صبّ الإمام وحجّته في الدين. ومن قول الرسول: «من طلب العلم فعليه بالباب». ومن قوله أيضاً عن عليّ بن أبي طالب: «أنا مدينة العلم وعليّ بابها» وفي القرآن الكريم آيات عن الباب، منها: «أدخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطاياكم[1]». و «أدخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنّكم غالبون[2]». وفيه أيضاً: «فلمّا نسوا ما ذكّروا به فتحنا أبواب كلّ شيء[3]».

يبدأ الاعتقاد «بالباب» عند النصيريّة بسلمان الفارسيّ، الذي اعتبروه «باب» الإمام عليّ. وأوّل ما يرد ذكره في المدوّنات، في أخبار غزوة الخندق، وهي غزوة الأحزاب، التي وقعت أيّام الرسول في السّنة الخامسة للهجرة ٦٢٦م. عندما «أشار سلمان الفارسيّ إلى الرسول بحفر خندق» لصدّ هجوم الأحزاب والقرشيّين

---

١ ـ الآية ٢:٥٨، ٧ : ١٦١

٢ ـ الآية ٥٠ : ٢٣

٣ ـ الآية ٦٠ : ٤٤

الذين كانوا ينوون استئصال محمّد وأتباعه. وعندما قسّم الرسول الخندق بين المسلمين، اختلف المهاجرون والأنصار في سلمان، كلّ يدّعي أنّه منهم، ذلك أنّ سلمان كان حرّاً حتّى ذلك التاريخ؛ أمام هذا الاختلاف قال الرّسول: «سلمان منّا. سلمان من أهل البيت[1]». وفي حصار الطائف بقيادة الرسول بعد ثلاث سنوات من معركة الخندق، نصب الرسول على المحاصرين منجنيقاً أشار به سلمان الفارسيّ[2]».

هذا الرجل، أصله من أصبهان، وقيل من أهل رامهرمز، كان قد سُبي على أيدي بعض من قبيلة كلب، وباعوه إلى يهوديّ بوادي القرى، ثمّ أعتقه الرسول «بعد أن أعانه» فأضحى من موالي الرّسول[3].

ثمّ يظهر اسم سلمان الفارسيّ بعهد عُمَر، في السّنة الخامسة عشرة للهجرة، ٦٣٦ م. إذ «ألحق عمر بأهل بدر أربعة من غير أهلها هم: الحسن والحسين وأبا ذرّ وسلمان[4]». يتّضح من ذلك رفعة المكانة التي كان قد حصّلها سلمان الفارسيّ حتّى ذلك التاريخ.

وفي ذكر له في السنة التالية (١٦ هـ / ٦٣٧ م.) ضمن أخبار «فتح المدائن الغربيّة» كان «سلمان الفارسيّ رائد المسلمين وداعيتهم». ثمّ نجد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يستعمل سلمان الفارسيّ لمهامّ ذات شأن، معتمداً على ذكائه وإخلاصه. ويبدو أنّ ابن الخطّاب كان يعتمد رأي سلمان في الدّين والفكر، إذ سأل ابن الخطّاب سلمان الفارسيّ يوماً: «أمَلك أنا أم خليفة؟» ـ فقال له سلمان: «إن أنت جبيت من أرض المسلمين درهماً أو أقلّ أو أكثر ووضعته في غير حقّه

١ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ١٧٨ ـ ١٧٩؛ قابل: اليعقوبي، ج ٢ ص ٥٠
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ٢٦٦
٣ ـ المرجع السابق، ص ٣١٢
٤ ـ المرجع السابق، ص ٥٠٣

فأنت ملك غير خليفة[1]». فبكى عمر. ثمّ نلتقي سلمان الفارسيّ محارباً مع جند الخليفة عثمان سنة ٣٢ هـ / ٦٥٢ م. في جرجان. وفي أخبار سنة ٣٦ هـ / ٦٥٦ م. نصادف خبر موت سلمان الفارسيّ «وقول بعضهم إنّ عمره مائتان وخمسون سنة، وهذا أقلّ ما قيل فيه، وقيل: ثلاثمائة وخمسون سنة، وكان قد أدرك بعض أصحاب المسيح[2]»...

ليس واضحاً تماماً لماذا اعتبر النصيريّون سلمان الفارسيّ «باب» الإمام عليّ، ولكنّ الثابت أنّهم يعتقدون باطّلاعه على العلوم السرّية وغيبيّاتها، وطبيعة النبوّة، «فهو الواسطة بين النصرانيّة (المسيحيّة) والإسلام» واستندوا في ذلك إلى قول الرسول: «سلمان منّا أهل البيت[3]».

تأتي أهميّة سلمان الفارسيّ عند النصيريّة بعد عليّ ومحمّد، وتؤلّف الحروف الثلاثة الأولى من هذه الأسماء (ع. م. س) سرّاً دينيّاً عندهم، وهي تشير إلى: عليّ، محمّد، سلمان.

إضافة إلى اعتبارهم سلمان الفارسيّ «باب» الإمام عليّ، يقول النصيريّة بأنّه كان لكلّ إمام، من عليّ إلى الإمام الحادي عشر الحسن العسكريّ، «باب». وهم، بعد سلمان، قيس بن ورقة المعروف بالسفينة، الذي كان «باب» الإمام الثاني: الحسن المجتبي؛ ثمّ رشيد الهجريّ، الذي كان «باب» الإمام الثالث: الحسين الشهيد؛ ثمّ عبد الله الغالب الكايلي كنكر، الذي كان «باب» الإمام الرابع: عليّ زين العابدين؛ ثمّ يحيى بن معمّر بن أمّ الطويل الشماليّ، الذي كان «باب» الإمام الخامس: محمّد الباقر؛ ثمّ جابر بن يزيد الجعفيّ، الذي كان «باب» الإمام

١ ـ المرجع السابق، ص ٥١٤، ٥٢٧ ـ ٥٢٨
٢ ـ ابن الأثير، الكامل، ج ٣ ص ٢٨٧
٣ ـ الدكتور صابر طعيمة، الشيعة معتقداً ومذهباً، ص ٢٠٤

السادس: جعفر الصادق؛ ثمّ محمّد بن أبي زينب الكاهليّ، الذي كان «باب» الإمام السابع: موسى الكاظم؛ ثمّ المفضّل بن عمر الجعفيّ، الذي كان «باب» الإمام الثامن، عليّ الرّضا؛ ثمّ محمّد بن مفضّل بن عمر، الذي كان «باب» الإمام التاسع: محمّد الجواد؛ ثمّ عمر ابن الفرات المعروف بالكاتب، الذي كان «باب» الإمام العاشر: عليّ الهادي؛ ثمّ أبو شعيب محمّد بن نصير النميريّ، الذي كان «باب» الإمام الحادي عشر الحسن العسكريّ[1].

من بين هؤلاء «الأبواب» يولي العلويّون اهتماماً خاصّاً، بعد سلمان الفارسيّ «باب» الإمام عليّ، لـ «باب» الإمام الثامن عليّ الرّضا، المفضّل بن عمر الجعفي، تلميذ الإمام جعفر الصادق، الذي نقل عن معلّمه «أقواله وأخباره» ووضع كتاب «الهفت والأظلّة» الذي يُعتبر مصدراً أساسياً في مضمون المعتقد العلويّ. ثمّ لـ «باب» الإمام الحادي عشر الحسن العسكريّ: أبي شُعيب محمّد بن نصير النُميري، الذي أناب في الدين بعد غياب الإمام الثاني عشر، والذي اعتُبر مؤسّس المذهب العلويّ. وقد انتسب العلويّون إلى ابن نصير هذا؛ فعُرفوا بالنصيريّين، رغم أنّ هنالك العديد من الاجتهادات التي تناقض هذا التفسير.

فقد تحدّث البحّاثون عن كتاب اسمه «كتاب المجموع[2]» للخصيبي وهو مؤلّف من ست عشرة سورة. وقد ورد فيه بشكل واضح انتساب النصيريّين إلى

١ - أبو موسى الحريري، العلويّون النصيريّون، دار لأجل المعرفة (بيروت ١٩٨٧) ص ٢٥؛ بالاستناد إلى: كتاب تعليم ديانة النصيريّة، المكتبة الوطنيّة في باريس تحت الرقم ٥١٨٨ والرقم ٦١٨٢. (مخطوطة)

٢ - وردت الاشارة إلى هذا الكتاب في: «كتاب الباكورة السليمانيّة في كشف أسرار الديانة النصيريّة» لسليمان أفندي الأذنيّ، (بيروت ١٨٦٣) R.Dussaud, histoire et Religion des Nosairis. (Paris 1900) Lib. E. Bouillon, P. 213; E. Salishary, the Book of Sulaiman's First Ripe Fruit, Disclosing the Mysteries of the Nusairian Religion..., in Journal of the American oriental Society, t. VIII, P 227 - 308;
هذه المراجع بالاستناد إلى الحريري، العلويّون النصيريّون، ص ٣٠، ٢٦١، ٢٦٤

ابن نصير هذا، «باب» الإمام العسكريّ. وقد جاء فيه: «ومن محمّد بن نصير، أقام النسب والدين[1]». كما جاء: «إنّي نصيريّ الدين، جندبيّ الرأي، جنبلانيّ الطريقة، خصيبيّ المذهب، جليّ المقال، ميمونيّ الفقه[2]». غير أنّ بعضهم ردّ اسم النصيريّة إلى «نصير، غلام عليّ بن أبي طالب[3]». وردّ سواهم الاسم إلى «النصارى» فاعتبر أنّ تسمية «النّصيريّة» جاءت من قبل أعداء هذه الطائفة الذين سمّوهم بالنصيريّة بمعنى «النصارى الصّغار[4]». وذهبت الاجتهادات أحياناً إلى تفسير الاسم بأنّه يعني النّصر والفلاح[5].

أمّا الاسم الكامل لابن نصير الذي تنتسب إليه هذه الطائفة، فهو: «أبو شعيب محمّد بن نصير البصريّ البكريّ النميريّ العبديّ[6]». وفيما اعتبر بعضهم أنّه من أصل عربيّ، بالاستناد إلى نسبته هذه، قال آخرون بأنّه قد يكون من خوزستان من بلاد فارس[7].

الى هذا الرّجل، ينتسب النصيريّة، منطقيّاً. إذ لا يُعقل أن يكونوا منتسبين الى نصير، غلام الإمام عليّ، دون أن يبرز اسمهم كنصيريّين قبل سنة ٢٦٠ هـ / ٨٧٣ م. تاريخ وفاة الإمام العسكريّ. أمّا القول بأنّهم قد لقّبوا بالنصيريّة، نسبة

١ - الخصيبي، كتاب المجموع، السورة ٤، عنوانها: النسبة

٢ - الخصيبي، كتاب المجموع، السورة ١١. عنوانها: الشهادة؛ وسيرد شرح لباقي الاسماء: الخصيبي، جندب الخ.

٣ - الدكتور صابر طعيمة، ص ١٩٩ بالاستناد إلى: الشيخ نصر الدين محمّد بن إبراهيم بن ساعد الأنصاري الافغاني السنجاري المتوفّي سنة ٧٩٤ هـ / ١٣٩١ م. في كتابه: «إرشاد القاصد إلى أسنى المقاصد»؛ أبو الفداء في Chronique Arabe, ed. Beyrouth, P. 232

٤ - الحريري، العلويّون النصيريّون، ص ٢٩ بالاستناد إلى WOLFF, Catéhisme des Nosairis Z. D.M.G. III; Renan, Mission de Phénicie, P. 114

٥ - الحريري، العلويّون النصيريّون، ص ٢٩ بالاستناد إلى: Ritter, Erdkunde, XVII, 979, 993; cité par R. Dussaud dans son "Hist. et religion des Nosairis, P. 9

٦ - الحريري، العلويّون النصيريّون، ص ٢٧

٧ - الشهرستاني، الملل والنحل، ص ١٨٨ - ١٨٩، ١٧٣ - ١٧٥

إلى النصرانيّة، فادعاء يلزمه البرهان، في وقت يتعزّز انتماؤهم إلى ابن نصير بأكثر من برهان.

يبقى أنّ زمن تأسيس ابن نصير لهذه الطائفة، غير محدّد بدقّة، إذ هناك اعتبارات عدّة حول هذه النقطة. فمنهم من يعتبر أنّ بعضاً من الشيعة التابعين لمذهب الاثني عشريّة، قد قال بوجوب الانقياد لباب الإمام الراحل، بعد موت الإمام الثاني عشر: العسكريّ، بينما قال سواهم بوجوب اتّباع ابنه محمّد الذي صار يُعرف فيما بعد بالمهديّ المنتظر، ورأى آخرون غير ذلك، ممّا جعل الاثني عشريّة ينقسمون إلى عدّة فرق[1]. أمّا الذين تبعوا «الباب»، فقد ألّفوا بداية المذهب النصيريّ.

غير أنّ مدقّقين آخرين يرون أنّ محمّد بن نصير، قد والى إمامة محمّد المهديّ، لكنّ «قسماً من المنتظرين عودة الإمام الغائب ملّ الانتظار، وعظُم عليه أن يبقى بدون إمام مرجع حيّ يرجع إليه الناس في صعوبات الحياة ومحن الإيمان. فإنّ الله، برأي هؤلاء، لن يترك عبيده ـ هملاً ـ بدون حجّة في الدين، أو بدون دليل على الله، أو قدوة ملموسة يتشبّهون بها، أو مثال حيّ يسعون إليه... لذلك قالوا بأنّه من الأمور الطبيعيّة أن لا يبقى العلويّون بدون مرجع يقتدون به، إذ مهما تعالى البشر وتمسّكوا بالمعنويّات لا غنى لهم عن الأخذ بالمادّيّات[2]». وبما أنّ «الباب» عند الشيعة له من الاعتبار ما سبق ذكره، فقد اختار هؤلاء «باب» الإمام المتوفّى، أو بالأحرى «آخر الأبواب» ليكون مرجعهم، ذلك أنّ ابن نصير، هو آخر الأبواب.

بيدَ أنّنا نميل إلى اعتبار أنّ ابن نصير، قد أصبح متّبعاً من قبلِ من اتّبعوه

١ ـ راجع الفصل الثامن من هذا المجلّد، تحت عنوان: الإمام المهديّ، والغيبة، والرجعة ص ٥٠

٢ ـ محمّد أمين غالب الطويل، تاريخ العلويّين، دار الأندلس، (بيروت ١٩٦٦ ط ٢) ص ٤٨٨.

فور موت الإمام العسكريّ، لأنّ اسمه لم يرد بين أولئك الذين كانوا في مراتب دينيّة سامية، جعلتهم يكونون صلة الوصل بين الإمام الغائب وسائر الأتباع.

يبقى من الصعوبة بمكان أن يجزم الباحث في موضوع ابن نصير، وتفاصيل أمره، لأنّ البحث في الأمور الباطنيّة يبقى شائكاً، وأحياناً عقيماً، لندرة المدوّنات، ولعدم وضوحها في حال وجودها. منها مثلاً كلام عن ابن نصير، ورد في أحد كتب النصيريّة، فيما يلي نصّه:

«إنّ محمّد بن نصير هو باب الله، الذي لا يُتّخذ بعده باب غيره. وكان هو الباب إلى غيبة سيّدنا أبي محمّد (الإمام العسكري). وغاب الباب. وتمّ الإسم شخصين: الحسن العسكري ومحمّد بن نصير. والمعنى (عليّ بن أبي طالب) جلّ وعلا ظاهر بالذات كمثل صورة عليّ العسكري منه السلام... وطلبته القرون وقصدته فراعنة الأرض وأظهر الغيبة يوم الاثنين بخمس ليالي بقيت من جمادي الآخر سنة وأربعة وخمسين ومائتين من أوّل سنين الهجرة. مدّة هذا المقام أربعين سنة، منها مع المولّى محمّد ستّة سنين وخمس أشهر، وبعد غيبة محمّد ثلاثة وثلاثين سنة وسبعة أشهر... ولم يظهر في هذه الغيبة قتل ولا سمّ بل غيّب الإسم. وهو الحسن العسكريّ، وظهر كمثل صورته... وأظهر الإسم وهو مولانا المهديّ صاحب الزمان محمّد إبن الحسن... طلوع الفجر يوم الجمعة لثماني ليالي خلون من شعبان سنة سبعة وخمسين ومائتين من أوّل سنين الهجرة. فلم يزل الاسم شخصين: مولانا المهدي صاحب الزمان محمّد ابن الحسن، والسيّد محمّد بن نصير علينا سلامه[1]».

فهل هذا يعني تأريخاً لوفاة ابن نصير؟!

على أيّ حال، فإنّ التحقيقات التي حصلت حول ابن نصير، تبدو متناقضة بمجملها. ففي الوقت الذي أجمع فيه البحّاثون على أنّ ابن نصير كان «باب» الإمام العسكريّ، وهو الإمام الحادي عشر من أئمّة الاثني عشريّة، فإنّ عدداً كبيراً

١ ـ مناظرة «السيّد الفاضل العلاّمة الشيخ يوسف ابن العجوز الحلبي المعروف بالنشّابي قدّس الله روحه يذكر التوحيد المشعشع من نور البيت الشعبي الجليل الشامخ معدن الأصل والشرف الباذخ» مخطوط باريس رقم ١٤٥٠، ص ١١٩ ب ـ ١٢٠ أ بالاستناد إلى: الحريري، العلويّون النصيريّون، ص ٢٨ - ٢٩.

من المؤرّخين والمحقّقين، قال بأنّ «ابن نصير يتحدّر من القرامطة، وهم من الشيعة المتطرّفة، ينتسبون إلى الإسماعيليّين والفاطميّين، ونظامهم شبيه بجمعيّة سرّية ذات مبدأ اشتراكيّ[1]». وبما أنّه من القرامطة، فقد تطرّف ابن نصير في حبّ آل البيت وغالى في تقديسهم. وقد حقّق بأمره البحاثّة «ڤان ديك» الأميركيّ الذي كانت له نشاطات علميّة في بيروت، فكتب أنّه قام من طائفة القرامطة «نصير النميريّ، شيخ كثير الصلوات والأصوام، معتبَر من الأولياء، اختار اثني عشر رسولاً ينذرون باسمه ويعلّمون تعاليمه، وقد كتب ابن نصير كتاباً يقول فيه: ـ أنا فلان الذي يُظنّ به أنّه ابن عثمان، رأيت المسيح الذي هو كلمة الله، وهو أحمد ابن محمّد ابن الحنفيّة من ولد عليّ، وهو أيضاً جبريل الملاك، فقال لي: أنت القارئ أنت الصادق أنت الحمل الحافظ الغضب على الكافرين، أنت البقرة الحامل خطايا المؤمنين، أنت الروح، أنت يوحنّا بن زكريّا، علّم الناس أن يعملوا في صلواتهم أربع ركعات: إثنتين قبل شروق الشمس، وإثنتين قبل غروبها، متّجهين إلى أورشليم ـ».

إنّ هذا الشرح، يدلّ على أنّ هنالك ما يشبه الخلط بين ابن نصير، ودعاة القرمطيّة والإسماعيليّة. ثمّ هل يُعقل أن يختار الإمام الاثنا عشريّ «بابا» له من السبعيّة ـ الإسماعيليّة أو من القرامطة؟! إنّ ذلك يبدو لنا مستبعداً. ومن شأن هذا التناقض أن يفيد عن مدى المغالطات التي تعرّضت لها الطوائف الباطنيّة من جرّاء الدراسات التي تناولتها.

يتّضح لنا من خلال المراجعات المتفرّقة، أنّ ابن نصير، كان يتمتّع بذكاء خارق، وقد عكف على دراسة مبادئ كافة الفرق الشيعيّة، وصاغ منها المعتقدات

١ ـ Bernard Lewis, the origins of Islam, (Cambridge, 1940) P. 19 - 22

النصيريّة السرّية، ولا تزال تعاليمه مطبّقة، وهي منطلق الوعظ والإرشاد عند رجال الدين النصيريّين[1].

انتقل ابن نصير من العراق إلى سورية حيث راح ينشر تعاليمه، وغاب هناك ولم يعد يعرف عنه شيء. وقد خلفه في «البابيّة» محمّد بن جندب، ثمّ عبد الله الجنان الجنبلاني «العابد الزاهد الذي هو من بلاد فارس[2]»، وأسّس الطريقة الصوفيّة المعروفة عند النصيريّة بالجنبلانيّة، ووضع الفقه العلويّ الخاص بالنصيريّة مقابل الفقه الجعفريّ عند الاثني عشريّة. وكان عبد الله يُقيم في بلدة جنبلا من أعمال فارس، فنُسب إليها. وقد سافر الجنبلاني إلى مصر، وهناك اختار له رجلاً مساعداً عُرف بالخصيبيّ، وأدخله طريقته، واستصحبه معه إلى جنبلا عند عودته إليها، وفيها توفّي عبد الله الجنان الجنبلاني سنة ٢٨٧ هـ / ٨٩٩ م[3]. فخلفه أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبي، وهو الذي صحبه من مصر، فكان «أعظم من كل من بعده، إذ أكمل صلواتهم وأذاع تعليمه في البلدان[4]».

قبل أن يتولّى الخصيبيّ «الباب» العلويّ، وقبل أن يعتنق مذهب النصيريّة على يد الجنبلاني، كان مولى إسماعيليّاً من موالي الحمدانيّين في حلب. وقد نفح في أنصاره الروح والنشاط، ورتّب أنظمتهم ودبّر أمورهم، وهم يذكرونه في صلواتهم كما سبق وأوردنا، ويضيفون إلى ذلك: «شيخنا وسيّدنا وتاج رؤوسنا وقدوة ديننا وقرّة أعيننا أبو عبد الله الحسين بن حمدان الخصيبيّ قدّس العليّ روحه لأنّ مقامه مقام الصفاء ومحلّه محلّ الصدق والوفاء[5]». وقالت تعاليم الخصيبيّ،

١ ـ الشيخ عبد الرحمن خير في بيان إلى الطائفة العلويّة. منشور «وحيد العين» ص ٦ ـ٧، ويقول إنّ بن نصير قد كُنّي بوحيد العين وبوارد الوقت.
٢ ـ كتاب المجموع، السورة ٤ تحت عنوان النسبة
٣ ـ الحريري، العلويّون النصيريّون، ص ٣١
٤ ـ سليمان الأذني، الباكورة السليمانية، تحقيق Salsbury في Journal of the American Oriental Society, Vol. 8, P. 243
٥ ـ L. Massignon, dans: Actes du XVIII congrès internatinal des orientalistes. (Leyden 1931) P. 21 الأذني، الباكورة، سورة الأول

المعلّم النصيريّ المجدّد، بأنّ المسيح هو كلّ نبيّ، وبالاجمال فإنّ كلّ نبيّ ظهر في هذا العالم هو المسيح. كذلك بعض حكماء الوثنيّين وحكماء الفرس والعرب الجاهليّة[1].

وإذ ترك الخصيبيّ بلاد الشام قاصداً بغداد لنشر تعاليمه، أمر والي بغداد بالقبض عليه، فأودع السجن، بيدَ أنّه تمكّن من الفرار بعد حين، واشتهر بين أتباعه أنّ السيّد خلّصه ليلاً[2].

بعد أن أسّس الخصيبيّ مدرسة في بغداد ورأس عليها الشيخ عليّ بن الجسريّ، قصد عائداً إلى حلب، واستقرّ فيها ينشر تعاليمه، حتّى توفّي سنة ٣٤٦ هـ / ٩٥٧ م. بعد أن أسّس مدرسة أخرى في حلب، ورأس عليها الشيخ محمّد عليّ الجليّ، وقد ألّف كتباً عديدة قبل رحيله، منها كتاب «رامن باش» ومعناه «كن مستقيماً» وأهداه الى تلميذه عضد الدولة. وكتاب «الهداية الكبرى» الذي أهداه الى سيف الدولة بن حمدان، مؤسّس الدولة الحمدانيّة في حلب. وهذا ما يجعلنا نميل إلى اعتبار أن الدولة الحمدانيّة الشيعيّة إنما كانت نصيريّة المذهب[3]. وبعد موت الخصيبيّ بزمن قصير، توقّفت مدرسته في بغداد، بينما انتقلت مدرسته في حلب إلى اللاذقيّة، حيث راحت تزدهر بفضل القيّمين عليها، وأشهرهم: «أبو سعيد الميمون بن قاسم الطبرانيّ» الذي ألّف كتباً عديدة في العقيدة النصيريّة، منها: «مجموع الأعياد» وكتاب «الدلائل بمعرفة المسائل» وكتاب «الهادي في واجبات التلاميذ»، وسواها.

ومن مشاهير من تعهّدوا الدعوة النصيريّة بعد أبي سعيد الميمون، الأمير حسن المكزون (توفي ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م.) وقد جاء اللاذقيّة من سنجار على

١ ـ الأذني، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤
٢ ـ المرجع السابق.
٣ ـ راجع الفصل التاسع من هذا المجلّد، تحت عنوان: دولة الحمدانيّين ص ٨٠ وما يليها.

رأس قوّة عسكريّة كبيرة لنجدة بني قومه من تجاوزات الأكراد[1]. وخلف المكزون مشايخ عدّة، منهم الشيخ حاتم الطوبانيّ، والشيخ حسن البرّيّ، والشيخ عليّ القصير، والشيخ إبراهيم الطرطوسيّ..

في معتقدهم

قيل الكثير في معتقدات النصيريّة، وبوسع الدارس لهذه الأقوال أن يلاحظ بعض التجنّي عليهم من خلال التناقضات الواردة فيها. ولا عجب من ذلك لأنّ أكثر مَن وضع تلك النظريّات التي يصحّ أن تُسمّى بالاتهامات، هم من خصوم العلويّين النصيريّين وأحياناً من أعدائهم. بيدَ أنّ الثّابت من تعاليمهم أنّهم من المغالين في اعتبار عليّ بن أبي طالب. وكانت فرق كثيرة من الشيعة، قبل النصيريّة، قد ألّهت الإمام الأوّل، كما ورد في الفصول الأولى من هذه الدراسة. وفي الصلوات والدعاءات المنسوبة إلى النصيريّة، أنّهم يضعون عليّاً في أعلى المراتب[2]. وما يجب أخذه بعين الاعتبار هنا، هو أنّ العقيدة النصيريّة عقيدة باطنيّة، فيها القول بالباطن والظاهر، وبذلك يصبح الأخذ بأيّ كلام حول حقيقة معتقدها ضرباً من التقدير. ففي الباطنيّة، قول بالحقيقة والشريعة، وبالمرموز والرمز، وبالممثول والمثال، فإنّ «الظاهر في تقلّب مستمرّ مع حقب العالم وأدواره، أمّا الباطن فطاقة إلهيّة غير خاضعة للصيرورة[3]». وأفضل تعبير عن هذه العقيدة قول عليّ بن أبي طالب: «ما من آية قرآنيّة إلاّ ولها أربعة معان: ظاهر وباطن وحدّ ومطّلع. فالظاهر التلاوة، والباطن الفهم، والحدّ أحكام الحلال والحرام، والمطّلع مراد الله من العبد بها».

١ ـ محمّد الطويل، تاريخ العلويّين، ص ٣٠٦
٢ ـ راجع: البغدادي، الفرق بين الفرق، ص ٢٢٥ وما يليها؛ سورة الشهادة، وهي السورة الحادية عشرة، من كتاب المجموع؛ وسورة الفتح (السورة الخامسة) من المرجع نفسه.
٣ ـ هنري كوربان، تاريخ الفلسفة الاسلاميّة، الجزء الأوّل، ص ٤٢

وأشار جعفر الصادق إلى ذلك بقوله: «إنّ في كتاب الله أموراً أربعة: العبارات والإشارات واللطائف للأولياء والحقائق للأنبياء». والباطن هو العلم الذي لا يُباح به حسب قول زين العابدين: «وربّ ظاهرِ علمٍ لو أبوح به لقيل لي أنت ممّن يعبد الوثنا». لذلك فإنّ القول بالباطن يحتّم القول بـ «التقيّة» لأنّ الباطن حقيقة، والحقيقة يجب ألاّ يطّلع عليها إلاّ أهلها ومستحقُّوها، وباعتبارهم أنّ القرآن أشار إلى ذلك بقوله: «إنّ الله يأمركم أن تؤدّوا الأمانات إلى أصحابها[1]». وقال الإمام جعفر الصادق: «قضيّتنا سرّ في سرّ، سرّ أمر دائم السرّ، سرّ لا يكشف عنه إلاّ سرّ آخر، إنّه سرّ على سرّ، يكتفي بسرّ».

أمام هذا الواقع الواضح، يصبح مشكوكاً بكلّ مرجع يتحدّث عن العقيدة النصيريّة، وإن كان قد ظهر مؤخّراً العديد من هذه الدراسات[2]، التي جاء في بعضها[3]:

«يرى النصيريّة أنّ خطاب الديانة والدعوة والبلاغ عنهم سرّ مصون لا يجوز لأحد أن يذيعه، ولو أدّى ذلك إلى قتله، ويحلفون على كتمانه، فلا يعرفه إلاّ من كان من أهل دينه وعقيدته، فيجب إخفاء مقالتهم. يقول القلقشنديّ: ـ ولهم خطاب بينهم من خاطبوه به لا يعود يرجع عنهم ولا يذيعه، ولو ضرب عنقه ـ وقال: ـ وقد جرّب هذا كثيراً، وهم ينكرون إنكاره ويخفون مقالتهم، ومن أذاعها فقد أخطأ عندهم، ويرون أنّهم على الحقّ، وأنّ مقالتهم مقالة أهل التحقيق، ومن أنكر عندهم ذلك فقد أخطأ. وإيمانهم في الحلف على معتقدهم ـ».

---

١ ـ الآية ٤ : ٥٨

٢ ـ منها: كتاب الباكورة السليمانيّة في كشف أسرار الديانة النصيريّة، تأليف سليمان أفندي الأذني، نشر: دار لأجل المعرفة (بيروتَ ١٨٦٣ أولى ١٩٨٨ ثانية)؛ أبو موسى الحريري، العلويّون النصيريّون، دار لأجل المعرفة، (بيروت ١٩٨٧)؛ أنور ياسين، تعليم الدين العلوي، دار لأجل المعرفة (بيروت ١٩٨٦)؛ الدكتور صابر طعيمة، الشيعة معتقداً ومذهباً، المكتبة الثقافيّة (بيروت ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م)؛ الدكتور عبد الرحمن بدوي، مذاهب الاسلاميّين، دار العلم للملايين (بيروت ١٩٨٣ طبعة ٣).

٣ ـ طعيمة، ص ٢٠٥

ويورد القلقشنديّ نصّ القسم العلويّ بعدم البوح بأسرار الديانة على الشكل التالي:

«إنّني وحقّ العليّ الأعلى، وما اعتقده في المظهر الأسنى، وحقّ النّور وما نشأ منه والسحاب وساكنه، وإلاّ برئت من مولاي عليّ العليّ العظيم وولائي له ومظاهر الحقّ. وكشفت حجاب سليمان بغير إذن، وبرئت من دعوة الحجّة (ابن نصير) وخضت مع الخائضين في لعنة ابن ملحم، وكفرت بالخطاب وأَذعتُ المصون، وأنكرت دعوى أهل التحقيق، وقلعت أصل شجرة العنب من الأرض بيدي حتّى أجتثّ أصولها وأمنع سبيلها. وكنت مع قابيل على هابيل، ومع النمرود على إبراهيم، وهكذا مع كلّ فرعون قام على صاحبه إلى أن ألقى العليّ العظيم وهو عليّ ساخط وأبرأ من قول (قنبر) وأقول إنّه بالنار ما تطهّر[1]».

... والواقع هذا، كيف يستطيع المرء أن يتأكّد من صحّة ما أشيع بأنّه قد تسرّب من أسرار النصيريّة؟ يبقى من غير الأسرار ما عندهم من أعياد. وإذا كان التشدد في السرّية بشأن دينهم قد جاء نتيجة الاضطهاد والظلم اللذين تعرّض لهما العلويّون ـ النصيريّون طيلة تاريخهم المنكود، فإنّ من شأن أعيادهم أن تدلّ بوضوح على ممارستهم التقيّة، من المنطلقات نفسها؛ فجاءت أعيادهم لتساير كلّ من استقوى عليهم في وقت من الأوقات. أمّا أهمّ تلك الأعياد، فهي: عيد الغدير في ١٨ ذي الحجّة، وهو عيد عند أكثر الفرق المتشيّعة[2]. وعيد الأضحية في ١٠ منه، وعيد المهرجان في ١٦ تشرين الأوّل (أوكتوبر)، وعيد البربارة في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر)، وعيد بعد أسبوع منه، وعيد بعد أسبوع آخر منه، وعيد ميلاد المسيح في ٢٥ كانون الأوّل (ديسمبر)، وعيد الغطاس في ٦ كانون الثاني (يناير)، وعيد السابع عشر من آذار (مارس)، وعيد أوّل نيسان إپريل، وعيد

---

١ ـ القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣ / ص ٢٥١ بالاستناد إلى المرجع السابق.

٢ ـ عيد الغدير عند الشيعة، نسبة إلى غدير الخمّ، وهو نبع في واد قريب من جحفة على الطريق بين مكّة والمدينة، يعتقد الشيعة بأن الرسول توقّف عنده أثناء عودته من حجّة الوداع وسمّى عليّا خليفة له هناك.

الرابع منه، وعيد الخامس عشر منه، وعيد الغدير الثاني في ٩ ربيع الأوّل، وعيد ليلة منتصف شعبان، وعيد يوحنّا المعمدان، ويوحنّا فم الذهب، وعيد الشعانين، والعنصرة، وعيد لمريم المجدليّة.

المجتمع النصيريّ، دينيّاً، ينقسم إلى طبقتين: الجهّال والمشايخ، فالجاهل يدخل في الديانة تدريجاً على يد أستاذ، له من تلميذه كلّ التكريم والإجلال والاعتبار. هذه الاعتبارات لا تُعطى للوالد الطبيعيّ، فإنّ هذا الوالد يعرّض أولاده «لدار الشقاء» وأمّا ذلك الأب الروحيّ الذي هو الأستاذ «فيقودهم إلى معرفة الحقّ»، والأستاذ لا يكون إلاّ من شيوخ العلم العقّال الذين ينقسمون بدورهم إلى ثلاث مراتب: الإمام، والنجيب، والنقيب. هؤلاء يستشيرهم الجهّال في كلّ شيء، حتّى إنّ حكم الشيخ المستشار لا مردّ لحكمه، ويبلغ الاعتقاد عندهم بشيوخهم أنّهم معصومون من الخطأ. وعندهم طقوس ورتب في موضوع تسليم الدين، وعندهم مراتب تحصّل بالتدرّج، وعندهم صلوات وقداديس كثيرة وأدعية محدّدة. أمّا طوائف النصيريّة فأربع، والفروقات بينها في المعتقد طفيفة. وتُعرف تلك الطوائف بالطّائفة الشماليّة، والطّائفة الكلازيّة، وطائفة الشفق، وطائفة الهوا[1].

لمحة تاريخية

نادراً ما عرف العلويّون ـ النصيريّة الاستقرار طوال تاريخ وجودهم الذي بدأ في نهاية القرن التاسع الميلادي، إذ كانوا أبداً موضوع اضطهاد من قِبَل سائر الملل والأديان، لا لشيء سوى لأنّهم لا يدينون بما يدين به المجموع. ففي بداية القرن العاشر الميلاديّ، ولأسباب أمنيّة، انتقل مركز حلب الدينيّ العلويّ ـ النصيريّ إلى اللاذقيّة كما أشرنا سابقاً، أمّا المجتمع النصيريّ، فقد اضطر إلى

١ ـ راجع: الحريري، العلويّون النصيريّون، ص ١٣٣ وما بعدها.

اللجوء الى المناطق الجبليّة في أكثر الأحيان، حتّى غدت جبال سورية الشماليّة الغربيّة تُعرف باسمهم: جبال النصيريّة، وأحياناً: «سلسلة النصيريّة، التي تتألّف من صخور كلسيّة جوراسيّة مع مواد بازلتيّة دخيلة[1]». و«شكلها العامّ بسيط نسبيّاً ولكنّه يتضمّن أودية عميقة متعدّدة وأخرى وعرة ومرتفعات شديدة الانحدار، تَحصّن فيها جماعة الحشّاشين الذين أقاموا في سورية، والتجأ إليها المسلمون غير السنّيّين المعروفون بالنصيريّة[2]». كذلك عُرف الساحل الشماليّ لسورية بساحل النصيريّة منذ زمن بعيد[3].

وفي حقبة ما مبكّرة، حاول النصيريّة، أو بعضهم، اللجوء إلى جبل السمّاق شرقيّ سورية، ولكنّ الدروز المتحصّنين هناك استقبلوهم بالقتال، واضطروهم إلى الإجلاء عن ذلك الجبل. وأكثر ممّا عانت طوائف الأقليّات عموماً في هذه المنطقة، ومنهم العلويّون النصيريّون، العزلة، بسبب وعورة الجبال التي سكنوها، وبعدها عن المدن. لذلك فقد وجد العلويّون النصيريّون في الصليبيّين عند قدومهم إلى المنطقة في نهاية القرن الحادي عشر، أملاً بالإنقاذ، رغم أنّ الصليبيّين في البداية قد هاجموا أهل هذه الطائفة، مثلما فعلوا مع سائر الطوائف الإسلاميّة، وقتلوا عدداً كبيراً من أبنائها[4]. بيدَ أن الصليبيّين لم يلبثوا أن سالموا النصيريّين، فبنوا في جبالهم أكثر قلاعهم وحصونهم المنيعة، ومنها حصن الأكراد، وقلعة صهيون، وحصن سليمان، وبرج صافيتا، وقلاع مصياف، والقدموس، والكهف، والرصافة وبانياس[5]. علماً بأنّ بعض هذه القلاع كان لحين بيد الحشّاشين. ويذكر بعض

١ ـ Louis Dubertret et al., Contributions à l’étude géologique de la Syrie septentrionale (Paris, 1933), Vol. I, PP. 23 - 24

٢ ـ حتّي، تاريخ سوريّة ولبنان وفلسطين، ج ١ ص ٣٣

٣ ـ المرجع السابق، ص ٣٢

٤ ـ الحريري، العلويّون النصيريّون، ص ٢١٢، بالاستناد إلى: Barhebraeus, Chronique syriaque, cité par Assemani, Bibl. orient., II 320...

٥ ـ الحريري، العلويّون النصيريّون، ص ٢١٣؛ راجع: حتّي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ج ٢س ص ٣٤٥

المدوّنات أنّ العلويّين ـ النصيريّين قد استفادوا من وجود الصليبيّين لينقضّوا على أعدائهم التاريخيّين: الإسماعيليّين، فهدموا قراهم، ودكّوا مدنهم، وأحرقوا بيوتهم ومزارعهم، وتعقّبوهم أينما رحلوا وأينما حلّوا. وجاء لنجدتهم الأمير حسن المكزون السنجاريّ سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م. آتياً من سنجار، ودخل جبال النصيريّة وأجلى عنها الأكراد من جهة، وأسقط نفوذ الإسماعيليّين من جهة ثانية، وخلّص العلويّين من ضربات الأكراد[1]. على أنّ هذا الوضع لم يدم طويلاً، إذ عاد الأكراد وتمكّنوا من النصيريّين بعد حين، خاصّة بعد أن قبض على زمام القيادة صلاح الدين الأيّوبيّ الذي كانت سياسته تقضي بالقضاء على جميع الطوائف الخارجة عن السنّة (٥٣٢ ـ ٥٨٩ هـ / ١١٣٨ ـ ١١٩٣ م.) وقد لاقت هذه الطائفة أقسى العذابات في عهد صلاح الدين، «فلم يبقَ لهم أدنى استراحة في جبلهم[2]». وقد يكون أقسى ما تعرّض له النصيريّون من اضطهاد، ذلك الذي عانوه على يد المماليك بعد رحيل الصليبيّين.

لقد كانت عواقب الحملات الصليبيّة على الأقلّيّات الدينيّة مُفجعة، فقد خشي المماليك من رجوع الإفرنج، إذ كان بعضهم قد تحوّل إلى جزيرة قبرص، فعمدوا إلى تخريب المرافئ، وإلى ضرب الطوائف التي تحالفت معهم، كما حاول المماليك إجبار النصيريّة على بناء المساجد في قراهم، ليسيروا في مذهبهم مسار السنّة، لكنّهم لم يتمكّنوا من حملهم على تأدية الصلاة فيها، فبدلاً من أن تكون تلك المساجد معابد للصلاة، جعلها الناس زرائب للمواشي والدواب[3]. وقد جاء إفتاء مفتي دولة المماليك ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ / ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م.) في النصيريّة لينزل فيهم أشنع خراب وإبادة ودمار.

١ ـ محمّد الطويل، ص ٣٠٦ ـ ٣٠٩
٢ ـ منير شرف، المسلمون العلويّون، من هم؟ وأين هم؟، المطبعة العموميّة، (دمشق ١٩٦١ ط ٣٠) ص ٤٤
٣ ـ ابن بطّوطة، تحفة النظّار في غرائب الأمصار، ج ١ ص ١٧٧

فقد وُجّه إلى مفتي دولة المماليك سؤال مكتوب حول ما «تقول السادة العلماء في النصيريّة»، وقد تضمّن السؤال اتهامات كثيرة ضدّ هذه الطائفة[1]، فجاء جواب ابن تيميّة طويلاً، وممّا جاء فيه:

«... هؤلاء القوم المسمّون بالنصيريّة هم وسائر أصناف القرامطة الباطنيّة أكفر من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمّة محمد (صلعم) أعظم من التتار والفرنج وغيرهم، فإنّ هؤلاء يتظاهرون عند المسلمين بالتشيّع وموالاة أهل البيت وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله ولا برسوله ولا بكتابه ولا بأمر ولا بنهي ولا ثواب ولا عقاب ولا جنّة ولا نار ولا بأحد من المرسلين قبل محمّد، صلعم، ولا بملّة من الملل السابقة. بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأوّلونه على أمور يفترونها يدّعون أنّها علم الباطن من جنس ما ذكر من المسائل ومن غير هذا الجنس، فإنّه ليس لهم حدّ محدود فيما يدعونه عن مواضعه إذ مقصودهم إنكار الإيمان وشرائع الإسلام بكل طريق، مع التظاهر بأنّ لهذه الأمور حقائق يعرفونها من جنس ما ذكر السائل، ومن قولهم: «إنّ الصلوات الخمس» معرفة أسرارهم، و «الصيام المفروض» كتمان أسرارهم، و «حج البيت العتيق» زيارة شيوخهم، وإنّ «يدي أبي لهب» هما أبو بكر وعمر، وإنّ «النبأ العظيم» و «الإمام المبين» هو عليّ بن أبي طالب. ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكتب مصنّفة. فإذا كانت لهم مكنة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مرّة الحجّاج، وألقوهم في بئر زمزم، وأخذوا مرّة الحجر الأسود، وبقي عندهم مدّة[2]، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصي عدده إلاّ الله تعالى، وصنّفوا كتباً كثيرة ممّا ذكره السائل وغيره... ومن المعلوم عندنا أنّ السواحل الشاميّة إنّما استولى عليها النصارى، ومن جهتهم، وهم دائماً مع كلّ عدوّ للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين. ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين، كالسواحل، وانقهار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم أن يستولي النصارى ـ والعياذ بالله ـ على ثغور المسلمين ما زالت بأيدي المسلمين حتّى جزيرة قبرص، يسّر الله فتحها عن قريب، وفتحها المسلمون في خلافة أمير المؤمنين (عثمان بن عفّان) رضي الله عنه، فتحها معاوية بن سفيان إلى أثناء المائة الرابعة... فهؤلاء المحادّون لله ورسوله كثروا حينئذ بالسواحل وغيرها، فاستولى

١ ـ نص السؤال في: الدكتور صابر طعيمة، ص ٢١٥.
٢ ـ يتّضح من هذا أنّ ابن تيميّة قد اعتبر النصيريّة من القرامطة، وهذا ما ليس صحيحاً (المؤلّف)

النصارى على الساحل، ثمّ بسببهم استولوا على القدس الشريف وغيره، فإنّ أحوالهم كانت من أعظم الأسباب في ذلك، ثمّ أقام الله ملوك المسلمين المجاهدين في سبيل الله تعالى كنور الدين الشهيد وصلاح الدين وأتباعهما، وفتحوا السواحل من النصارى وممن كان بهامتهم، وفتحوا أيضاً أرض مصر، فإنّهم كانوا مسؤولين عليها نحو مائتي سنة[1]، واتّفقوا هم والنصارى فجاهدهم المسلمون حتّى فتحوا البلاد، ومن ذلك التاريخ انتشرت دعوة الإسلام بالدّيار المصريّة والشاميّة. ثمّ إنّ التتار ما دخلوا بلاد الاسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلاّ بمعاونتهم ومؤازرتهم، فإنّ منجّم هولاكو الذي كان وزيرهم، وهو «النصر الطوس» كان وزيرهم لهم بألموت[2]، وهو الذي أمر بقتل الخليفة وبولاية هؤلاء. ولهم ألقاب معروفة عند المسلمين، تارة يسمّون (الملاحدة) وتارة يسمّون (القرامطة) وتارة يسمّون (الباطنيّة) وتارة يسمّون (الإسماعيليّة) وتارة يسمّون (النصيريّة) وتارة يسمّون (الخرميّة) وتارة يسمّون (المحمرّة) وهذه الأسماء منها ما يعمّهم ومنها ما يخصّ بعض أصنافهم، كما أنّ الإسلام والإيمان يعمّ المسلمين ولبعضهم اسم يخصّه إمّا لنسب وإمّا لمذهب وإمّا لبلد[3]».

وبعد أن يتحدّث إبن تيميّة عن (دين) العلويّين ملصقاً بهم شتّى الاتهامات، يخلص إلى الافتاء، فيقول:

« ... لا يجوز أن ينكح لرجل مولاته منهم، ولا يتزوّج منهم امرأة، ولا تباح ذبائحهم... وأمّا أوانيهم وملابسهم فكأواني المجوس وملابس المجوس... فأوانيهم لا تستعمل (من قبل المسلم) إلاّ بعد غلي ... ولا يجوز دفنهم في مقابر المسلمين، ولا يُصلّى على من مات منهم... وأمّا استخدام مثل هؤلاء في ثغور المسلمين أو حصونهم أو جندهم فإنّه من الكبائر، وهو بمنزلة من يستخدم الذّئاب لرعي الغنم، فإنّهم من أغشّ الناس للمسلمين ولولاة أمورهم، وهم أحرص الناس على فساد المملكة والدولة، وهم شرّ من المخامر الذي يكون في العسكر، فإنّ المخامر قد يكون له غرض، إمّا مع أمير العسكر وإمّا مع العدوّ، وهؤلاء مع الملّة ونبيّها ودينها وملوكها وعلمائها وعامّتها وخاصّتها، وهم أحرص الناس على تسليم الحصون لعدوّ المسلمين، وعلى إفساد الجند على وليّ الأمر وإخراجهم عن

١ - يتّضح هنا أنّ ابن تيميّة يحمّل النصيريّين وزر ما يتّهم به الفاطميّين.
٢ - يتّضح هنا أنّ ابن تيميّة يحمّل النصيريّين وزر ما يتّهم به الحشّاشين.
٣ - يتّضح من ذلك أنّ ابن تيميّة قد قصد بفتواه جميع الفرق الشيعيّة المغالية، وقد حمّل أوزار أعمالها جميعاً للنصيريّين.

طاعته. والواجب على ولاة الأمور قطعهم من دواوين المقاتلة، فلا يتركون في ثغر وفي غير ثغر، فإنّ ضرورهم في الثغر أشدّ، وأن يستخدم بدلهم من يُحتاج إلى استخدامه من الرّجال المأمونين على دين الإسلام وعلى النصح لله ورسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم، بل إذا كان وليّ الأمر لا يستخدم من يغشّه وإن كان مسلماً فكيف بمن يغشّ المسلمين كلّهم؟ ولا يجوز له تأخير هذا الواجب مع القدرة عليه، بل أي وقت قدر الاستبدال بهم وجب عليه ذلك».

وبعد أن يحدّد ابن تيمية شروطاً قاسية لتشغيل العلويّ النصيريّ من قبل المسلم، ينتقل إلى أخطر ما جاء في الفتوى: إلى إباحة دمائهم، فيقول:

« ... لكنّ دماءهم وأموالهم مُباحة، وإذا أظهروا التّوبة ففي قبولها منهم نزاع بين العلماء... لكن هؤلاء إذا أخذوا فإنّهم يُظهرون التّوبة لأنّ أصل مذهبهم «التقيّة» وكتمان أمرهم، وفيهم من يعرف وفيهم من قد لا يعرف، فالطريق في ذلك أن يُحتاط في أمرهم، فلا يُتركوا مجتمعين، ولا يمكّنوا من حمل السلاح، ولا أن يكونوا من المقاتلة، ويُلزمون شرائع الاسلام: من الصلوات الخمس، وقراءة القرآن، ويُترك بينهم من يعلّمهم دين الإسلام ويُحال بينهم وبين معلّمهم... ولا ريب أنّ جهاد هؤلاء وإقامة الحدود عليهم من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب... وأيضاًفإنّ ضرر هؤلاء على المسلمين أعظم من ضرر من يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب. وضررهم في الدّين على كثير من الناس أشدّ من ضرر المحاربين من المشركين وأهل الكتاب...».

وفي نهاية إفتائه، يحضّ ابن تيميّة المسلمين على أن يقوم كلّ واحد منهم بالإخبار عنهم حيث وجدوا...

وبنتيجة هذا الإفتاء، جرّد المماليك على النصيريّين، حيثما وجدوا، حملات شعواء، قتلوا بخلالها من قتلوا، ومَن سلم منهم فرّ إلى الجبال النائية ليعيش في شظف العيش المرير طوال أكثر من مائتي عام، إلى أن كانت نهاية دولة المماليك على يد العثمانيّين. ومن مراجعة المدوّنات يتّضح لنا أنّ النصيريّة، في حقبة اضطهاد المماليك لهم، كان بعض منهم يقطن جبال لبنان الجنوبيّة والوسطى، وقد

لحقهم الاضطهاد كما لحق الشيعة الآخرين، والدروز، والمسيحيّين، ومن سلم منهم انتقل إلى أعماق جبل النصيريّة في سورية.

السلطان سليم العثماني الذي دخل سورية سنة ١٥١٦، وقضى على المماليك في معركة مرج دابق، سار على خطى أعدائه في محاربة النصيريّة، إذ حصل على إفتاء مماثل لمفتي دولة المماليك، من علماء دولة العثمانيّين، قضى بقتال «العلويّين الكفرة» وذلك استناداً إلى ما جاء في الآية: «قاتلوا التي تُبغي حتّى تفيءَ إلى أمر الله[1]».

هاجم الأتراك الكرخ البغداديّة ونهب الجيش أموال العلويّين وسبى نساءَهم وقتل رجالهم واسترقّ ذراريهم، ثمّ زحف على حلب، فجاءه الأمراء والمقدّمون والمشايخ العلويّون من كلّ ناحية يطلبون منه الرحمة على رعاياهم، وإذ اجتمع إلى السلطان سليم تسعة آلاف وأربعمائة رجل منهم، قتلهم بموجب تلك الفتوى، ثمّ أمر بقتل العلويّين باسم الدين... فتاه قسم منهم شارداً في البراري، وقسم تبعه في جيوشه الظافرة، وهرب بعضهم إلى الجبال، والقوّات التركيّة تتبّع أفراده وتقتل من تظفر به منهم، وقد قُتل في حلب وحدها أربعون ألفاً، وعمّت البليّة علويّي دياربكر وماردين والعواصم والبلاد التركيّة وسائر الأناضول، حيث كان العلويّون الذين لا يبادرون إلى الانتساب الى المذهب السنّي الشافعيّ يُبادون... وبعد حلب وجوارها، حاول السلطان سليم الزحف إلى الجبال لتتبّعهم. وإذ تعذّر عليه ذلك لمناعة تلك الصرود، استقدم بعض العشائر التركيّة وأسكنها بجوار العلويّين لمضايقتهم، «وكان القصد من ذلك تسليط العشائر التركيّة عليهم لمحوهم... ثمّ استولى الأتراك على جميع سهلة جبلة واللاذقيّة... حتّى لم يبقَ أثر لهم فيها سوى مقابر الأجداد[2]».

---

١ ـ الآية ٤٩:٩

٢ ـ محمّد الطويل، تاريخ العلويّين، ص ٢٠٦ وما يليها

بعد كلّ هذا، تحالف الإسماعيليّون مع الأتراك ضدّ العلويّين، ممّا جعل هؤلاء الأخيرين في حالة حصار، عرفوا خلالها الضيق القاسي، وراحت عشائرهم تتناحر في صراعها من أجل البقاء، وتتنافس «على تحصيل المعاش لضيق المنطقة التي لجأوا إليها، ولكثرة عدد النازحين، حتّى جرى بينهم قتال وشرور، فأصبح الأخ يقتل أخاه ليأكل ما عنده، وبذلك تمكّن السلطان العثمانيّ من إبادة الملايين من العلويّين القاطنين في ديار بكر والموصل وحلب وأدنى الأرض السوريّة ومصر. هذا عدا عمّا قتل منهم في بلاد فارس[1]».

رغم هذه الاضطهادات «كانت مناعة جبل النصيريّة سبباً في المحافظة على وجودهم فيه، غير أنّهم لجأوا إلى التقيّة هذه المرّة، فمرّت قرون دون أن تعود تُعرف الهويّة الدينيّة لساكني تلك الجبال، فعُرفوا حيناً بأنّهم مجوس، وحيناً آخر بأنّهم مسيحيّون... وبذلك اكتسبوا تلك العوائد المختلطة في طقوسهم التي فيها من الطقوس المسيحيّة والمجوسيّة الشيء الكثير».

استمرّ اضطهاد العلويّين طوال العهد العثمانيّ، وقد كلّف العثمانيّون بعض الأقلّيّات الأخرى بضربهم كما فعل إبراهيم باشا سنة ١٨٤٨، لمّا استعان باللبنانيّين من موارنة ودروز لإخضاع العلويّين في جبلهم، إلى أن جاء عهد مدحت باشا (١٨٢٢ ـ ١٨٨٤ م.) الذي لُقّب بـ «سيّد الأحرار في الشرق».

كان مدحت باشا من أعظم رجالات الإدارة العثمانيّة، وقد تميّز عن سابقيه بنشر الروح الدستوريّة الحديثة في البلاد العثمانيّة، وكانت سابقة إعطاء نوع من الاستقلال الذاتيّ لمسيحيّي لبنان منذ العام ١٨٦٠ قد برهنت على نجاح التجربة، وكان العلويّون يحاولون الحصول على ما حصل عليه موارنة لبنان من ضمانات واستقلال، إلاّ أنّهم كانوا لا يزالون منعزلين عن الدولة العثمانيّة، مناصبين رجالها

---

١ ـ المصدر السابق، ص ٣١٦ ـ ٣٩١

العداء، فبادر مدحت باشا إلى زيارة حماة، وطلب زعماء النصيريّة من مقدّمين ومشايخ، وكانوا نحو خمسمائة، فوقف بينهم خطيباً، وقال:

«يا أمراء ومقدّمين ومشايخ، لماذا تبقون تجاه الحكومة في موقع العُصاة، وأنتم مصرّون على عدم تأدية التكاليف الأميريّة، وعلى عدم إيفاء الخدمة العسكريّة، ولا تقبلون الأحكام القانونيّة، وأنتم مُصرّون على مخالفة الحكومة؟ يا أولادي، أنتم لا تعترفون بعدالة الحكومة، لأنّكم لم تروا في أعمالها شيئاً يدلّ على النيّات الحسنة نحوكم، ولم تصادفوا قراراً لها في شؤونكم يوافق قواعد العدل... لا تنقادون لأوامر الحكومة لأنّ المأمورين الذين يذهبون لعندكم لا يعملون شيئاً إلاّ تذليل نفوسكم العزيزة، ولم تكونوا في نظرهم إلاّ غنيمة تؤكل، ولم تشاهدوا في الحكومة أذناً تصغي لأنين شكواكم، وأنواحكم تذهب ضياعاً. فأنتم تعتقدون أنّ هذه هي الحكومة. أمّا السوريّون فإنّهم يعتقدوه أنّكم ذوو أخلاق تقتضي معاداتكم إلى الأبد، ويهتمّون في إقناع الحكومة على ذلك... أنتم تجاه الحكومة في موقع العصاة، لأنّه لا يوجد في جبلكم مدرسة تعلّمكم واجباتكم، ولا طريق يوصلكم لمركز المدينة، ولا أثر يدلّكم على العمران والرّفاهية، ولم تشاهدوا سوى المظالم والتعدّيات التي أوجدت فيكم المخالفة وخشونة الطبع... فلذلك بقيتم دائماً كالعصاة، وواظبتم على الممانعة، وهذا أمر طبيعيّ، فلا لوم عليكم يا أولادي، أطمئنكم أنّي سأدفع عنكم تلك الأحوال الإداريّة السقيمة، وسأجعلكم تستقلّون في الحكم بأنفسكم كما هي الحالة في جبل لبنان... سأفتح لكم مدارس تساعدكم على الترقي، وتعلّمكم واجباتكم، وأنشئ لكم طرقاً تسمح لكم بالاشتراك في الحياة البشريّة العموميّة، وتكونون أنتم الحكّام على أنفسكم، وحينئذ تلقون أنفسكم في حضن أمّكم الشفوقة الحكومة العثمانيّة[1]».

أوردنا نصّ هذا الخطاب لأهمّيّة مضمونه. إلاّ أنّه من سوء طالع العلويّين - النصيريّة الذين وجّه إلى زعمائهم مدحت باشا هذا الخطاب، أنّ ردّة فعل سنّة دمشق عليه كانت سلبيّة عنيفة، فراح أشراف الشام يدسّون الدّسائس ضدّ مدحت باشا أمام السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢ - ١٩١٨) مدّعين أنّه «يريد إجهاد الحكومة والاستقلال عنها». وبما كان معروفاً عن عبد الحميد من

١ - المصدر السابق، ص ٤٠٢ وما بعدها.

استبداد في مقاومة الدستور، سارع إلى نقل مدحت باشا إلى إزمير بعدما وُجّهت إليه تهمة السعي «لاستقلال سورية ومحاولة تفريقها عن الجامعة العثمانيّة»، ثمّ أثبتوا عليه من خلال اللوائح المُرسلة إلى الإستانة، والتي يطلب فيها الإدارة المستقلة لجبال النصيريّة، أنّه خائن لبلاده، فنُفي إلى الطائف حيث مات مخنوقاً في سجنه. وبذلك أصيب العلويّون بخيبة أمل مريرة بسبب محاربة السوريّين السنّة لاستقلالهم الذي كادوا أن يحصلوا عليه، وكان قد تقرّر جعل بلدة الشيخ بدر، في محافظة طرطوس السوريّة اليوم، مركزاً لمتصرفيّتهم، على أن يشكّل من بلاد العلويّين لواء مستقل، تكون له صبغة خصوصيّة تُشابه إدارة جبل لبنان يومذاك.

إثر هذه الخيبة، عاد الظلم والاستبداد ليتحكّما بالعلويّين النصيريّين، فإنّ جمال باشا المعروف بالسفّاح (١٨٧٢ - ١٩٢٢) قد تمكّن من إحلال المجاعة في جبال العلويّين كما فعل في جبل لبنان بالنسبة لمسيحيّيه، وأخذ السفّاح من العلويّين أموالهم وساق رجالهم إلى الحرب، وشهد جبلهم في تلك الظروف القاسية ضعفاً في الزراعة والمحاصيل، فانهارت الصحّة العامّة حتّى فتكت الحمّى بأهالي الجبال، وأسفرت عن وفاة حوالى مائة ألف نسمة. ولم يكتفِ الأتراك بهذا القدر من الكوارث، بل زادوا الضغوط عليهم إلى أن طردوهم من أضنة، وصادروا أسلحتهم الحربيّة، وشتّتوهم في الأقفار البعيدة. ولم تتغيّر أوضاع العلويّين - النصيريّين إلاّ بعد توقّف الحرب بمعاهدة ١٨ تشرين الأوّل (أوكتوبر) سنة ١٩١٨ التي دخل الفرنسيّون على أثرها الأراضي السوريّة وضمنوا للعلويّين حياتهم.

***

ما أن وضع الفرنسيّون يدهم على المنطقة، حتّى سارع وجهاء العلويّين إلى مطالبة السلطة المنتدبة بعدم دمج جبل النصيريّة بأيّة دولة أخرى، وبإعطاء الشعب العلويّ استقلاله ضمن دولته القوميّة. إلى أن صدر في ٣١ آب (أغوسطوس) سنة

١٩٢٠ أمر من القوميسريّة العليا في بيروت، أُعطي بموجبه للعلويّين استقلالهم الداخليّ، فأصبح جبل النصيريّة إذ ذاك يُعرف بـ «أراضي العلويّين المستقلّة». وكان الجنرال غورو قد عمد إلى تلبية رغبات سكّان الولايات السوريّة القديمة، فراعاها، وأنشأ الدول الأربع المؤلّفة من: دولة دمشق، ودولة حلب، ودولة العلويّين، وأنشأ لجبل الدروز في حوران حكومة مستقلّة[1]، وعيّن لكلّ دولة حاكماً وطنيّاً فيما خلا بلاد العلويّين حيث الحكم العسكري كان لا يزال ضروريّاً[2].

هذه المرّة أيضاً، قامت معارضة سنيّة ضدّ مبدأ إعطاء الأقلّيّات حقّ الحكم الذاتيّ، ممّا جعل الجنرال غورو يحاول ربط هذه الدول بنوع من الاتحاد الفدراليّ، مع المحافظة على القدر الممكن من الاستقلال الذاتي. وفي ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٩٢١ ألقى في دمشق خطاباً وضع فيه أساس الوحدة السوريّة بإنشاء مجلس اتّحاد لها، وشرح نظام إدارة الدول الأربع. وبعد يومين ألقى خطاباً آخر في حلب جاء فيه:

«... كان العمل الأوّل الذي قامت به فرنسة لتوطيد اتّحادكم وحرّيتكم الوطنيّة، تأسيس الحكومات المستقلّة، وكانت غاية ذلك، مراعاة النزعات الخاصّة، ووضعها في إطار بحيث يتألّف منها مجموع متناسب الأجزاء. دونكم مثلاً لذلك سويسرة، فإنّه مع ما فيها من اختلاف الألسنة والأديان، نرى سكّانها يعملون متآزرين كإخوان على حفظ هذا الاتحاد القائم على العاطفة المشتركة. وإليكم أيضاً مثلاً على ذلك الولايات المتحدة. هذه الاعتبارات التي حملتني السنة الماضية على انشاء دول سورية مستقلّة... ولكن لم يفتني قط وجوب أحكام الصلات بين هذه الدول التي ينبغي أن يؤلّف مجموعها سورية المستقلّة، أي سورية التي طالما رغبت فرنسة في إنشائها، ... ويجب أوّلاً تنظيم هذه الدُول ومنحها قسطاً أوفر من الحريّة وتأسيس صلة اتّحاد بينها ... ولا أذكر لبنان بين دول الاتّحاد لأنّ تقاليده الخصوصيّة تقضي عليه بالسعي على انفراد وراء التقدّم،

١ - راجع: طوني مفرّج، حرب الردّة، دار الجريدة (بيروت ١٩٧٩) حيث تجد توسّعاً في هذا الموضوع.
٢ - عبد الله صغير الباشا. الانتداب الفرنساوي والتقاليد الفرنساويّة في سورية ولبنان. مطبعة أمين هنديّة، (مصر ١٩٢٢) ص ٦٥

وبمشاركة قليلة في الاتّحاد السوريّ لا تتناول إلاّ الواجهة الاقتصاديّة دون سواها إلى أن يقرّر من تلقاء نفسه الدخول في هذا الاتّحاد[1]» ...

عارض أعوان الحجاز السنّة هذا القرار بشدّة، ممّا جعل بعض أعضاء مجلس النوّاب في فرنسة يُطالب بالتخلّي عن سورية. وبين العام ١٩٢٢ والعام ١٩٣٦ ناضل العلويّون بمرارة من أجل الحفاظ على كيانهم السياسيّ، ولكنّ محاولاتهم باءت بالفشل أمام رفض الأكثريّة السنيّة في المنطقة، ومصالح الدول الغربيّة معها. فذاب الكيان العلويّ في الجمهوريّة السوريّة[2]. وأكثر العلويّين النصيريّين اليوم يعيشون في الساحل والجبل النُصَيريّين شمال سوريّة، وقد توزّع قسم كبير منهم في المدن السوريّة، أمّا عددهم الإجمالي فيزيد على المليون ونصف مليون نسمة.

١ - المرجع السابق، ص ٦٥ - ٦٧
٢ - راجع: طوني مفرّج، حرب الردّة، ص ٢٠٨ - ٢١٧

خاتمة

الشيعة اليوم

الشيعة اليوم

يشكّل الشيعة اليوم، بمجمل فرقهم، أقلّيّة صغيرة نسبة إلى مجموع المسلمين في العالم. وفي البلاد العربيّة، يقدّر عدد الشيعة من مختلف الفرق بحوالى ١٢,٢ مليون نسمة، ويتوزّعون على الشكل التالي[١]:

حوالى ٨ ملايين من الاثني عشريّة، موزّعين على العراق ولبنان وأقطار الخليج.

حوالى ٢,٥ مليونين ونصف من الزيديّة، موزّعين على اليمن وجنوب الجزيرة العربيّة.

حوالى ٢٠٠ ألف من الشيعة الإسماعيليّة، موزّعين على سورية ولبنان والعراق وأقطار الخليج.

حوالى ١,٥ مليون من العلويّين النصيريّة، أكثريّتهم الساحقة في سوريّة، وبعضهم في لبنان.

وليس في العالم العربيّ اليوم أي كيان سياسيّ شيعيّ، إنّما كيانهم السياسيّ الوحيد، ينحصر في الدّولة الإيرانيّة. أمّا في العالم العربي، فلهم مشاركة ملحوظة في السلطة السياسيّة في الدولة اللبنانيّة.

بالنسبة إلى الشيعة، لا يمكن قياس الفاعليّة بالعدد، فلقد كانوا دوماً أقلّيّة، ولكنّهم شكّلوا أبداً وقود الحركة عبر التاريخ الإسلاميّ العربيّ، سواء كان المحرّك المستهلك لذاك الوقود، منهم، أو من سواهم، ذلك أنّ المهمّ هو بقاء جذوة ثورتهم مشتعلة. فالثورة في تراثهم متلازمة مع الوجود. ومن يتعمّق في الأصول، لا يسعه

---

١ - راجع: الدكتور سعد الدين إبراهيم، المجتمع والدولة في الوطن العربي، مركز دراسات الوحدة العربيّة، (بيروت ١٩٨٨) ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

أن يتوقّع نهاية للثورة الشيعيّة، وإن كان بوسعه أن يتوقّع لها بعض هدوء من وقت لآخر.

إنّ جماعة كان معتقدها بحقٍّ ما، أصل نشوئها، لا يمكن أن تهدأ تماماً من غير أن تغيّر الواقع المناهض لما تراه حقّاً، وإلاّ فقدت مبرّر وجودها. ومتى كان إحقاق ذلك الحقّ شبه مستحيل، فذلك يعني دوام الثورة. أولئك هم الشيعة.